العلم النافع

سبيل النجاة

محاضرات

سماحة المرجع الديني

آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله

تقرير

عبد الرضا افتخاري

إعداد

مؤسّسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الثقافية

العلم النافع

سبيل النجاة

محاضرات في الأخلاق وتربية النفس لسماحة المرجع الديني

آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله

تقرير: .... عبد الرضا افتخاري

إعداد: .... مؤسّسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الثقافية

الناشر: ....ناجي جزايري

الطبعة الأولى: .... صفر الخير ١٤٢٩ هـ

عدد المطبوع: ٢٠٠٠

الفلم و الزنك: ....طاها صلى الله عليه وآله

المطبعة: ....طاها صلى الله عليه وآله

ردمك: ....٢ - ٠٧ - ٢٦٨٢- ٩٦٤ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم»

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

وبعد.. لقد تظافرت الروايات الشريفة في الدعوة لحضور مجالس العلماء للاستفادة من علومهم والاسترشاد بتعاليمهم الروحية والفكرية والخُلُقية؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**مجالسة العلماء عبادة**»[1]. وعن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «**العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة**»[2].

كما حثّت الروايات على تدوين العلم وتقييده بالكتابة، مثل قول النبي صلى الله عليه وآله: «**قيّدوا العلم**» قيل: وما تقييده؟ قال: «**كتابته**»[3].

ومن بين تلك المجالس المليئة بالمعارف والعبر، مجالس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله، الذي طالما أتحف مستمعيه بالنكات الخفية والمعارف الدقيقة الكامنة في طيّ كلمات أهل البيت سلام الله عليهم وسيرتهم، فكانت مجالسه تُعَدُّ بحقّ منابع تربويّة كفيلة بأن ترشد المؤمنين إلى الاقتداء بأهل البيت سلام الله عليهم وتحثّهم في السير على نهجهم، عقيدةً وفكراً، وأدباً وخُلُقاً.

فمن منطلق العمل بالأحاديث الشريفة الداعية إلى الاستفادة من مجالس العلماء ونشرها باشر قسم الترجمة والتحقيق في مؤسّسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعون الله تعالى وتوفيقه بتدوينها وتتبع مداليلها الروائية والتاريخية عبر

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج١ ص٢٠٤ باب٤، مذاكرة العلم ومجالسة العلماء، ح٢٤.

(٢) كنز الفوائد للكراجكي: ص١٣ الفصل الأوّل، مختصر الكلام في أنّ للحوادث أوّلاً.

(٣) مستدرك سفينة البحار للنمازي: ج٩ ص٢٨، باب فضل كتابة الحديث وروايته.

مظانّها، فكانت (نفحات الهداية) المجموعة الأولى التي قدّمناها للقرّاء الكرام، والتي ضمّت طائفة قيّمة من أحاديث سماحته التربوية في مناسبات مختلفة.

ثم جمعنا ما أفاض به سماحته من الإرشادات التربوية والخلقية في شرح بعض مقاطع دعاء «مكارم الأخلاق» للإمام زين العابدين علي بن الحسين سلام الله عليهما، فكان كتاب (حلية الصالحين).

وكنّا قد واعدنا قرّاءنا الأعزّاء بباقي محاضرات الأخلاق التي كان يلقيها سماحته يوم الأربعاء من كلّ أسبوع على طلاب العلوم الدينية، فكان هذا الكتاب الذي يضمّ بين دفّتيه هذه المحاضرات التي يعود زمن إلقائها لفترات مختلفة تمتدّ من عام ١٣٩٦ إلى عام ١٤٢٠هـ، وفصلاً ثانياً اشتمل على كلمات ووصايا قيّمة لسماحته خلال لقائه بوفود من أهل العلم من أساتذة وطلاّب الحوزات والمعاهد والجامعات وأئمّة الجمعة والجماعة والمبلّغين من إيران والعراق وأقطار أخرى زوّدَنا بها قسم التحرير في موقع سماحته، ورأينا إلحاقها بهذه المحاضرات، للمناسبة التي بينها وهي كونها تربوية أيضاً وتخاطب بالدرجة الأولى رجال العلم والدين من حوزويين وجامعيين، أساتذة وطلاّباً.

وفي الختام لا يسعنا إلاّ أن نتوجّه بالشكر إلى كلّ الإخوة الذين ساهموا في إعداد وإخراج هذا الكتاب لاسيّما الأخ عبدالرضا افتخاري، والسيّد خلدون العسكري، والأستاذ علاء حسين. نسأل الله العليّ القدير أن يسدّدنا وإيّاهم ويوفّقنا لتقديم المزيد على هذا الطريق ولكلّ ما يحبّه ويرضاه، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

قسم الترجمة والتحقيق

في مؤسّسة الرسول الأكرم ﷺ الثقافية

الفصل الأوّل:

المحاضرات

(١)
العلم والأخلاق

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**نوم مع علم خير من صلاة مع جهل**».[١]

هذه الرواية من الروايات التي يجدر الوقوف عندها والتأمّل فيها. وذلك لأنّ الهدف من خلق الإنسان هو العبادة؛ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢]، والصلاة رأس كلّ العبادات وأهمّها، بل هي العبادة التي «**إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواها**»[٣] فالطاعات والعبادات جميعها مرهونة بمدى قبول الصلاة أو ردّها، ومع ذلك نرى النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ الذي به عُرفت الصلاة وحقائق العبادة، وكان منطقه منطق القرآن والوحي، وحكمه الحقّ ـ يخبرنا أنّ نوم العالِم خير من الصلاة ـ وهي أهمّ الطاعات والعبادات ـ إن كانت مع جهل[٤]. فكيف يكون ذلك؟

---

(١) بحار الأنوار: ج١ ص١٨٥ باب١، فرض العلم...، ح١٠٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) فلاح السائل لابن طاووس: ص١٢٧.

(٤) حقّاً لو أنّ هذا التعبير لم يرد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلى لسانه، لما أمكن لأيّ عالِم ـ غير أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم ـ أن يتفوّه بمثله أبداً؛ إذ كيف يكون النوم ـ مع أنّ النائم لا يعمل شيئاً ـ خيراً من الصلاة، وهي رأس العبادات وأهمّها؟ =

إنّ نوم العالِم ليس تركاً محضاً بل هو مقدّمة وجـود؛ لأنّ العـالِم إذا نـام استراح، واستراحته هذه تمثّل مقدّمة للخدمة والهداية وإرشاد النـاس وإخـراجهم من الظلمات إلى النور. فنوم العالِم حسنة إذاً.

أمّا الجاهل فإن لم يصلّ الصلاة الواجبة فتلك سيّئة، وإذا صلاّها مـع الجهل بها، يكون قد أذهب فضلها. حينها يستوي في ذلـك مـع مـن لـم يأت بها.

صحيح أنّ القاصر لا شيء عليـه، لأنّ مـن أصـول الإسـلام العـدل، والله سبحانه وتعالى عادل، ومن عدله أن لا يعذّب القاصر، فمن وُلد في مكـان أو زمان أو ظرف بحيث كان قاصراً على الإحاطة بأيّ خطاب أو بلاغ، لا يُعذَّب ولا يُعاقَب ولا تكتب له سيّئة، إلاّ أنّ القاصر يستوي مع المقـصّر مـن حيـث الحرمان من ثمار الواجب الذي أُمرَ به المكلف. لذا فنـوم العـالِم أفـضل مـن صلاة الجاهل سواء كان قاصراً أو مقصراً؛ لغياب الثمرة من صلاتهما.

أمّا الجاهل المقصّر فقد ذهب المحقّقون الأعاظم من الفقهاء والأصوليين إلى أنّ حكمه حكم العالِم العامد خطاباً وعقاباً.

فكما أنّ العالم العامد ـ أي الذي يعمل عملاً ويعلم أنّه حرام ـ قد توجّـه الخطاب إليه أمـراً ونهيـاً، فكـذلك الجاهـل المقـصّر يتوجّـه إليـه الخطـاب، ويستحقّ العقاب على المخالفة، دون أن يكون فيه إشكال عقلاً.

قد لا يوجد في صفوف أهل العلم جاهل قاصر، فإنّه لا يُقـصد بالجاهـل المقصّر مَن كان مستواه الدراسي أدنى أو كانت معلوماته أقلّ، بقدر ما ينطبـق

= نعم، لو كانت الصلاة باطلة، كان عدمها خيراً من وجودها، والنوم تركٌ أي عدم، ولكنّ الحديث لم يقيّدها بالبطلان أو عدم القبول وما أشبه، بل فضّل النوم إن كان مع علم، على مطلق الصلاة ـ صحيحة أو باطلة ـ إذا كانت مع جهل (منه دام ظله).

هذا الوصف على طالب العلم الذي يجهل بعض أحكام الله تعالى بسبب تقاعسه، فيعمل الحرام وهو لا يعلم ـ تقصيراً منه ـ أنّ عمله هذا حرام، وكان بمقدوره أن يعلم أنّه حرام فيجتنب عنه.

فمادام المؤمن باذلاً عمره في سبيل الله سبحانه وتعالى، منفقاً وقته وساعاته ودقائق حياته في طاعة الله، مصلّياً أو صائماً أو حاجّاً أو معتكفاً أو قارئاً للقرآن، فليخصّص حظّاً منه للعلم، وأعني به العلم بأصول الدين وأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

وعلينا بعلم الأخلاق أيضاً، فليست أخلاق الإسلام وآدابه كلّها لا اقتضائيّة ـ حسب الاصطلاح العلمي ـ أي مستحبّات ومكروهات، بل إنّ فيها الواجبات والمحرّمات أيضاً. فهذا كتاب جامع السعادات[١]، وكذلك باب الأخلاق في كتاب بحار الأنوار[٢]، وتلك كتب الأخلاق الأخرى راجعوها تجدوها مليئة بالواجبات والمحرّمات.

العلم ينقذ

ولكي ندرك أهمّية العلم أكثر وأنّه كيف صار النوم مع علم خير من صلاة مع جهل، أنقل لكم هذه الحكاية وقد سمعتها من أحد العلماء الذين عاصروا الشيخ عبد الكريم الحائري[٣]؛ فلا يزال بين ظهرانينا اليوم جملة من

(١) للشيخ المولى مهدي النراقي (ت: ١٢٠٩هـ). وهو كتاب أخلاقيّ.

(٢) للعلاّمة الحجّة فخر المحققين المولى الشيخ محمد باقر المجلسي قدس سره (١٠٣٧ ـ ١١١٠هـ)، وهو موسوعة قد جمع المؤلّف فيها ما وقع عليه من أخبار الأئمة المعصومين سلام الله عليهم، لذلك أسماه: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار.

(٣) هو: الفقيه الشيخ عبد الكريم محمد جعفر المهرجردي اليزدي الحائري (ت ١٣٥٥ هـ)، مؤسّس الحوزة العلمية في مدينة قم المقدّسة.

الذين عاصروه، وممّن تجاوزت أعمارهم السبعين، وينقل بعضهم عنه قصصاً من دون واسطة.

حدّثني ذلك العالِم قائلاً: نزل أحد أصدقاء الشيخ عبد الكريم الحائري ضيفاً عنده، ولم يكن معهما ثالث[١]، ومُدّ خوان متواضع وجاء الشيخ بما كان عنده من طعام عاديّ وبسيط في بيته، وأخذ الضيف يأكل والشيخ كذلك. ولكن فجأة سحب الشيخ يده للحظات وتأمّل، ثم مدّ يده ثانية إلى الطعام واقتطع قطعة من اللحم، وقام ودخل إلى غرفة في الدار ثم عاد بعد ذلك واعتذر للضيف قائلاً: لقد انتبهت فجأة أنّ كلّ اللحم الذي اشتريته اليوم قد طهته زوجتي ووضعتْه أمامنا، ولما كانت الزوجة واجبة النفقة عليَّ، فقد أحسستُ أنّي ربّما وقعت في مشكلة شرعية نحوها، فقلت لنفسي: أن أعتذر للضيف خير لي من أن أقع في مخالفة شرعيّة؛ كان الخوف الذي تملّكني من هذه الناحية هو أن أترك زوجتي هكذا من دون طعام، لأنّ هذا العمل خلاف للمروءة، بل لعله ترك للواجب، خاصّة وهي التي قامت بذلك العمل بنفسها وهيّأت لنا هذا الطعام، فينبغي لي أن أكون منصفاً.

انظروا إلى ورع الشيخ وكيف أنقذه علمه!

إنّ الكرم خصلة محمودة، وكذا السخاء والإنفاق وإقراء الضيف، فكلّ ذلك عمل محبّب ومقبول، ولكن إلى حيث لا يؤدّي إلى ترك واجب أو ارتكاب محرّم. ولعلّ كثيراً منّا لا يعلم أنّ مثل التصرّف الذي قام به الشيخ الحائري قد يكون واجباً. فها هنا يأتي دور العلم لينفع صاحبه ويقول له: إنّ إقراء الضيف محدود بعدم ترك الواجب، ولو أنّ أحداً نزل به ضيف ثم قام

---

(١) ولذلك فإنّ الناقل الأوّل للقصة يحتمل أن يكون الشيخ أو ضيفه.

بجلب طعام مَن تجب نفقته عليه وقدّمه بين يدي الضيف من دون رضا واجب النفقة ومن دون وجود طعام فائض، فإنّ إقراءه هذا غير جائز، باتفاق العلماء.

إذاً، علم الشيخ الحائري قد نفعه. فهذا هو الذي صلاته مع العلم لا يعادلها شيء؛ لأنّ الإنسان الذي عنده علم، لا يعمل الحرام في سبيل ترك مكروه، ولا يترك واجباً من أجل الإتيان بعمل مستحبّ، وهو يتحمّل ما يُخجل عند الناس ولا يعمل ما يُسخط الله تعالى. ولاشكّ أنّ الشيخ عبد الكريم قد خجل وشعر بالحرج تجاه ضيفه، ومن المؤكّد أنّ هذا الموقف لم يكن على الشيخ سهلاً، ولكنه مع ذلك لم يبال، لأنّ ما هو أخطر منه في نظره أن يقع في معصية مولاه عزّ وجلّ، وكان لعلمه الأثر المهمّ في تورّعه. فلو كان جاهلاً ـ بالقضية ـ لما تصرّف هكذا.

وقد ينطبق على الجاهلين بالأحكام الشرعية قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1].

صحيح أنّ صدر الآية ورد في الظالمين، ولكن ثمّة تفاسير[2] تقول: إنّها ـ أيضاً ـ في فريق من الناس يظنّون أعمالهم في الدنيا حسنات لكنّها تظهر لهم في الآخرة سيّئات، كما في إقراء الضيف بطعام واجب النفقة من دون رضاه، مثلاً.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٢) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي، مورد تفسير الآية.

أهمية العلم للواعظ

كان هذا مثالاً واحداً تبرز فيه أهمية العلم وتفضيل نوم صاحبه على الصلاة مع جهل، وإلاّ فإنّ أكثر أعمال الجاهل المقصّر سيّئات. فلو أخذنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب المثال أيضاً، لرأينا الشيء نفسه؛ لأنّ الجاهل إذا لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر ـ وكان واجباً عليه ـ فقد ارتكب سيّئة، وإن أمَر ونهى فلا يبعد أن يكون أمره ونهيه سيّئة، لأنّه لا يعلم الكيفية والوقت والأسلوب اللازم للأمر والنهي الواجبين عليه، بل قد يقول عن المكروه: إنّه حرام، أو عن المستحبّ: إنّه واجب، فيصدر منه ـ والعياذ بالله ـ الحكم بغير ما أنزل الله سبحانه.

لقد شاهدتُ أحد الأشخاص يعظُ في مجلس حضره أحد مراجع التقليد، فذكر مكروهاً من المكروهات وقال عنه أنّه حرام؛ اعتماداً على رواية طالعها. فكان من بين الحضور رجل كبير السنّ يعرف شيئاً من المسائل الشرعية انتابه الشكّ، فذهب إلى المرجع وسأله عن الموضوع، فقال له المرجع: كلاّ إنّ هذا الأمر مكروه وليس حراماً. فجاء الرجل إلى الواعظ الذي كان يرشد الناس وقال له: لقد سألت المرجع وأخبرني أنّ ما حدّثت عنه أنّه حرام ليس حراماً بل مكروه.

فتأثّر ذلك الواعظ وجاء إلى المرجع وعاتبه بأنّ كرامته أُهدرت أمام ذلك الشخص؛ لإخباره بخلاف حديثه.

فأجابه المرجع قائلاً: لقد فكّرت في كلامك ورأيت أنّه خلاف الإجماع، أي إنّ المسألة لم تكن خلافيّة؛ يقول أحد العلماء بكراهيتها والآخر بحرمتها، وإنّما أُجمع على جوازها ولم يقل أحد بالحرمة فيها على الإطلاق.

فردّ عليه الواعظ: لكنّي وجدت رواية تنهى عن ذلك.

فقال له المرجع: ليست كلّ رواية فيها نهي، دالّة على الحرمة.

إنّ المجتهدين يُتعبون أنفسهم عدّة سنين لأجل أن يعرفوا هل النهي الفلاني يدلّ على الحرمة أو الكراهة، وهل الأمر الفلاني دالّ على الاستحباب أو الوجوب؟

فهذا مثال واضح لمن يتصوّر أنّه محسن دون أن يعي أنّ عمله عين الإساءة.

وعليه، فلا أتصوّر أن يوجد بيننا جاهل قاصر إلاّ قليل، والجاهل المقصّر ـ كما قلنا ـ كالعالِم العامد خطاباً وعقاباً، إن لم يأت بالواجب فتلك سيّئة، وإن أتى به ولكن مع المنافيات ـ مقصّراً غير عالم بها ـ فتلك سيّئة أيضاً.

موعظة تاريخية

تأمّل في هذا الحديث الصحيح الأعلائي[١]:

يقول الراوي: «كنت عند أبي جعفر الثاني[٢] عليه السلام إذ دخل عليه صالح بن محمد بن سهل ـ وكان يتولّى له الوقف بقم ـ فقال: يا سيّدي اجعلني من عشرة آلاف في حلّ، فإنّي أنفقتها. فقال له: **أنت في حلّ**، فلمّا خرج صالح قال أبو جعفر سلام الله عليه:

أحدهم يثب على أموال حقّ آل محمد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم فيأخذه ثم يجيء فيقول: اجعلني في حلّ، أتراه ظن أنّي أقول

---

(١) فإنّ الكليني ـ على حدّ تعبير بعض العلماء ـ يروي هذا الحديث عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن هاشم، فالسلسلة تقتصر على هؤلاء الثلاثة فقط وهم: الكليني، وعليّ بن إبراهيم، وأبوه إبراهيم الذي ينقل القصّة التي شهدها بنفسه في مجلس الإمام الجواد سلام الله عليه.

(٢) يعني: الإمام الجواد سلام الله عليه.

لا أفعل؟ والله، ليسألنّهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً»[١].

انظر كيف أنّ الإمام المعصوم يقول: «**أنت في حلّ**» ثم يخبر أصحابه أنّه لا فائدة من ذلك. وسببه أنّ الرجل لا يخلو إمّا أن يكون عالماً عامداً أو جاهلاً مقصّراً، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وما أخذه من الإمام إنّما أخذه حياءً؛ لقوله عليه السلام: «**أتراه ظنّ أنّي أقول لا أفعل؟**».

إنّ المطلوب هو العلم، فإنّ الإنسان لا يدري بم سيُبتلى وكيف ينبغي له أن يتصرّف، وكيف يتحدّث لئلاّ يكون من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[٢] فيعمل ويتصوّر أعماله حسنات، ثمّ ينكشف له بعد ذلك أنّها كلّها كانت سيّئات، لذا فأهل العلم أَولى بالانتباه إلى هذا الأمر الخطير.

الهلاك خير من الافتراء

عن محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني قال: «كنت عند الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح رحمه الله مع جماعة فيهم علي بن عيسى القصري، فقام إليه رجل فقال له: إني أريد أن أسألك عن شيء؟...».

فقام الرجل فسأله عن أشياء. فقال له أبو القاسم الحسين بن روح: «افهم عنّي ما أقول لك...» وأجابه إجابات مفصّلة شافية.

قال محمد بن إبراهيم بن إسحاق: «فعُدت إلى الشيخ أبي القاسم بن روح من الغد وأنا أقول في نفسي: أتراه ذكر ما ذكر لنا يوم أمس من عند نفسه؟

---

(١) الكافي للكليني: ج١ ص٥٤٨ ح٢٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

فابتدأني فقال لي: يا محمّد بن إبراهيم، لأن أخرّ من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الريح في مكان سحيق، أحبّ إليّ من أن أقول في دين الله عزّ وجلّ برأيي أو من عند نفسي[١]، بل ذلك عن الأصل، ومسموع عن الحجّة»[٢].

ضرورة التعبئة العلمية والأخلاقية

قال لي أحد طلبة العلم: سألني شخص ذات يوم عن الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى، ففكّرت قليلاً ثمّ رأيت أنّه لا ينبغي أن أتحدّث هكذا من دون علم، ثمّ يظهر للشخص أنّني لم أكن أعرف شيئاً، فخلّصت نفسي من البداية وقلت له: إنّ هذا ليس من اختصاصي!

فهل هذا يليق برجل علم؟ أليس من واجباته إرشاد الجاهل؟ أوَ ليس وجود الله تعالى وتوحيده أساس كلّ الدين وأصل أصوله؟

إنّ كثيراً من مطالب أصول الدين يشعر الفرد ـ بل حتى كثير من أهل العلم ـ بالحاجة إلى تعلّمها سواء بالدراسة أو المطالعة أو المباحثة، وكذا الحال بالنسبة لكثير من الأحكام الشرعية.

كما أنّنا بأمسّ الحاجة إلى تعبئة علمية لمعرفة كثير من الأحكام الشرعية وبالأخصّ تلك التي هي محلّ ابتلائنا، وهكذا الأمر في مقام الهداية والإرشاد وتعليم الأحكام، ومواجهة أصحاب الديانات والمذاهب الباطلة والأفكار المنحرفة. فهذا كلّه يعدّ من الواجبات العينية التي يجب على الفرد المسلم السعي لتعلّمها.

---

(١) هذا بيت القصيد وشاهدنا من هذه القصّة.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ص٥٠٧ ح٣٧.

لقد ورد في الحديث المأثور عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»[١]. وتعلمون كم هي المسافة بين الحجاز والصين، ومدى صعوبة قطعها، خاصّة في مثل تلك الأيام؛ وغايته الوصف بأبعد مسافة متصوّرة حينذاك، لما لطلب العلم من أهمية شرعية وعرفية في حياة الإنسان.

ولا ينبغي لطالب العلم (لكي يصدق عليه أنّه طالب علم) أن يقتصر على الدرس أو التدريس برهة من الزمن فحسب ـ وإن كان هذا لا بأس فيه ـ بل على المرء أن يتعلّم، إلى جنب دروسه، كلّ أحكام الحلال والحرام، بالإضافة إلى أصول الدين والأخلاق والآداب الإسلامية.

فلا يتصوّر أحد أنّ الأخلاق الإسلامية كلّها علوم لااقتضائية، فكثير مما يعبّر عنه اصطلاحاً بالأخلاق إنّما هو من الواجبات، وضدّه من المحرّمات، فإنّ التكبّر والعُجب مثلاً ليسا من المكروهات ـ بالمعنى الأخصّ ـ بل هما من المحرّمات، وكذلك المِراء ـ وهو الجدال بالباطل ـ وغير ذلك ممّا يوصف بالأخلاق الذميمة.

فمثلاً، لو قال أحدنا كلمة وكانت مطابقة لما عناه حقّاً، وكان يعلم أنّها كذلك، ثم عارضه أحد، فنوى ردّه، فإن كان ردّه لمجرد إثبات الغلبة أو الفضيلة، فهذا هو المراء الذي ورد التأكيد في النصوص والأخبار على حرمته مادام مصحوباً بهذه النيّة وإن كان لإثبات حقّ ودفع باطل، إلاّ أن يكون الردّ بهدف إثبات الحقّ لأجل الحق نفسه، فلا خلاف في صحّته، بل قد يكون واجباً عينياً.

وهنا تتبيّن أهمية العلم وكيف أنّ النوم مع علم خير من صلاة على

---

(١) روضة الواعظين للنيسابوري: ص١١، في فضل العلم.

جهل. فهذه صورة من المسائل الأخلاقية؛ ولذا لا ينبغي أن نضع درس الأخلاق جانباً بذريعة أنّه لا يخرج عن دائرة المستحبّات والمكروهات.

لقد ذكرت لأحدهم مرّة، عن كتب الأخلاق، فقال لي: أنا مشغول بالفرائض. فقلت له: وكتب الأخلاق مشحونة بالفرائض.

فلنخصّص بعض أوقاتنا ـ وبأقصى ما نستطيع ـ لتعبئة أنفسنا بالعلم في كلّ مجال مشروع وفي مجال العلم الديني خاصّة، ولنعلم أنّ موسم الدرس مناسبة جيّدة، وأنّ التسهيل من الله تعالى.

نعم، لننتهز كلّ فرصة ولا نضيّع حتى دقيقة واحدة، ولنحمل معنا الرسالة العملية التي قرأناها في أيّام شبابنا من أوّلها إلى آخرها، فربّ كثير منّا لا يتذكّر كثيراً منها، أو ربّ أمور لم يعد كثير منّا ملتفتاً إليها، فإذا ما أُتيحت له فرصة ولو بمقدار خمس دقائق، قرأ ولو صفحة واحدة منها، حتى إذا تكرّرت يكون قد تخلّص مما كان عنده من جهل مركّب في بعض المسائل، حيث كان يتصوّر أنّه يعرفها مع أنّه لم يكن يعرفها على الوجه الصحيح.

نقل لي أحد المبلّغين الذين كانوا يبيّنون المسائل العلمية قال: كنت ذاهباً إلى الحجّ وكان الناس يسألونني عن مسائل فأجيب عليها، وكنت أتصوّر أنّ إجابتي لبعض المسائل صحيحة، لكنّني لم أكن مطمئنّاً فيها، غير أنّي استحييت أن لا أجيب، فأجبت ثم كتبت الإجابات على ورقة لكي أراجعها بعد عودتي من الحجّ.

يقول: عندما راجعت المسائل لاحظت أنّي أخطأت في اثنتي عشرة مسألة خالفت فيها الإجماع، أي أنّني قمت بتعليم الناس اثنتي عشرة مسألة بصورة خاطئة!

إنّ كلّ طالب علم دينيّ معرّض ـ اليوم وغداً وفي أيّ وقت ـ لهذه الأمور والحالات، فليهتمّ بتحصيل العلم أكثر.

صحيح أنّ لديكم اهتماماً بـالعلم، ولكـن ليـزدد اهتمـامكم، واعلمـوا أنّ العلم يعني النجاة من كلّ طارئ، فإنّ الزمان قصير حقّاً نسبة لتلك الأمور. ولو أنّ أحدنا يعمّر مئة سنة، فهو قليل تجاه ما يجب عليه، فكيف وأعمارنا أقـصر من ذلك؟!

(٢)
العلم نور

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**العلم نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء**»[١].

ينبغي لأهل العلم أن يعرفوا أنّ الدراسة شيء والعلم الذي يبتغيه الله تعالى شيء آخر، فإنّ الدراسة مهما كانت واسعة وعميقة ومستوعبة فإنّها تصلح بحدّ ذاتها أن تكون مقدّمة للعلم فقط. فلو أنّ شخصاً درس عشرات السنوات وتعلّم العربية والمنطق والفقه والأصول والفلسفة والبلاغة وغيرها، يكون قد حصل على معلومات، أمّا العلم الذي يريده الله وتواترت الأحاديث الشريفة في فضله، فهو ذلك النور الذي يقذفه الله في قلب مَن يشاء؛ والله تعالى يقول: ﴿**وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ**﴾[٢].

قد يكون شخصٌ شديد الذكاء وكثير الدراسة ويعرف أموراً كثيرة، أمّا أن يُكتب عالماً عند الله ـ وحسب ما وردت به الأحاديث الشريفة ـ فليس بالضرورة؛ فقد نقل في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[٣]، فهل يعقل أن يكون هذا الفضل العظيم لصاحب المعلومات الكثيرة فقط؟!

---

(١) مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق سلام الله عليه: ص١٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٣) منية المريد للشهيد الثاني: ص١٠١، الفصل الثاني: في ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله في فضل العلم.

إنّ التحصيل العلمي مقدّمة لحصول الإنسان على مطلق العلم. أمّا ذلك النور نفسه ـ وهو ما تريده الأحاديث الشريفة ـ فهو شيء آخر، وهو من قبيل ما يدرَك ولا يوصف.

ويمكن تقريبه للذهن من خلال مثال: إنّ هناك فرقاً بين المأكل اللذيذ واللذّة؛ فإنّ الأوّل مقدّمة للثاني، ولكن ليس بالضرورة أن تتحقق اللذّة كلّما توفّر الأكل اللذيذ. كما لو جلس شخص إلى مائدة فيها ألذّ أنواع الطعام ولكنّه كان مشغول البال أو يعصره ألم شديد لدرجة أنّه لا يدري ما يأكل، فهل مثل هذا الشخص تتحقق له لذّة من تناول الأكل، مهما كان الطعام الموضوع أمامه لذيذاً؟ في حين إنّ الإنسان قد يلتذّ أحياناً بتناول طعام بسيط كالخبز والملح، ويشعر نتيجة ذلك بلذّة عظيمة إذا كان جائعاً وقنوعاً ومرتاح البال.

فكما أنّ هذه اللذّة قد تتحقّق عبرالطعام اللذيذ وقد لا تتحقّق، بل قد تتحقّق في طعام بسيط، فكذلك حال العلم. فربّ إنسان أصبح عالِماً من خلال معلومات أقلّ من تلك التي انطوى عليها شخص آخر ولم يصبح كذلك، بل ربّما كان هناك شخص عنده معلومات كثيرة جداً ولا يعدّ عند الله عالماً، وذلك بسبب ما ركبه من هوى نفسه فاستلبه كلّ علمه، فلم يعد يشعر به، فكان من الغاوين؛ قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[1].

إذاً، العلم ـ كما يستفاد من الأحاديث ـ هو أن يلتزم الإنسان بما عَلِمه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

جيّداً «**من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لا يعلم**»[١]، وإن لم يحصل هذا عند الإنسان، فهذا يعني أنّ ذلك النور لم يحصل بعد، وتبقى معلوماته مجرّد قدرة وإمكانية محدودتين كالمال والسلطة و...

فكما أنّ السلطة والمال يكسبان صاحبهما مكانة وشخصية خاصّة فكذلك حال صاحب المعلومات ـ ومَن يُصطلح عليه بـ «عالم» تجوّزاً ـ إذا لم يكن عنده ذلك النور الذي عبّرت عنه الأحاديث بأنّه «**يقذفه الله في قلب مَن يشاء**». ومشيئة الله سبحانه ليست اعتباطية، فإنّ الله تعالى لا يشاء شيئاً من غير مرجّح، لأنه محيط بكلّ الجهات وقادر على كلّ شيء.

ولنذكر هنا بعض قصص العلماء الماضين لنعتبر:

ولا تبخسوا الناس أشياءهم

«جواهر الكلام» كتاب لا يستغني عنه أيّ فقيه إماميّ حتى اليوم، فهو دورة كاملة وواسعة ـ أي مفصّلة ـ في الفقه الاستدلالي، إلى جانب كثير من الدورات الفقهية كشرح اللمعة، ورياض المسائل وغيرهما، ولكن كتاب الجواهر إضافة إلى كونه دورة كاملة في الفقه الاستدلالي فهو يمتاز بالسعة والتفصيل، وقد بذل مؤلّفه الشيخ محمد حسن النجفي الجواهري قرابة ثلاثين سنة من عمره في تأليفه ـ كما يظهر من بعض التواريخ التي سجّلها في نهايات فصول الكتاب ـ.

ويذكر أن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر كان عالماً متبحّراً ذكيّاً حافظاً متقناً، وكان هو المرجع الديني في النجف الأشرف. اتّفق يوماً أن جرى الحديث في مجلس كان يضمّه وعلماء آخرين عن مسألة فقهية،

---

(١) الفصول المختارة للمفيد: ص١٠٧.

فأدلى كلٌ عالم بدلوه وأعطى كلّ صاحب رأي رأيه، لكنّ صاحب الجواهر اكتفى بالقول أنّه قد ذكر المسألة في كتاب الجواهر، وأنّ رأيه موجود هناك.

وكان في المجلس عالِم ـ أو بالأحرى: دارس! ـ قد التفت إلى صاحب الجواهر وقال: لو تعطي جواهرك للعطّارين ليستفيدوا من أوراقه في لفّ التوابل، يكون أفضل!

وكأنّه يريد بقوله هذا: إنّ كتاب الجواهر لا يستحقّ القراءة أو أن يُنقل عنه شيء، وأنّ الأوراق التي كُتبت عليه خسارة وتبديد للثروة، لأنّ ما كُتب عليها لا ينفع.

لقد ذهب صاحب الجواهر ولكن بقي اسمه وكتابه الجواهر يدلّ على نور علمه، أمّا ذلك الرجل فقد ذهب اسمه بذهابه، ولا يعرفه اليوم إلاّ من ينبش الكتب التي أرّخت لحياة العلماء، فالملاحظ أنّ هذا الرجل مع أنّه كان عالِماً ـ وبتعبير أدق: دارساً ـ هو الآخر، ولكنه كان يفتقد لذلك العلم الذي عبّر عنه الحديث بأنّه «**نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء**»؛ لأنّ ذلك العلم يكون مصاحباً للفضيلة، وصاحب الفضيلة لا يبخس الناس أشياءهم ولا يقول مثل هذا القول لعالم أتعب نفسه زهاء ثلاثين سنة حتى كتب ذلك الكتاب النادر في تاريخ الفقه.

دع المراء وإن كنت محقّاً

دار في أحد الأيام نقاش بين أحد العلماء المجتهدين وبين أحد تلاميذه حول نصّ من النصوص كان الأستاذ يعتقد أنّه ليس روايةً، وأنّه لم

يجده في كتب الأحاديث، وكان تلميذه يقول: إنّه مرويّ[1].

لم يتوقّف الأمر عند إبداء كلّ من الأستاذ والتلميذ لوجهتي نظرهما، بل أصرّ الأستاذ على أنّه غير موجود وأنّه أتعب نفسه في كتب الحديث ولم يعثر عليه وأنّه لو كان لوجده، فيما أصرّ التلميذ أنّه موجود وأنّه وجده بنفسه، وردّ على أستاذه بالقول: إذا لم تجد شيئاً فإنّه لا ينبغي أن تقول أنّه غير موجود، وإنّما ينبغي أن تقول أنّك لم تجده. وعاد الأستاذ للقول: لا بل إنّه غير موجود وإنّي أتحدّاك في ذلك. وهكذا حدثت مشادّة كلامية بينهما. فما كان من التلميذ إلاّ أن ذهب على الفور وجاء بالكتاب الذي يوجد فيه الحديث وأخرجه للأستاذ والتلاميذ!

ومن هنا أستطيع القول: إنّ نور العلم الذي جاء في الحديث لم يكن متوافراً ـ كما ينبغي ـ لا عند الأستاذ ولا عند تلميذه!

فما كان ينبغي للأستاذ أن يتحدّى تلميذه ويقطع بعدم وجود الحديث هكذا وإن أمضى عشرات السنين في البحث والتحقيق دون أن يعثر على ذلك الحديث، وكذلك ما كان ينبغي للتلميذ أن يعامل أستاذه بهذه الكيفية وعلى مرأى ومسمع من الآخرين!

إنّ للمعلم حقّاً، يقول الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه عن ذلك الحقّ: «مَن

---

(١) يحدث أحياناً كثيرة أن يختلف العلماء في لفظ الحديث، كما هو الحال في حديث «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة**». فقد كان أحد العلماء الماضين رحمه الله يقول: إنّ لفظ «ومسلمة» غير موجود في نصّ الحديث، ولكنّي وجدتُ روايات تتضمّن هذا اللفظ، (منه دام ظله) انظر: مشكاة الأنوار لعلي الطبرسي: ص٢٣٦؛ عدّة الداعي لابن فهد الحلّي: ص٦٣.

تعلّمتَ منه حرفاً صرتَ له عبداً»[١]، وكـذا للتلميـذ حـق، ينبغـي لمعلّمـه ألاّ يوهن رأيه أو يردّ استنتاجه بتهكّم؟

علينا أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآلـه وأهـل بيتـه عليهم السلام ونتـأدّب بآدابهم، لنحصل على نور العلم، ﴿**وَمَن لَمْ يَجْعَـلِ اللَّـهُ لَـهُ نُـورًا فَمَـا لَـهُ مِـن نُـورٍ**﴾[٢]. وما لم يكن ذلك النور موجوداً فلا فائدة ترتجى وإن كانـت الدراسـة متحقّقة عند الشخص وكان يجيد الكلام والمنطق ويتقن الخطابـة أو التـأليف ويملك معلومات كثيرة وجيدة.

الأخلاق من دلالات النور

هناك أمثلة كثيرة لمَن درسوا حتى بلغوا مراحل عالية في الاجتهاد، ومـن جملتهم أحد مراجع التقليد ممّن أدركتُهم في النجف الأشرف، والذي كان قد ألّف ونشر في أيام مرجعيّته كتاباً لا غبار عليه من الناحية العلمية.

ويذكر أنّ طالباً كان قد طالع الكتاب آنذاك فرأى ـ حسب زعمـه ـــ أنّ في الكتاب نقاط ضعف، وربما تصوّر أنّه يمكنه إثارتها للتشكيك فـي علميـة ذلك المرجع، فانتهز فرصة جلوس المرجع فـي بيتـه لاسـتقبال الوافـدين، إذ حضر هو أيضاً، ثم انبرى بعد أن استقرّ به المجلس، مخاطباً المرجـع بلهجـة تهكّم، قائلاً: أتدري أيّ جناية ارتكبتَ بنـشرك هـذا الكتـاب؟ لقـد شـوّهت سمعة مدينة النجف الأشرف ومكانتها العلميّة التي اكتسبْتها من كتـب الـشيخ الأنصاري وأمثاله!

يريد بذلك: أنّ الذي تخرّج من حوزة النجف الأشرف ينبغـي أن تكـون

(١) غوالي اللآلي للأحسائي: ج١ ص٢٩٢ ح١٦٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.

مؤلّفاته بمستوى مؤلّفات الشيخ الأنصاري، أمّا هذا الكتاب فسوف يحطّ من مستوى حوزة النجف لعدم ارتقائه لمستوى كتب الشيخ الأنصاري!

وأضاف: لقد تلاعبتَ ـ بكتابك هذا ـ بكرامة النجف العلمية وحوزتها الدينية!

أتدرون ماذا كان ردّ فعل ذلك المرجع؟

أجابه قائلاً: وأين أنا من الشيخ الأنصاري، بل إنّي لأفخر أن أفهم كلمات الشيخ الأنصاري رحمه الله، وأستطيع أن أشرحها. لقد كان الشيخ الأنصاري أستاذ الفقهاء، أمّا أنا فأتمنّى لو كنت تلميذاً للشيخ الأنصاري، وفي مثل هذه الحالة ربما صدرت منّي هفوات أو نقاط ضعف لم أنتبه لها خاصّة وأنّي إنسان ولكلّ إنسان زلاّت. لذا أرجو منكم أن تنبّهوني عليها وسأكون شاكراً لكم.

تأمّلوا فيما حدث: لقد ذهب هذا الرجل إلى المرجع لكي ينال منه ويقلّل من شأنه، ولكنه خرج وهو يغبطه.

ومن يسمع بالقصّة يقول: إنّ تصرف هذا المرجع إنما ينمّ عن نورانية لا توجد عند بعض من بلغوا مراحل عالية من العلم دون أن يحصلوا على نوره، فإنّه كان بإمكان هذا المرجع أن يردّ ذلك الطالب ردّاً علمياً يؤهّله له مستواه، وردّاً اجتماعياً بسبب المنزلة التي يحظى بها بين الناس، كأن يقول له: ومَن أنت لكي تزكّيني؟ أو هل فهمت كتابي لكي تنتقده هذا الانتقاد؟ ولكنّه مع ذلك لم يقل له شيئاً من هذا القبيل، لأنّ ذلك النور الذي غمره جعله يبتعد عن أمثال هذه الردود.

وكان الأَولى بذلك الطالب أيضاً أن يعرض ما بدا له من نقاط ضعف في الكتاب عرض المستفهم المؤدَّب، كأن يدوّنها ـ مثلاً ـ ثم يطلب من المرجع أن يلاحظها ليجيبه عليها، فذلك خير من الاستخفاف بجهود مرجع أتعب

نفسه عشرات السنين حتى توصّل إلى هذه الآراء ثم طرحها في كتاب رجاء القبول! هب أنّ الحقّ مع المعترض في بعض ما زعم، ولكن هل اعتبر نفسه معصوماً أو حاكياً عن اللوح المحفوظ، ليصدر حكمه بحقّ آراء الآخرين ابتداءً! مع أنّه كان الأولى به أن يعرض إشكالاته ويناقشها معه حتى يتبيّن له وجه الصواب في كلّ نقطة على حدة. ولكن يبدو أنّه لم يكن متنوّراً بنور العلم، الذي لا يأتي مع كثرة الدراسة ولا بكثرة التعلّم بقدر ما يأتي مع التحلّي بالفضائل والعمل بمقتضاها.

وليس المقصود أن لا يبذل الطالب جهداً في الدرس، بل المقصود أن يؤطّر دراسته بمجمل الفضائل التي ترقى به لأن يحصل على نور العلم.

من قصص العلماء

كان الشيخ علي القميّ رحمه الله عالِماً زاهداً يعيش في النجف الأشرف، توفّي قبل زهاء نصف قرن. ولم يكن مرجعاً لكنّه عُرف بالعدالة لدى كلّ العلماء وعامّة الناس حتّى أنّ والدي رحمه الله نقل: أنّه مَن كان يتحفّظ في الصلاة خلف أيّ عالِم، لا يتردّد في الصلاة خلف الشيخ علي القمّي، لما عُرف عنه من ورع وتقوى. فكان مسلَّماً بعدالته لدى الجميع، ويظهر من كلمات السيّد الوالد رحمه الله أنّه كان ملتزماً بالصلاة خلفه.

يقول الرجاليّ المعروف الشيخ آقا بزرگ الطهراني: لقد زاملت الشيخ علي القمّي رحمه الله عشر سنوات ودرسنا معاً عند السيد محمد كاظم الطباطبائي صاحب (العروة الوثقى) والشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب (الكفاية) والشيخ محمد تقي الشيرازي رضوان الله عليهم جميعاً. وكنت أعرفه فقيهاً متبحّراً ومحقّقاً ولكنّه كان يتعمّد أن لا يشترك في النقاشات التي تطرح في المجالس العامّة لكي لا يُظهر درجته العلمية ـ وهذا أمر صعب جداً ـ فكان إذا سئل

عن شيء أجاب، وإذا عرضتْ مسألة ودار حولها النقاش بقي ساكتاً يظنّه الرائي أنّه إنسان عادي لا يعرف شيئاً ممّا يدور.[١]

ثم يضيف الطهراني: كان الشيخ علي القمّي عالماً متبحّراً وأنا على معرفة تامّة به، فهو زميلي، ولكنه لم يكن يتكلّم في مثل هذه المجالس حتى أنّ علماء النجف كانوا يتصوّرون أنّه رجل عادل وزاهد ولكنّه ليس عالماً، لأنّه كان لا يُظهر من علمه شيئاً إلاّ عند الضرورة.

وهذا الأمر يتطلّب نورانيّة خاصّة تمكّن الإنسان أن يضبط نفسه هكذا، فلا يخوض في حالات الجدل العقيم ولا يصرف الوقت والجهد على أمور لا ثمرة فيها، سوى رغبة كلّ طرف في إظهار نفسه من خلال إثبات صحّة مدّعاه، كأن يقول شخص: إنّ النصّ الفلاني موجود في الكتاب الفلاني، فيحاول الآخر أن يثبت أنّه موجود في غيره، مع أنّ الأمر لا يغيّر من الواقع شيئاً، ممّا يكشف عن عدم وجود نور العلم وفضيلته. والله تعالى لا يعطي هذا النور اعتباطاً ومن دون استحقاق، وكما في المرويّ عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «**هيهات لا يُخدع الله عن جنّته**»[٢].

وليست العبرة في قصّة الشيخ القمّي أن لا نشارك في الحديث الذي يجري في النوادي العلمية، إذا كان غايته إحياءً لأمر الشريعة، أو بقصد التمرّن ليعرف الطالب مواطن الخطأ أو الضعف من مواطن الصواب أو القوّة، الذي تكشفه كثرة المناقشات والمباحثات، وإنّما العبرة أن لا يكون الهدف إظهاراً

(١) لقد اعتاد أهل العلم إذا اجتمعوا وطُرحت مسألة علمية ـ سواء في الفقه أو الأصول أو النحو أو المنطق والعلوم الأخرى ـ أن يدلي كلّ منهم بدلوه ليبيّن وجهة نظره. فلو ذكر حديث مثلاً، قال أحدهم: إنّه غير وارد، وقال آخر: إنّ سنده غير صحيح، أو إنّ في سنده فلاناً، أو يقول آخر: إنّه موثّق، وهكذا.

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص١١ خ١٢٩.

للذات أو تخطئة المقابل بأيّ ثمن. فهذا هو المراء بعينه والمشهور في فتاوى الفقهاء أنّه حرام، وإذا كـان الـشيء حرامـاً فارتكابـه مخـلّ بالعدالـة كـسائر المحرّمات.

ومثاله: أنّك تقرأ مسألةً في كتاب ما كـ (العروة الوثقى) مثلاً، وتسمع بعد ذلك زميلاً لك ينسب المسألة إلى كتاب آخر كـ (توضيح المسائل) فتقول له: إنّ هذه المسألة موجودة في كتاب العـروة ولـيس توضـيح المـسائل، ولكنّـه يؤكّد لك أنّه قرأها في توضيح المسائل فتأتيه بنسخة من الكتاب وتطالبه بـأن يدلّك على موضع المسألة؛ فإن كان هدفك في مثل هذه الحالة نبـيلاً ـ كبيـان حقيقة تتعلّق بذلك ـ فهذا مما لا إشكال فيـه، أمّـا إذا كنـت تريـد فـي ذلـك تسجيل فوز ونصر لذاتك، فذلك هو المراء السيّئ المشهور بـين العلمـاء أنّـه من المحرّمات.

ولا شكّ أنّنا لا يمكننا أن نتّهم كلَّ مَن يريد إثبات شيء مـا بـالمراء؛ لأنّ نيّته قد تكون سليمة وهدفه قد يكون صحيحاً، ولكن المهمّ أن نربّـي أنفـسنا على تجنّب المراء والجدال الذي لا يراد به وجه الله تعالى. وهذا الأمر لا يتطلّـب دراسة عميقة بل تكفيه لحظات تأمّل والتفات مع مراقبة النفس وضبطها.

هذه قضيّة اُخرى أنقلها عن الـسيد الوالـد رحمه الله: فقـد تتلمـذ المرحـوم والدي عند خاله الشيخ محمد تقي الشيرازي رحمه الله، وبعد وفاة خاله انتقل إلى النجف الأشرف وحضر عند جملة من العلماء منهم الميرزا النائيني قدس سره.

عندما أصدر الوالد رسالته العملية استجابة لإصرار بعض مقلّديه، تعجّب أحد علماء النجف الأشرف ممّن كان يحضر معه درس الميرزا النائيني وذلك عندما رأى رسالة السيّد الوالد، وقال: لم نكن نتصوّر هذا الشخص عالِماً، فقد كنّا نراه يحضر درس الميرزا النائيني يومياً ولكنه لم يكن يـتكلّم بـشيء مـن أوّل الدرس حتى آخره، بل كان يجلس ويستمع فقط، فكنّا نتصوّره أحد قرّاء

القرآن على القبور وقد آثر أن يحضر الدرس للتبرّك مثلاً، فكيف استطاع أن يضبط نفسه كلّ هذه المدّة ولم يظهر شخصيته العلمية مع أنّه كان في مستوى المراجع؟!

كانت تلك قصص مَن مضوا، فلننظر كيف سنكون، ولنعلم أنّ العلم لا يأتي من فراغ، ولا من كثرة الدراسة وحدها. نعم، قد تصلح الدراسة لجعل الإنسان متفوّقاً على أقرانك في المباحثة، ولكنها لا تمنحه ـ منفردة ـ ذلك النور الإلهي المنشود، بل قد تكون في بعض الأحيان وبالاً عليه والعياذ بالله.

لو نصحت أحداً يوماً ما، فحاول أن تطبّق ما نصحته به على نفسك أوّلاً، بل حاول أن تطبّق كل ما تعتقده فضيلة ولا تيأس مهما فشلت في ذلك.

رأيت كتاباً مطبوعاً في الأصول واستفدت منه أيّام دراستي، ولكن ما لفت انتباهي فيه أنّ مؤلّفه إذا جاء بابتكار من نفسه ـ أو تصوّر أنّه كذلك ـ يشيد به كثيراً ويقول: إنّ هذا من ابتكاراتي التي حصلت عليها على أثر سهر الليالي، ثم يدعو بالويل والثبور واللعنات وأن يفعل الله كذا وكذا بكلّ مَن ينقله دون أن يذكر اسمه (أي اسم المؤلِّف)!

هب أن الإنسان قد ابتكر فكرة أو أفكاراً، فما الداعي لأن يتعامل معها هكذا، في حين إنّ الشيخ الأنصاري قدس سره كان يطرح ابتكارات عظيمة ضمن بقيّة كلماته دون أن يتباهى بها، ودون أن يُشعر القارئ بأنّها من ثاقب أفكاره، مع أنّها كانت تمثّل عصارة علمه، وقد أتعب نفسه حتى وصل إليها، حتى إنّ الشيخ لم يضمّن كتاباته بكلمات من قبيل: اغتنِم ونحوها

والآن عندما نلاحظ الواقع نرى أنّ كتب الشيخ الأنصاري تملأ الحوزات والمكتبات وما تزال تُطبع كلّ عام في مختلف الأماكن بينما ذلك الكتاب الذي ذكرتُه لم يسمع به كثير من أهل العلم مع أنّه حقيق بالدراسة أيضاً.

إنّ النور الذي أضاء جوانح الشيخ الأنصاري هو الذي جعل كلماته تدور على ألسن العلماء، وكتبه تدرّس في كلّ الحوزات العلمية، وذِكرُه سائراً بين الناس.

هذا، ونور العلم ليس حكراً على الأسر العلمية، بل قد يكون الشخص سليل عائلة علمية ولكن الله لا يمنحه هذا النور، وقد يقذف الله نور العلم في قلب ابن عطّار أو مزارع أو بقّال أو تاجر أو حمّال! وهذا يتّضح لمن طالع تاريخ العلماء.

انظروا إلى كتب الشيخ الأنصاري وأمثاله من السلف الصالح فهي عبرة لنا، فهؤلاء العلماء يبدأون كتبهم بالبسملة والحمد والصلاة على النبي وآله واللعن على أعدائهم، ثم ينتقلون مباشرة إلى المطالب ويختمون الكتب بها دون أن يفخروا أنّها لهم.

والآن يمرّ أكثر من قرن على وفاة الشيخ الأنصاري وها هي كتبه في الفقه والأصول تدور عليها كلّ الحوزات العلمية الشيعية.

إذاً، علينا أن نسعى لتحصيل ذلك النور إلى جانب تلقّي الدروس ومطالعة الكتب والحضور عند الأساتذة؛ فإنّ المعلومات وحدها قد تجلب الغرور للإنسان، ولنعرف أنّ الغرور ونور العلم لا يجتمعان، فلنحارب الغرور في أنفسنا ونتواضع لله سبحانه سائلين منه أن يجعل لنا لسان صدق في الآخرين.

(٣)

العلم النافع

ورد في الحديث الشريف: «**ليس العلم بالتعلّم وإنّما هو نور يقع في قلب مَن يريد الله أن يهديه**»[١].

الكيف هو المطلوب

يتناسب حظّ الإنسان طردياً في الوصول إلى غاياته مع ما يبذله من جهد غالباً؛ فالساعي وراء المال يحصل على كمّية مضاعفة لو ضاعف من ساعات عمله، وهكذا الحال في الأمور المعنوية، فإنّ مَن يتعب نفسه أكثر في سبيل العلم والمعرفة فإنّ نصيبه يكون أكبر في ذلك السبيل.

غير أنّ الفارق بينهما، أنّ الأمور المعنوية يعتبر فيها الكيف أهمّ من الكمّ. فلو أراد شخص مثلاً أن يكون محبوباً لدى شخص آخر، وصار يطيل الجلوس عنده؛ طمعاً في لفت انتباهه ليقرّبه إليه، فإنه ربّما يواجه بردّ فعل معاكس من قبل ذلك الشخص؛ وقد يثير بذلك نفوره منه فيزداد بذلك بعداً عنه. وربما لو جلس مدّة أقصر، لكان أفضل؛ ما يعني أنّ الأمور المعنوية يكون المقياس الأهمّ فيها هو الكيفيّة لا التعب والكمّ.

لا شكّ أنّ على طلاّب العلوم الدينية أن يجدّوا ويجتهدوا ويتعبوا أنفسهم

---

(١) مشكاة الأنوار للطبرسي: ص٥٦٣، الباب التاسع: في ذكر المواعظ.

ويفرغوا طاقاتهم في سبيل العلم، حتى قيل: إنّ لسان حال العلم لطالب العلم هو: «أعطني كلّك أُعطك جزئي» ولكن حيث إنّ المطلوب هو العلم النافع (وهو العلم الذي ينتفع منه طالبه كما ينتفع منه غيره، في الدنيا والآخرة) لذا صار لا يقاس بالتعب وكثرة التعليم وإن كانا مطلوبين أيضاً.

الاعتبار سبيل النجاة

الشيخ محمد شريف المازندراني الملقّب بشريف العلماء هو أحد علمائنا الأجلاّء، عاش قبل قرن ونصف، وقيل إنّه هو أوّل مَن أسّس أو روّج درس «بحث الخارج»[1] في الحوزات العلمية، بالنحو الذي نعهده اليوم، حيث يبحث الأستاذ المجتهد في القرآن الكريم والتفاسير وكتب الأحاديث والدراية وأصول الفقه وكتب الرجال وغيرها، كما يستعرض أقوال الفقهاء المختلفة ثم ينقل ما وصل إليه بحثه الفقهي إلى الطلاب الذين يحضرون درسه.

وممّا يزيد في مقام هذا الرجل أنّه بلغ مرتبة عالية في العلم وهو في عمر الشباب، فلم يعمّر أكثر من خمس وثلاثين سنة، ومع ذلك كان يحضر درسه نحو ألف مجتهد، وربى تلاميذ فطاحل يكفي أن نعرف أنّ من بينهم الشيخ مرتضى الأنصاري رضوان الله عليه الذي ما زالت الدراسات الحوزوية في الفقه والأصول تدور على كتبه.

وكان من تلاميذه أيضاً عالِم آخر زميل للشيخ الأنصاري وبمستواه العلمي ـ على التقريب، ولا أريد أن أذكر اسمه لأنّ به مدار الاعتبار في هذه القصّة ـ قد بلغ في العلم والتحقيق درجة بحيث استطاع أن يستخرج من رواية واحدة سبعمئة قاعدة في الفقه والأصول.

---

(١) درس البحث الخارج: هو مرحلة عليا من الدراسات الحوزويّة.

قد يُتعِب العلماء أنفسهم ويأتون لاستدلالهم بطائفة من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات مع مناقشة جادّة لأقوال الفقهاء حتى يستخرجوا قاعدة واحدة من القواعد الفقهية أو الأصولية كأصل الاستصحاب، أو أصل الصحّة، أو قاعدة التجاوز أو قاعدة الفراغ، أو البراءة أو غير ذلك؛ في حين إنّ هذا الرجل استطاع أن يستنبط من رواية واحدة ـ حسب ما جاء في حالاته ـ سبعمئة قاعدة فقهية وليس قاعدة واحدة وحسب.

أمّا الرواية التي استنبط منها سبعمئة قاعدة فهي المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام من قوله: «**رأى رسول الله صلى الله عليه وآله نخامة في المسجد فمشى إليها بعرجون من عراجين ابن طاب فحكّها ثم رجع القهقرى فبنى على صلاته**»[١]. ولقد نظم السيّد بحر العلوم[٢] قدس سره إجمال ما يُستفاد من هذه الرواية في منظومته الفقهية وقد جاء فيها:

ومشيُ خير الخلق بابنِ طاب يُفتح منه أكثر الأبواب[٣]

أي: إنّه يمكن الاستفادة من هذه الرواية عدّة أمور؛ منها مثلاً أنّه يجوز للمصلّي أن يمشي وهو في حال الصلاة، ومنها أنّه يجوز له أن ينحني ـ لا بقصد الركوع ـ لحمل شيء أو وضع شيء وتبقى صلاته صحيحة، وهكذا.

والذي يُذكر أنّه أخذ هذا المعنى من حديث الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «**وهذا يفتح من الصلاة أبواباً كثيرة**»[٤]، كما أخذه هذا العالم أيضاً

---

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي: ج٥ ص١٩١ باب٤٤، باب جواز تقدّم المصلّي عن مكانه، ح٤. وابن طاب: نوع من تمر المدينة. والعرجون: عذق النخلة اليابس.

(٢) هو: أُستاذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي تلمذ عليه شريف العلماء، أُستاذ الشيخ الأنصاري وزميله (محلّ الاعتبار في القصّة).

(٣) سؤال وجواب للسيّد اليزدي: ص٤٧. (فارسي).

(٤) وسائل الشيعة: ج٥ ص١٩١ باب٤٤ ح٥.

وتوسّع فيه وتعمّق زماناً حتى استخرج منه سبعمئة قاعدة في الفقه والأصول، فهل يُشكّ في علميّته بعد ذلك؟!

إنّنا لم نسمع مثل هذا التعمّق حتى عن الشيخ الأنصاري مع أنّهما كانا زميلين يحضران درس أستاذ واحد في وقت واحد ويجلسان معاً تحت منبر واحد. ولكن العجيب أنّ علم هذا العالِم فُقد بينما علوم الشيخ الأنصاري ملأت الحوزات العلمية يتلقّاها الطلاّب جيلاً بعد جيل.

وهنا محلّ الاعتبار. فأين التعب الذي تعبه ذلك العالِم؟ ولماذا لم يعُد له عين ولا أثر. أنا شخصياً عندما قرأت ذلك في سيرة حياته بحثت كثيراً لعلّي أعثر على كتابه أو إفاداته ولكن دون جدوى!

أمّا الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه فحتى الكرّاس الصغير الذي كتبه في العدالة، قد لا تجد فقيهاً لا يشير إليه عند بحثه في باب العدالة رغم صغر حجمه ومرور أكثر من مئة سنة عليه، ولكن بقي مع ذلك مصدراً يشار إليه، بينما ذهب علم ذلك العالِم بذهابه! مع أنّه كان عبقرياً في فكره، وما أصعب أن يُستنبط من الحديث المذكور آنفاً سبعمئة مسألة؛ فكيف بسبعمئة قاعدة، ولم يبلغنا أنّ أحداً من العلماء الكبار الذين نقلوا هذا الحديث إلينا منذ ألف سنة ـ كالشيخ المفيد والشيخ الكليني والشيخ الطوسي والعلاّمة الحلّي والمحقّق الحلّي والعلاّمة المجلسي رضوان الله عليهم أجمعين ـ استنبط منه سبعمئة قاعدة.

فلماذا إذاً لم يبق علم هذا العالم وذهبت أتعابه دون أن تصل إلينا؟ إذا أردتم أن تعرفوا الجواب فسأذكر لكم قصّة أخرى عنه ذُكرت في سيرته أيضاً ولعلّها السبب في الحيلولة دون وصول علومه للأجيال التي تلته.

ممّا يروى في أحوال شريف العلماء رضوان الله عليه أنّه كان يستغلّ كلّ أوقاته في مجال العلم، حتى أوقات سفره لم تكن ترفيهية محضة، بل كان إذا

أراد السفر أخبر تلاميذه ليرافقه جماعة منهم لكي يستثمروا الزمن الذي يقطعونه في السفر بالبحث والنقاش العلمي المثمر.

وفي إحدى سفراته لزيارة الإمامين العسكريين سلام الله عليهما ومقام الحجّة المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة سامراء المشرّفة ـ مروراً بالإمامين الكاظمين سلام الله عليهما في بغداد ـ اكترى تلاميذه الدوابّ والخيام وأخذوا معهم الغذاء والماء استعداداً للسفر، وتحرّكوا في مجمع علميّ ـ أو قل مدرسة متنقّلة ـ من كربلاء المقدّسة[1] إلى الكاظمية ومنها إلى سامرّاء المشرّفتين. وكانوا كلّما نصبوا في الطريق خيامهم للاستراحة وتناول الغذاء وما أشبه، طرح شريف العلماء بحثاً بينهم للمناقشة.

يقول الراوي: عندما خيّموا في إحدى المناطق على طريق سامرّاء ـ وكانت الخيام قد بلغت العشرات ـ كان كلّ جماعة في خيمة، يستفيدون من وقت استراحتهم في النقاش العلمي، وبينما هم كذلك إذ احتدم النقاش بين صاحب السبعمئة استنباط قاعدة من رواية واحدة وبين تلميذ آخر من تلاميذ شريف العلماء، ولكن النقاش خرج عن السياق العلمي وتحوّل إلى صراخ فسباب فعراك، حتى اضطرّ أن يفرّ محاوره من خيمته ليلوذ بخيمة أستاذهما شريف العلماء، لكن صاحبنا (العالِم!) حمل عليه بالسكّين حيث ملاذه مما حدا بالأستاذ أن ينهره ويردعه عن سوء فعله، حتى خجل ورجع!

ربما لمثل هذا السبب وغيره لم تعد قواعد هذا العالم وعلومه موجودة، أمّا آثار الشيخ الأنصاري فقد بقيت متلألئة دون أن تبلى؟!

---

(١) سكن شريف العلماء في مدينة كربلاء المقدّسة، وكانت كربلاء في ذلك العصر ـ على ما رُوي ـ تحتضن أكبر حوزة علمية للشيعة على وجه الأرض، وبعد وفاة شريف العلماء انتقلت الحوزة إلى مدينة النجف الأشرف، وكان الشيخ الأنصاري ممّن هاجر إليها.

أدب العالم يكشف عن إخلاصه

إذا أردتم أن تزدادوا معرفة بالأسباب التي ميّزت الشيخ الأنصاري قدس سره عن غيره، فانظروا إلى عباراته في ردوده على مَن لا يتّفق معه في الرأي ـ كما تظهر في كتبه ـ وقارنوها بعبارات الردود الأخرى التي تلاحظونها عند غيره، سواء في ذلك علماء الفقه والأصول أو سائر العلوم.

إنّ الشيخ رضوان الله عليه يردّ بأدب بالغ وتواضع جمّ، فتراه رغم قناعته التامّة بصواب رأيه وخطأ رأي المقابل، إلاّ أنّه لا يستخدم ألفاظاً من قبيل: «خطأ» أو «اشتباه» أو «سوء فهم» أو «قبيح» أو ما أشبه بل يستعمل عبارات من قبيل: «هذا ما أفهمه»، أو «يرد عليه كذا». إلى غير ذلك من الألفاظ الحسنة.

حدّثني أحد العلماء المعاصرين، قال: كنت في شبابي أحضر درس الأستاذ الفلاني ـ وسمّاه ـ لكنّي بعد مدّة انقطعتُ عن الحضور، ثم لقيني الأستاذ ذات مرّة وسألني عن سبب غيبتي، فقلت له: شبهة حصلت عندي. قال: وما هي؟ قلت: لأنّكم عندما تناقشون الرأي المخالف لرأيكم تناقشونه بأسلوب يترك لدى السامع انطباعاً أنّ صاحب ذلك الرأي ليس عالماً أصلاً! أي يخلق تشكيكاً بعلميّته؛ حتى لو كان الشيخ الطوسي أو الشيخ المفيد أو العلاّمة الحلّي أو الشيخ الأنصاري. فخشيت أن يتزلزل اعتقادي بعلم كلّ العلماء جرّاء ذلك، ولذلك تركت الحضور عندك!

ثم أضاف ـ ذلك العالم الذي حدّثني بهذه القضية ـ قائلاً: كنّا نحضر درس آية الله البروجردي رضوان الله عليه، فكان إذا أراد أن يردّ علَماً قال: لا أدري هل هذا ما يقصده الشيخ الفلاني ـ مثلاً ـ من عبارته؟ أو: لعلّي غير ملتفت لأبعاد رأيه.. وهكذا. فكان يعظّمه في نظرنا أوّلاً ثم يبيّن لنا رأيه المخالف بعبارات من قبيل: يبدو لي كذا، أو أرى أنّ الصحيح كذا، والعلم عند الله.

فكنّا ننفضّ من مجلس آية الله البروجردي معتقدين بصواب رأيه، دون أن تتزعزع في أنظارنا المكانة العلمية للعلماء الآخرين.

فعلى طالب العلم أن يتعب نفسه قدر الإمكان في سبيل الدراسة، ولا يكون كسولاً أو خاملاً بل يعبّئ كلّ طاقاته كما ينبغي، ويسأل الله أن ينظر إليه بعين رعايته، فمن دون هذه النظرة لا فائدة من كثرة التعلّم. ولا نريد بقولنا هذا ترك الدراسة، بل أنّ الدراسة وحدها غير كافية وإنّما هي إحدى الأعمدة لرقيّ الإنسان، مادام يصحبها بمكارم الأخلاق.

قبس من سيرة العلماء

السيّد علي الشوشتري من تلاميذ الشيخ الأنصاري، وكان له في كلّ أسبوع يوم يلقي فيه درسَ أخلاق، فكان الشيخ الأنصاري يحضر درسه الأخلاقي! فما أعظم تواضع الشيخ! ابحثوا في كلّ كتب السير والتراجم، هل تجدون مثل هذا الأدب الذي وصل بصاحبه إلى نكران الذات؟ ولو وُجدت حالة مشابهة، فتظلّ مع ذلك من الحالات النادرة؛ فعلى الرغم من أنّ الشيخ الأنصاري كان مرجعاً عامّاً للشيعة، ومع ذلك كان يحضر درس الأخلاق لدى تلميذه السيّد الشوشتري، ممّا يدلّ على أنّه قد وضع «الأنا» جانباً، الأمر الذي نفهم من خلاله أنّ الشيخ الأنصاري لم يكن ليُعرف بالشيخ الأعظم اعتباطاً، ولا صار كذلك بعلمه فقط، بل بالتسديد الذي يكون لأمثاله من الملأ الأعلى، نتيجة لما روّض عليه نفسه.

كما ينقل التاريخ أنّه حلّ وباء حينذاك بمدينة النجف الأشرف، وكان مَن يُبتلى به يموت عادة، وكان السيّد الشوشتري واحداً من الذين أصابهم الوباء، فأعجزه عن حضور درسه الأخلاقي، وبعد أن أنهى الشيخ الأنصاري درسه في أحد الأيام قيل له: إنّ السيد علي الشوشتري قد ابتلي بالوباء، فعزم مع

بعض تلاميذه على زيارته وعيادته. وعندما استقرّ بهم المقام عند السيّد الشوشتري ـ وكان أستاذاً أخلاقياً ألزم الشيخ الأنصاري نفسه بحضور درسه مع أنّه كان أستاذه في الفقه ومرجع عصره، كما ذكرنا ـ التفت السيّد الشوشتري للشيخ الأنصاري وقال له: إنّي ميّت اليوم أو غداً ولي عندك رجاء وطلب، وهو أن تتولّى أنت الصلاة على جنازتي إذا أنا متُّ.

فحاول الشيخ أن يطمْئنَ السيد ويطيّب خاطره قائلاً له: لا تقل ذلك، ستشفى إن شاء الله وتعود للدرس فنحضر درسك ثانية.

ولكن السيّد عاد في طلبه قائلاً: لا تبتعد عن الموضوع، إنّ هذه وصيّتي لك وأطلب منك تنفيذها.

لم يقبل الشيخ الأنصاري بالوصية وظلّ يتعلّل، ويؤمّله ويدعو له ويقول ملاطفاً: ليس كلّ مَن يُبتلى بالوباء يموت حتماً. ولكن السيّد الشوشتري رغم ذلك كان يصرّ على الشيخ ولم يتخلّ عن طلبه.

حقّاً عندما ينظر المرء إلى هذين العظيمين ثم ينظر إلى نفسه، يدرك السرّ في لطف الله بهما وإفاضته ما أفاض عليهما.

لقد كان الشيخ الأنصاري يصلّي ـ في العادة ـ على الأموات، فما الذي يمنعه من استجابة طلب السيد الشوشتري؟

عندما أصرّ السيد الشوشتري، قال الشيخ الأنصاري في جوابه: لقد سألتُ الله تعالى أن تكون أنت الذي تصلّي على جنازتي، واستجاب الله دعائي!

لا غرابة في دعاء الشيخ الأنصاري سائلاً من الله تعالى ما سأل، فهذا أمر مفهوم بالنسبة لنا، ولكن المثير للتأمّل هو قوله: «واستجاب الله دعائي»؛ فكيف عرف ذلك؟

من الواضح أنّ هذا لا يحصل بالتعب وحده وصرف المزيد من الوقت،

ولا يأتي نتيجة الدراسة وحدها مهما بلغت، بقدر ما يأتي عبر اقتلاع صفة الـ «أنا» من النفس وأن يحاول الإنسان إصلاح نيّته، لا أن يكون باعثُه الحقيقي من العمل والسعي أن يُنشر اسمه في الأرجاء أو تتناقله الألسن، أو تُجبى إليه الأموال أو تُقبَّل يداه أو يقوم له الناس في حلّه وترحاله، بل إن خطر إلى ذهنه شيء من ذلك القبيل أنّب نفسه وعاد إلى ربّه.

فإنّ الناقد بصير

قد ينجح الإنسان في غشّ من لم يعرف نواياه وما يدور في ذهنه، ولكن هيهات أن يغشَّ من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[1].

وإذا كنّا نتعامل فيما بيننا حسب قناعتنا الشخصية فلا نساوي بين مَن يخلص إلينا ومَن يغشّنا، فلماذا نعترض على الله تعالى أن يعاملنا كذلك؟!

فمثلاً: لو أقسم لك شخصٌ قائلاً: إنّي مخلص لك. ولكنّك لم تكن مقتنعاً بصدقه؛ لما ترى من سلوكه أو ما خبرته من نواياه، فهل ستعامله معاملة مَن تعتقد إخلاصه؟ كلاّ بالطبع، بل ربّما تتظاهر معه وتجامله وتعامله بالمثل، ولكنّك في اللحظات المصيرية والمواقف الحسّاسة سوف تعامله حسب قناعتك، فإن كنت شاكّاً به، فإنّك لا تودعه أسرارك، ولو سألك عن السبب، فستحوّل مجرى الكلام، وقد تخبره أنّك لا تثق به.

فإذا كانت هذه موازيننا في تعامل بعضنا مع بعض ونرى أنّها حقّ، فلماذا نعترض على الله في الحقّ نفسه، ونتوقّع أن يعاملنا معاملة المخلِصين، ونحن لم نخلص له في نوايانا؟! لا شكّ أنّ الله سبحانه لا يساوي بين المخلص

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿**يَعلَمُ خَائِنَة الأعيُن...**﴾ سورة غافر، الآية ١٩.

وغيره، فهل يحقّ أن يستوي عنده سبحانه مَن يعمل وهدفه منافع دنيوية ـ أعمّ من أن تكون مالاً أو شهرة وسمعة أو شيئاً آخر ـ ومَن يكون عمله خالصاً لله وحده، ولا يفكّر في سواه؟

وقد يُسأل: إذا كان العلم نوراً ـ كما ورد في الأحاديث[1] ـ فلماذا لا يقذفه الله في قلوب العباد كافّة، مع أنّ الله سبحانه وتعالى لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً. ويداه مبسوطتان؟ إنّ أيّاً منا إذا أنفق، نقص منه شيء لا محالة، حتى لو أنّه بذل نصف ساعة من الوقت في تدريس أو محاضرة فإنّ ذلك يعني نقصان نصف ساعة من عمره، وكذا لو أعطى مالاً مهما قلّ فإنّه يعني نقصان أمواله بذلك المقدار، أمّا الله سبحانه وتعالى فلا ينقص من ملكه شيء مهما أعطى. إذاً لماذا لا يقذف نور العلم في قلوب كلّ عباده؟

الجواب: لأنّ «الناقد بصير»[2] أي الذي يتولّى النقد يميّز بين المخلص وغيره، فيعطي مَن يخلص له ما لا يعطي غيره.

و«بصير» صيغة مبالغة لأنّه على وزن «فعيل» كما في ألفية ابن مالك:

فعال أو مفعال أو فعول في كثرة عن فاعل بديل
فيستحقّ ما له من عمل وفي فعيل قلّ ذا وفعل[3]

فكيف نغفل عن هذه الحقائق ونتصوّر أنّا نخلص عندما نتظاهر بأنّ أعمالنا لله، مع أنّنا نخدع أنفسنا في الواقع ولم نعمل لله؟!

ومن هنا نستطيع أن نفهم السرّ الذي انتشرت به كتب الشيخ الأنصاري،

(١) انظر مصباح الشريعة: ص١٦. وخلاصة عبقات الأنوار: ج١ ص١١٤.

(٢) انظر الاختصاص للمفيد، ص٣٤١، من وصايا لقمان الحكيم لإبنه.

(٣) ألفية ابن مالك: ج٢ ص١١.

وبقي اسمه، وكذلك سرّ ما قاله للسيد الشوشتري: إنّ الله استجاب دعائي، والكيفية التي أدرك بواسطتها أنّ الله قد استجاب دعاءه.

وبالفعل قد وقع ما قاله الشيخ الأنصاري، فقد شفى الله السيّد الشوشتري وتحسّنت حالته واستأنف الدرس والتدريس، فحضر الشيخ الأنصاري محاضراته الأخلاقية، واستمرّ هو يدرس عند الشيخ الأنصاري إلى أن توفّي الشيخ بعد مدّة وصلّى السيّد على جنازته، كما أخبر الشيخ قدس سره.

فهل لله تعالى صداقة تربطه مع بعض عباده كالشيخ الأنصاري ليميّزه هكذا اعتباطاً؟ أم أنّ الأنصاري ـ وهذا هو الصحيح ـ أخلص لله تعالى فكافأه الله كذلك؟ إنّ الشيخ الأنصاري عرف الطريق المؤدّي إلى الله تعالى وسلكه، وهو طريق الإخلاص المقترن بنكران الذات والتخلّي عن الأنا وتوابعها.

وكلّ مَن أراد أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ الأنصاري عليه أن يسلك الطريق نفسه، فكما أنّ مَن يريد كسب المال ينظر إلى الناجحين في هذا المضمار فيذهب إلى السوق ويبيع ويشتري ويتعب نفسه حتى يصل إلى مقصوده، أو مَن يريد أن يكون مدرّساً ناجحاً أو طبيباً حاذقاً أو خطيباً مفوّهاً وهكذا في كلّ شؤون الحياة عليه أن يقتفي أثر الناجحين في ذلك المضمار ويسلك طريقهم لكي يصل إلى ما وصلوا إليه، فكذلك هو الحال من يريد أن يكون مستجاب الدعوة وموقناً بالإجابة، فليحذُ حذو الشيخ الأنصاري بعد أن يقرأ سيرته ويطبّقها على نفسه، فلقد كان رحمه الله النموذج الناجح في هذا المجال.

وحياة الشيخ الأنصاري ـ كما تظهر لمن تتبعها ـ فيها بندان:

البند الأوّل: العلم.

البند الثاني: الصدق مع الله، المتمثّل بصدق الفطرة وصدق الوجدان وصدق القلب وصدق النية.

فما أدرانا ـ والله العالم ـ بعدد الدعوات التي دعا بها الشيخ الأنصاري وعلِمَ من الله استجابتها، ولكنّ الشيخ الأنصاري لم يصرّح بها، بل لولا اضطراره في المورد المذكور آنفاً لما ذكر ذلك أيضاً، ولكن إصرار السيد الشوشتري وهو في حالة خاصّة ألجأت الشيخ الأنصاري للتصريح بهذه الحقيقة.

أمّا لماذا لم يخبر الله عامّة الناس في حال استجابته دعوتهم كما أخبر الشيخ الأنصاري؟ فلعلّه لو كان الشخص يعلم عن طريق الغيب بحادثة ستقع في المستقبل لما استطاع الكتمان بل من المرجّح أنّه كان سيجعل من الأمر سوقاً رائجة لنفسه، فلا يدَع أحداً إلاّ وأخبره، طمعاً في اشتهاره بين الناس، بينما الأمر عند الشيخ الأنصاري سيّان، فلم يكترث سواء عرفه الناس أو لم يعرفوه، فلا تزيده معرفة مَن لم يعرفه عزّة، ولا جهل مَن جهله وحشة.

فلا شكّ أنّ البند الثاني من حياة الشيخ الأنصاري ـ والذي عليه المعوّل ـ هو ذاك الذي ضيّعهُ زميله ذو السبعمئة قاعدة؛ فضيّع بإضاعته كلّ أتعابه وآثاره، بينما بقيت آثار الشيخ الأنصاري بحيث لا تجد كتاباً في الفقه والأصول إلاّ وفيه ذكر للشيخ الأنصاري، ولا تحضر درس الخارج في الفقه والأصول لدى أيّ أستاذ إلاّ وتسمع فيه اسم الشيخ الأنصاري يُذكر مجللاً.

إنّ للفقه والأصول والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والفلسفة وغيرها من العلوم، كتباً خاصّة، أمّا الصدق مع الله سبحانه فلا يدرَّس في الكتب، وإنّما يتلخّص في شيء واحد، وهو التخلّص من عقدة الـ «أنا» وهذا أمر لا يخلو من صعوبة ولكنه في الوقت نفسه ممكن تطبيقه، ولا يعني ذلك أن تذلّ نفسك عند هذا أو ذاك، بل المطلوب أن تُشعر قلبك أنّك محتاج إلى الله دوماً وأنّ الآخرين غير قادرين على أن ينفعوك بشيء لم يُرده الله، ولا أن يضرّوك إلاّ بإذن الله، لتقطع بذلك أمَلك عمّا سوى الله، وبعدها لا تعود تفكّر في نيل

الحظوة عند الناس، وأن تحذر الشيطان دوماً، فإنّك قد تريد الخلاص من هاوية فيرديك في هاوية أخرى، فمثلاً تريد أن تتواضع وتتخلّى عن الكبر فإذا به يوقعك في الذلّ والهوان.

إذاً، ليس المقصود من التخلّي عن «الأنا» امتهان الذات، بل المقصود أن يكون العمل لله وحده. فلو أصبح أحدكم مدرّساً أو خطيباً أو إمام جماعة في يوم من الأيام، فعليه أن يضع «الأنا» جانباً وبقناعة، لا أن يتظاهر بذلك وقلبه ممتلئ تكبّراً وحُبّاً للظهور.

الإخلاق طريق النجاة

يحكى أنّ أحد العلماء الزهّاد سافر إلى بلد ما، وكان معروفاً فطلب منه أهل ذلك البلد أن يؤمّهم في الجماعة طيلة المدّة التي يقيمها عندهم، فلبّى طلبهم وذهب ليصلّي في المكان المقرّر، وكان المصلّى بعيداً عن بيته فاستقلّ دابّته واتّجه لأداء الصلاة، ولكن الدابّة عثرت به وسط الطريق فسقط وشجّ رأسه، فعادوا به إلى البيت، وضمّدوا جرحه، ومكث في البيت مدّة لا يستطيع الخروج ليؤمّ المصلّين.

وبلغه خلال هذه المدّة أنّ الحسّاد الذين كانوا منزعجين ومتضايقين لموافقته أن يكون هو الإمام قد أشاعوا بين الناس أنّ الشيخ قد جُنّ على أثر الضربة التي أصابت رأسه عندما عثرت به الدابّة!

وخبر كهذا عادةً ما يكون ثقيلاً على شخص كهذا؛ فبعد خمسين سنة من التعب والدراسة وعناء الاستقامة ثم يقال عنه: مجنون. كما أنّ انطلاء مثل هذه الإشاعة على كثير من الناس يكون أسرع من النار في الهشيم، لأنّ بعض صور الحدث كالسقوط وشجّ الرأس إضافة إلى عدم حضوره للصلاة، يقوّي ميل كثير من الناس للتصديق بمثل هذه الإشاعات.

ولكن بعد أن تماثل الشيخ للشفاء وعاده بعض أصدقائه وعرضـوا عليـه أن يعود ويلبّي طلبهم في امامة الجماعة، وطمأنوه أنّ الإشـاعة لـم تـؤثّر فـي الناس، استجاب الشيخ لرغبتهم وركب دابّته متّجهاً إلى المسجد، فهاله حشود الناس مجتمعين بأعداد غفيرة على جانبي الطريق لاستقباله، فتوقّف قليلاً ثـم طلب من مرافقيه أن يسمحوا له بالعودة إلى بيته لتراجعه عن عزمه في إمامـة المصلّين، ولم تنفع معه توسّلات المتوسّلين وقولهم لـه أنّ النـاس ينتظرونـه ولا يصحّ منه التراجع. مكتفياً بالقول أنّ حالـه لـيس علـى مـا يـرام، وأنّـه لا يستطيع الاستجابة.

وبعد أن عاد إلى البيت جاءه بعض أصدقائه المقرّبين وسألوه عن السبب الذي دعاه للانصراف، وأصرّوا عليـه فـي ذلـك. فقـال فـي جـوابهم: عنـدما خرجت من البيت متّجهاً لأداء الصلاة، ورأيت الألوف مـن النـاس بانتظـاري قلت مع نفسي: أين أولئك الذين أشاعوا أنّني صرت مجنوناً؟ فليـأتوا ويـروا بأمّ أعينهم كيف أنّ الجماهير لم تصدّق أكاذيبهم، ولم تـؤثّر فـيهم إشـاعتهم، وها هي تستقبلني بالألوف.

يقول: ثم انتبهتُ فجأة وخاطبـتُ نفـسي قـائلاً: يـا شـيخ! أتـصلّي لله أم للناس؟! فقرّرت أن لا أحضر تلك الصلاة.

إنّ نكران الذات والإخلاص لله تعالى هو الانتباه لمثل هذه الحالات، فإنّ هذا العالم إنّما رفض أن يؤمّ المصلّين الـذين كـانوا بانتظـاره لمجـرّد أنّ خاطراً شيطانياً خطر إلى ذهنه، فحاربه لأنّه كان يدرك أنّ هـذا هـو الـذي يهدم كلَّ ما بناه.

من أمثال هذا يمكن أن نفهم قول الإمام السجاد سلام الله عليه: «**إنّ العلم إذا**

لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلاّ بعداً»[١].

فإن كان العلم موجوداً ـ وهو نتيجة أتعاب خمسين سنة أو أكثر ـ ولكنّه كان من دون عمل فإنّه سيكون وبالاً على صاحبه.

ولا نعني بالعمل أداء المستحبّات ـ فضلاً عن الواجبات ـ كصلاة الليل وزيارة المعصوم، وإن كانت مطلوبة أيضاً، وإنّما المقصود اتّخاذ الموقف الصحيح المستند إلى العلم، كما في المثال المذكور آنفاً، وإلاّ لو خُلّينا والفهم السطحي للحديث فإنّ ذلك العالم كان تاركاً للعمل المستحبّ وهو إمامة الجماعة، ولكن الحقيقة أنّه كان يعرف أنّ في عدم الذهاب محاربة لنفسه وعدم الاستجابة لخواطرها الشيطانية، وهذا هو المقصود بالعمل في قول الإمام سلام الله عليه. فليكن الإنسان هو الحكم على نفسه ـ فكلّ إنسان على نفسه بصيرة[٢] ـ وليفكّر بعقله ويستنبط الموقف الصحيح ويحاول أن يُطبّقه على نفسه، بمقتضى تشخيصه وعلى قدر وسعه ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ مَا آتَاهَا**﴾[٣]. فإنّ الله لم يُرد من الشيخ الأنصاري ـ مثلاً ـ إلاّ بالمقدار الذي كان يشعر به ويتوصّل إليه، وكذلك لا يريد منكم إلاّ المقدار الذي تتوصّلون إليه؛ لأنّ المهمّ في الأمر أن يطبّق الإنسان علمه على نفسه متحرّياً الإخلاص في كلّ حال وأن لا يكون همّه الناس وما سوى الله، وأن يَعلم بعد ذلك «**أنّ الله يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالِم ذنباً واحداً**»[٤]. وليس المقصود بالعالِم مرجع التقليد فقط بل كلّ عالم على قدره.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج١٤ ص٣١٩ ح٢٠.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿**بَل الإنسانُ عَلى نَفسِه بَصيرَة**﴾ سورة القيامة، الآية: ١٤.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٤) سعد السعود لعلي بن طاووس الحلّي: ص٧٨.

النتيجة

لقد ترك كلّ واحد منكم وراءه العشرات بل المئات من القضايا والاحتياجات المالية والعائلية والاجتماعية وغيرها، إضافة إلى غضّ النظر عن أمور أخرى مختلفة، كلّ ذلك في سبيل العلم، ونعم ما تفعلون، وأبارك لكم هذا التوفيق، وحقّاً إنّه لتوفيق عظيم. فما أكثر الناس المحرومين من هذا التوفيق الذي وفّقكم الله له، ولكن حاولوا أن تستفيدوا من هذا العناء وهذه التضحيات، واعلموا أنّ ذلك لا يتأتّى عن طريق العلم وحده، فليس بالعلم الاكتسابي فقط تُنال الدرجات، بل العلم الحقيقي هو ذلك النور الذي يقذفه الله عزّ وجلّ في قلب من أراد الهداية وسعى لها.

المطلوب أن لا يستعظم الإنسان نفسه إذا ازداد علماً، بل عليه أن لا يجد فرقاً بين اليوم الذي كان يدرس فيه كتب المقدّمات واليوم الذي أصبح فيه مرجعاً للتقليد أو مدرّساً كبيراً في الحوزة العلمية أو غير ذلك.

قد يكون الإنسان ذكيّاً ولا يدَع أحداً من الناس يعلم أنّ فيه كبراً ـ مثلاً ـ لكنّه هو يعلم ذلك من نفسه، فالله تعالى أعلم بما توسوس به نفوسنا، وكما ورد في وصية لقمان لابنه: «**الناقد بصير**»[١] وإنّه سيكافَأ كلٌّ منّا على قدر إخلاصه الذي يثبت عند الله وليس الذي يدّعيه الشخص أو يصوّره للناس، ولذلك أُعطِي الشيخ الأنصاري ما اضطرّ إلى التصريح ببعضه مرّة ـ في قصّة السيّد علي الشوشتري كما تقدّم ـ فهل نكون كذلك أم نصاب ـ لا سمح الله ـ بالغرور الذي يُنسي ذكر الله تعالى فينسينا أنفسنا[٢].

---

(١) راجع الاختصاص للشيخ المفيد: ص٣٣٦، بعض وصايا لقمان الحكيم لإبنه سلام الله عليهما.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٤)

الفرق بين الأخلاق والعلوم الأخرى

هناك فروق واضحة بين الأخلاق والعلوم الأخرى، نذكر فيما يلي بعضها:

١. رمزية الأخلاق

إنّ مَن يتخصّص في علم واحد ويستفرغ كلَّ وسعه وجهده يبلغ أعلى الدرجات فيه ويتفوّق غالباً على مَن كان ذلك العلم أحد اهتماماته، والأخلاق تحتاج إلى التفرّغ والجدّ والمثابرة من أجل بلوغ المراتب العالية فيها. فالمستوى الذي يبلغه الأخلاقي ـ وطالب العلم الدينيّ خاصة ـ يؤثِّر في أداء دوره في المجتمع. فقوله وفعله وسيرته وتاريخه يشجِّع الناس نحو الفضائل الأخلاقيّة والاجتناب عن رذائلها إذا كان هو من أهل الفضيلة، ولكن إن كان عكس ذلك فسيدفع الآخرين إلى العكس أيضاً.

يقول الشهيد الثاني الشيخ زين الدين العاملي[١] قدس سره الشريف في كتابه منية

---

(١) هو: الشيخ الأجلّ زين الدين بن علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين العاملي الجبعي. قال فيه الحرّ العاملي: أمره في الثقة والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق وجلالة القدر وعظم الشأن وجمع الفضائل والكمالات أشهر من أن يُذكر، ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصى وتحصر، ومصنّفاته كثيرة مشهورة. روى عن جماعة كثيرين جدّاً من الخاصّة والعامّة في الشام ومصر وبغداد وقسطنطينية وغيرها. =

المريد[١]:

«واعلم أنّ المتلبّس بالعلم» أي طالب العلم الديني «منظور إليه» أي ينظر إليه الناس «ومتأسّىً بفعله وقوله وهيئته» أي يُتخذ أسوة وقدوة «فإذا حسن سمته، وصلحت أحواله، وتواضعت نفسه، وأخلص لله تعالى عمله، انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعية، وفشا الخير فيهم وانتظمت أحوالهم. ومتى لم يكن كذلك» أي لم يلتزم بالفضائل «كان الناس دونه في المرتبة التي هو عليها» أي أنّ الناس لا يلتزمون حينئذ حتى بالواجبات والمحرّمات، «فكان مع فساد نفسه، منشأً لفساد النوع وخلله» خلافاً لعامّة الناس. «وناهيك بذلك ذنباً وطرداً عن الحق وبعداً».

ثم يقول بعد ذلك:

«وقد قال بعض العارفين: إنّ عامّة الناس أبداً» أي دائماً «دون المتلبّس بالعلم بمرتبة» أي: هم أدنى منه بدرجة.

«فإذا كان» طالب العلم «ورعاً تقيّاً صالحاً» أي ملتزماً بالفضائل فوق التزامه بالواجبات والمحرمات «تلبّست العامّة بالمباحات، وإذا اشتغل بالمباح تلبّست العامّة بالشبهات، فإن دخل في الشبهات تعلّق العامّي بالحرام، فإنّ تناولَ الحرام كفَر العامّيُّ»[٢].

= وذكره السيد مصطفى بن الحسين الحسيني التفرشي في كتاب الرجال، وقال فيه: وجه من وجوه هذه الطائفة وثقاتها، كثير الحفظ، نقيّ الكلام، له تلاميذ أجلاّء، وله كتب نقيّة جيّدة، منها: شرح شرائع المحقق الحلي. قُتل لأجل التشيع في قسطنطينية سنة ٩٦٦ هـ. أمل الآمل للحرّ العاملي: ج ١ ص ٨٥.

(١) وهو: كتاب في علم الأخلاق، أسماه مؤلّفه الشهيد الثاني: منية المريد في آداب المفيد والمستفيد. حريّ بطلبة العلم مطالعته، لما فيه من مطالب ثمينة في أبحاث العلم.

(٢) منية المريد لشهيد الثاني: ص١٦٢، ١٦٣.

إذاً لا ينبغي لطالب العلم أن يفعل المكروهات بدعوى أنّ كلّ مكروه جائز، ولا يترك المستحبّات بدعوى أنّ كلّ مستحبّ جائز الترك؛ لأنّ ذلك سيكون سبباً في تساهل العاميّ حتى في الواجبات والمحرّمات.

أمّا إذا عمل طالب العلم بالفضائل ـ أي إنه ترَك المكروهات وأتى بالمستحبّات ولم يتوقّف عند مستوى التقيّد بالواجبات والمحرّمات فقط ـ فهذا يوجب أن تكون العامّة عدولاً، أي ملتزمين بالحدود الشرعية بأجمعها.

لا ينبغي لطالب العلم الديني أن يقول: إنّ حسن الخُلق جيّد ولكنه ليس بواجب فلماذا ألتزم به؟ أو إنّ سوء الخُلق في حدود منه مكروه، فلماذا ألتزم بتركه؟ والصلاة في أوّل الوقت فضيلة ولكنه ليس بواجب، فلا يخلّ بعدالتي لو تسامحتُ به، وهكذا... متذرّعاً بالقول: «إنّ أتقى الناس مَن عمل بالواجبات».

فلو توقّف العالِم أو طالب العلم عند هذا الحدّ، فإنّ الوسط الذي يعيش فيه والأشخاص الذين يشهدون سيرته لا يتوقّفون عند ذلك الحدّ، لأنهم دونه بدرجة، وليست تلك الدرجة هنا إلاّ التورّط بالمعاصي وترك الواجبات؛ لأنّ العامّي إذا رأى قدوته يصلّي صلاة الصبح قبيل طلوع الشمس بلحظات ـ مثلاً ـ فسيستهين هو بالواجب نفسه، وإذا رآه يفعل مكروهاً، فإنّه سيتهاون بالحرام ولسان حاله يقول: هذا رجل عالِم أو سيّد فاضل وهو يفعل كذا أو يترك كذا، فماذا يُنتظر مني؛ وأنا شخص عادي؟

أمّا لو تورّط المتلبّس بلباس أهل العلم بترك الواجب أو فعل المحرّم، كما لو قتل إنساناً ظلماً أو اغتاب أو اتّهم مؤمناً، فإنّ عامّة الناس سيكفرون حينئذ.

إذاً على طالب العلم أن يولي الالتزام بالفضائل والأخلاق عناية خاصّة

لأنّه كلّما ارتفع مستواه فيهما ارتفع مستوى التزام الناس بهما بالتبع.

وهذا أحد الفروق التي تميّز الأخلاق عن سائر العلوم والفنون كالفقه والأصول والبلاغة والفلسفة والخطابة وغيرها.

٢. صعوبة الارتقاء

الفرق الآخر بين الأخلاق والعلوم الأخرى يكمن في صعوبته قياساً بها، فالرقيّ في الأخلاق أصعب منه في العلوم الأخرى. فهو أصعب حتى من الفقه الذي يُعدّ من أصعب العلوم؛ لسعة آفاقه وكثرة مسائله. ولذلك ترى الفقيه يتفرّغ خمسين سنة للفقه ومع ذلك عندما تسأله عن بعض المسائل يقول لك يلزم أن أراجع. ونادراً ما تجد فقيهاً مجتهداً بالفعل في جميع مسائل الفقه ـ أي يملك قوّة استنباط فعلية ـ بحيث عندما تعرض عليه أيّة مسألة يتمكّن أن يخرجها حالاً.

لقد رأيت عدّة مجتهدين معروفين بالفقه طُرحت عليهم مسائل ولم يتردّدوا في قول «لا أدري»، مع أنّ بعضهم قضى ثمانين سنة في الفقه، فكيف لا يدري وماذا كان يعمل طيلة هذه المدّة؟

الجواب: إنّ الفقه واسع وعميق، ولذلك ترى الألوف من طلاب العلوم الدينية يبدأون دراستهم مؤمّلين أن يصبحوا فقهاء مجتهدين متبحّرين، ولكن كلّما يتقدّمون في مسيرتهم يجدون صعوبات وصعوبات، فيتناقص العدد المتّجه إلى هذا الهدف، فينحو أكثرهم نحو التخصّص في مجالات أخرى كالخطابة أو التأليف أو التدريس، مثلاً.

فلو فرضنا أنّ الذين بدأوا بهذه النيّة كانوا ألفاً فإنّ مئة منهم سيتركون مواصلة الدراسة بعد مرور سنتين، وهكذا يستمرّ العدد بالتناقص مع مرور السنوات حتى لا يبقى من الألف الذين بدأوا دراستهم بهذه النيّة سوى عشرين أو ثلاثين شخصاً فقط.

قال لي شخص قضى عشرين سنة في الدراسة: لقد يئست من أن أكـون مجتهداً، لأن كلّ مسألة أواجهها أجد فيها صعوبة بالغة. فقلت له: لا تيأس.

إنّ من جملة ما جعل مرتبة الاجتهاد الفقهي صعبة المنـال كـون النتيجـة فيه لا تحصل بسرعة، قياساً بالفنون الأخرى، فإنّ الدراسـة والتفـرّغ والتركيـز لمدّة سنتين قد تكفي لأن يصبح الشخص الذكيّ خطيباً يرتقي المنبر ويستمع إليه الألوف من الناس.

وهكذا الحال بالنسبة لوكلاء المراجـع. فمَـن أراد أن يـصير وكـيلاً فـي منطقته أو مدينته، يأتي إلى إحدى الحواضر العلميـة كقـم المـشرّفة فيـدرس خمس سنوات أو عشراً ـ مثلاً ـ يتعلّم خلالها الرسالة العملية وشرائع الإسلام والعروة الوثقى وبعض الأخلاقيات ويصبح رجلاً صالحاً ثم يعـود إلـى بلـده بعد أن يعطيه أحد المراجع وكالة عنه، وهكذا يحصل على نتيجة أتعابـه بعـد عشر سنين.

أمّا إذا أردت أن تصير فقيهاً فإنّ ذلك يتطلّب منك دراسة متواصلة لمـدّة عشرين وربّما ثلاثين سنة، لا لكي تلمس النتـائج بـل لتواجـه المـشاكل أوّلاً. وهذا يتطلب ـ حقّاً ـ شخصاً لا طمع لـه فـي أيّ نفـع أبـداً، بـل يثـابر علـى الدرس ولا ييأس. ومن هنا كان الاجتهاد في الفقه عملاً بالغ الصعوبة.

ولكن رغم ذلك تجد أنّ الأخلاق أصعب من الفقـه لأنّ الأخـلاق تعنـي تهذيب النفس وبناءها، وقد قال بعض اهل الخبـرة: مـن الـصعب أن يـصبح المرء مجتهداً ولكن من الأصعب أن يـصير إنـساناً. وبعـضهم قـال: بـل مـن المستحيل. ولا شكّ أنّ المقصود بالاستحالة هنا ليس الاسـتحالة العقليـة بـل كون القضية بالغة الصعوبة.

إنّ الارتقاء في الأخلاق والفضائل أصعب من الاجتهـاد فـي الفقـه؛ وإنّ

ثمرته ونتيجته أبعد منالاً وأعسر حصولاً من الفقه. فـلا يلمـس المـرء نتيجـة سعيه إلاّ عندما يصبح ذا قلب سليم وتصبح الأخلاق والفضائل ملكات لديـه، عندها يشعر بلذّة الأخلاق والوصول إلى مراتبها العالية، وعندها يعـرف قيمـة ترويض النفس ومخالفة الشهوات.

ولا تـصبح الأخـلاق ملَكـة عنـد الـشخص إلاّ بعـد أن يحـارب نفـسه ويخالفها، ويستمرّ في مخالفتها حتى تنمو عنده ملَكـة حـبّ الخيـر فـي كـلّ أبعاده. فإذا حصل على الملَكة شعر باللذّة وبدأ يلمس نتيجة أتعابه في مجـال الأخلاق والفضائل. وهذا لا يحصل بصورة سريعة بل هو بحاجة إلـى وقـت يستغرق عمر الفرد؛ لذلك أصبح الارتقاء في مدارج الأخلاق صعباً بل أصعب من الاجتهاد في الفقه. وخير دليل على ذلك، ما نلمسه في الواقـع الخـارجي، حين نرى أنّ عدد مَن بلغوا مرتبة الإنسان المتّزن أندر من عدد المجتهدين.

فالتحلّي بالأخلاق أمر صـعب وروّاده قليلـون. وإلاّ فمَـن مـن النـاس لا يحبّ أن يصبح ذا فضائل، ولكن صعوبة الطريق وطول أمده في الوصول إلى النتيجة المرجوّة تصرفهم عن الاسـتمرار فـي المواصـلة، لأنّ الإنـسان بطبعـه يتعجّل النتائج.

ولا نقصد بصعوبة الأخلاق صعوبة تلقّي دروسها كمطالعة كتـاب جـامع السعادات أو إلقاء المحاضرات الأخلاقية أو الاستماع إليها.. فهذه إنّما تمثّـل علم الأخلاق، ولكنّ المقصود صعوبة العمل.

كما لا يعني أن ينصرف المرء عن الأخـلاق لـصعوبتها، وإنّمـا يلـزم أن يهتمّ بها أكثر، لأنّ الطالـب إذا استـسهل الأخـلاق وتهـاون بهـا، لا يـستطيع مواصلة المشوار؛ لما سـيواجه مـن صـعوبات. فإنّنـا ننبّـه فـي البدايـة علـى الصعوبات وطول الطريق ليأخذ الطالب استعداده ويـشمّر عـن سـاعد الجـدّ

ويحسب للأمر حسابه؛ فإنّ نتيجة الأخلاق لا تظهر سريعاً، ولذّة الإحساس بالسموّ الروحي لا تحصل إلاّ بعد عناء وصمود.

٣. فقدان عامل التشجيع

من الفوارق الأخرى بين الأخلاق والعلوم الأخرى أنّ الإنسان قد جُبل على حبّ التشجيع، ويكفي به وازعاً لتقدّمه في مختلف مجالات الحياة، غير أنّ مَن يسلك طريق الرقيّ في الأخلاق عليه أن لا يترقّب التشجيع من أحد، بل ليتوقّع التثبيط أيضاً. فهذا حال المجتمع في الغالب.

فطالب العلم قد يعكف على مادّة درسه عدّة ساعات حتى يتقنها، ثم يأتي في اليوم التالي ليجيب على أسئلة أستاذه، فيعرف الأستاذ حينها ومن خلال الإجابة أنّ هذا الطالب قد طالع درسه بدقّة حتى استوعبه، فيشجّعه بالقول: أحسنت، استمرَّ على هذا المنوال، وكلّما حصل لديك سؤال حاول أن تطرحه للمناقشة. وهكذا يستمرّ الطالب بالتشجيع حتى يتفوّق، ثم يقوم بتدريس المادّة نفسها بعد أن يبلغ فيها المستوى المطلوب.

أمّا في الأخلاق والالتزام بالفضائل فالأمر مختلف تماماً، لأنّ معظم الناس يثبّطون المرء ولا يشجّعونه في الاستمرار. مثلاً، لو حدث شجار بينك وبين أحد أرحامك، وأردت أن تضغط على نفسك لتصله، وقرّرت أن تزوره لتسدل الستار على ما حدث بينكما، فإنّ معظم من يحيط بك قد لا يشجّعك بل يضع أمامك مختلف الأعذار والعراقيل.

- يُذكر أنّ أحد مراجع التقليد ابتلي بشخص كان يشتمه ويسيء الأدب في الكلام معه حتى في المجالس العامّة، ويبدو أنّه كان من حاشيته. فاتّفق يوماً أن رأى المرجع وحيداً، فانتهز الفرصة وشكا له الحاجة إلى المال، حينها لم يبخل عليه المرجع بل أغدق عليه ولم يردّه،

ولكنّ العجيب أنّ هذا الشخص لم يكفّ عن سوء أدبه مع المرجع والجرأة على انتقاصه، بل أخذ يقول: إنّ فلاناً أعطاني المال ليسدّ فمي، وإنّ عطاءه هذا لم يكن لله، وليته يعلم أنّ فمي لا يغلقه المال!

وعندما بلغ الخبرُ بعض أصحاب ذلك المرجع، تأثّروا كثيراً وعقدوا العزم في انتداب أحدهم ليكلّم المرجع.

وبالفعل توجّه المنتدَب إلى المرجع وسأله إن كان قد أعطى فلاناً مالاً؟!

فقال: ولِمَ؟ وما الذي حدث؟

عندها قال الشخص: أتعلمون سماحتكم أنّه كان يشتمكم؟

قال: نعم.

قال: وتدرون أنّه لا يزال يشتمكم ويدّعي أنّكم لم تعطوه المال قربةً لله بل ثمناً لسكوته أو رياءً؟

وأضاف مسترسلاً: هب أنّا لا نقول أنّك عالِم دينيّ ومرجع تقليد، أفلا نقول أنّك رجل مؤمن؟ أفيصحّ تشجيع مَن يسبّ مؤمناً؟ ألا يعدّ إعطاؤكم المال لذلك الشخص تشجيعاً له؟! أليس في عملكم هذا اغواء له على إهانة العلماء وتشجيع للآخرين لكي يحذوا حذوه، فتستمرّ هذه الطريقة حتى بعد وفاتكم؟ و... و...

وهنا رفع المرجع رأسه وقال: أنا أسألك عن شيء: هل هذا الرجل متزوّج؟

أجاب: نعم، وله أولاد.

قال المرجع: وكيف وضعه المادّي؛ أهو فقير أم غنيّ؟

قال: بل فقير، لا يملك داراً، بل هو مستأجر لها.

فقال المرجع: لنفرض أنّه ارتكب حراماً إذ شتمني، ولكن ما ذنب زوجته

وأطفاله إذا كان سيعود إليهم في المساء ولا مال عنده يقوتهم به؟!

- ثَمّ مثال آخر: لماذا نرى عدد طلاب العلوم الدينية قليلاً جداً بالقياس لعدد طلاّب العلوم الحديثة؟ هل لأنّ الأمّة في غنى عن المرشدين وأنّ الحاجة إليهم أقلّ من العدد الموجود؟!

إنّ السبب هو أنّ التشجيع نحو طلب العلم الديني أقلّ من التشجيع نحو طلب العلوم الحديثة. فلو أراد أب إرسال ولده الى الحوزة لتلقّي العلوم الدينية فإنّ أغلب أفراد العائلة والأقارب سيعارضون أو يبدون عدم ارتياحهم، وربما نجحوا في ثنيه عن قراره، ولكن لو انصرف الابن إلى التحصيل في المدارس الحديثة وأراد أن يتعلّم إحدى المهن ـ مثلاً ـ فإنّ جلّ أفراد العائلة والأقرباء يشجّعونه ويقولون: إنّ من الضروري له ذلك لكي يتخرّج مهندساً أو طبيباً وما أشبه. وهذا يدلّ على أنّ التشجيع نحو المدارس الحديثة موجود، خلافاً للمدارس الدينية حيث تنتظر التثبيط أكثر من التشجيع! ناهيك عن الضمان الاجتماعي الذي تمنحه الدولة لموظّفيها، بينما هذا القدر غير متوفّر لطالب العلم.

وهكذا هو واقع الحال بالنسبة للأمور الأخلاقية. فلو نوى الإنسان أن يصبر أو يصدق في الحديث أو يفي بالوعد في الموارد التي تتزاحم مع مصالحه الشخصية، أو تتعارض مع أهواء الناس وميولهم غير المشروعة، فإنّ معظمهم يحاولون ثنيه؛ ولذلك يحتاج الالتزام بالأخلاق والفضائل والرقيّ فيهما إلى تقوى وصبر وصمود وتركيز ومثابرة.

٤. التمويه ومحاولة الإيقاع في الشبهات

فرق آخر بين الأخلاق وغيره هو مزاحمة الشبهات وانقلاب كثير من الفضائل رذائل، وهذا ما يستغلّه المثبّطون عادة للتمويه على من يريد التحلّي

بإحدى الفضائل إلى. فمثلاً الصبر فضيلة ولكن قد يُقلب إلى ذلّ، والذلّ رذيلة. فإذا عزم المرء على الصبر في موقف ما وكان صحيحاً وفي موضعه، قد يجد من يقول له: صحيحٌ أنّ الصبر حسنٌ ولكن هذا ليس موضعه، بل هذا ذلّ منك، وربّما ذكر له الحديث المرويّ عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «**إن الله عزّ وجلّ فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً**»[١]. حقّاً هذا هو الفخّ الذي هلك فيه خلق كثير.

مثال آخر: الكرم خلق محمود. ولكن ما أكثر الحالات التي يقوم المرء فيها بعمل كريم وفي موضعه، ولكن يرى كثيرين يصوّرونه له من الإسراف والتبذير الممقوت.

أتذكّر أن أحد الإخوان أهدى دورة من كتاب بحار الأنوار إلى مكتبة عامّة في كربلاء المقدسة، ولم تكن الدورة مطبوعة بالكامل يومذاك بل لم تبلغ مجموع الأجزاء الصادرة عشرين جزءاً، ولم تزد قيمتها على عشرة دنانير، وكان الراتب الشهري للطالب يومذاك ديناراً واحداً، فكان ذلك الأخ يوفّر بعض راتبه لشراء الكتب ومنها اشترى هذه الأجزاء التي أهداها للمكتبة. فانبرى شخص من أهل العلم موجّهاً الى الشخصَ المُهدي تأنيباً شديداً قائلاً له: أتزعم أنّك قمت بعمل جيّد؟ وهل هذا مطلوب منك؟ من المفترض أن تتعلّم موضع الكرم أوّلاً...! واستمرّ في تقريعه كأنّه ارتكب إثماً.

وهكذا الحال لو أراد الإنسان الإيثار أو التحلّي بأيّ من الأخلاق الحميدة، ربّما لا يدَعه مَن حوله حتى يشتبه عليه الأمر.

وهذا الفرق يختلف عن السابق لأنّه كان تثبيطاً مجرّداً، أمّا هذا فتمويه أيضاً.

---

(١) الكافي للكليني: ج٥ ص٦٣، باب كراهة التعرض لما لا يطيق، ح٦.

وهنا يكمن منشأ كثير من البدع الموجودة، وما نشهده من صراعات بين المؤمنين، فهل تظنّون أنّ أطراف الصراعات كلّهم يدركون نتائج عملهم، ويعلمون أنّه عصيان؟! كلاّ، بل كثير منهم يزيَّن له أسلوبه ويتصوّر أنّه على حقّ.

قيل: إنّ شخصاً كان يقول: أنا أتجاوز عن كلّ من يغتابني إلاّ الذي يفسّقني أوّلاً ثم يغتابني، فإنّي لا أتجاوز عنه.

فبعض الناس لو قلت له: لماذا تغتاب، أجابك: ماذا نفعل وقد اعتدنا على ذلك، ثم يستغفر الله تعالى. ولكن بعضاً آخر قد يدّعي أنّ هذا من مستثنيات الغيبة، وأنّ الشخص الذي يغتابه فاسق متجاهر بالفسق وأنّه من الذين تجوز غيبتهم ليحذّر الناس منه، أو يصوّر لك الرجل الذي يغتابه مبتدعاً ـ من دون قرينة أو دليل ـ وقد يأتيك بحديث «**باهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلّموا من بدعهم**»[1]، ليدعم به غيبته.

الخلاصة

هذه بعض الفوارق بين علم الأخلاق وبين العلوم الأخرى، ولكي نجنّب أنفسنا من الوقوع في الشبهات نحتاج مع السعي الى قسط وافر من التوسل إلى الله تعالى والاستمداد منه. لأننا من دون عون الله تعالى وحفظه وعصمته، لا نستطيع أن نعمل شيئاً ولا أن نصل إلى نتيجة.

وينبغي أيضاً أن نركّز على الأخلاق حتى نصبح كذي الفنّ الواحد، لنحصل على ملَكة الفضائل، والقلب السليم، فإنّه الاستثناء الوحيد النافع في الآية المباركة: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[2]. فبهذا

(١) الكافي: ج٢ ص٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، ح٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

القلب السليم نستطيع تخطّي تثبيط الناس وتمويه النفس الأمّارة بالسوء.

فمتى أيقنّا أنّ طريق الأخلاق صعب وشائك وأنّه بحاجة إلى صبر واستمداد من الله قبل ذلك كلّه، وأنّ علينا أن نحذر الانزلاق دوماً، فلنعلم حينئذ أنّنا قد بدأنا بسلوك الطريق، وأنّنا سوف نصل بالتوكل على الله تعالى إلى الغاية المتوخّاة من بعثة الرسول الأعظم، فلقد قال صلى الله عليه وآله: «**إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[1].

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج١١ ص١٨٧ ب٦ ح١.

(٥)

بالعمل يكون التأثير للقول

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾[١].

المفهوم من الآية الكريمة أنّ الله تعالى يمقت الذين يقولون ما لا يفعلون. بيد أنّ ههنا مسألتين لا ينبغي الخلط بينهما:

الأولى: أخلاقية، وهي قبح مناقضة القول للعمل.

أمّا المسألة الثانية: فهي مسألة شرعية، وهي عدم سقوط وجوب القول بذريعة عدم العمل به.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان حتّى على الشخص الذي لا يعمل بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر. ولنأخذ الصلاة مثالاً للمعروف، وشرب الخمر مثالاً للمنكر. فإنّ على كلّ مكلّف في كلٍّ منهما واجبين: الإتيان بالصلاة والأمر بها، وترك شرب الخمر والنهي عنه. فمَن ترك الصلاة ولم يأمر بها ارتكب إثمين، ومَن شرب الخمر ولم ينه عنه أتى بمعصيتين، وإن كان مَن يأمر بالصلاة وهو تارك لها، أو ينهى عن الخمر ولا ينتهي عنه، قد استحقّ سخط الله؛ لقوله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ**

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢ـ٣.

تَفْعَلُونَ﴾، إلاّ أنّ ذلك لا يعني سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحال، فهما واجبان برأسهما يحاسب المكلّف على تركهما كما يحاسب على ترك سائر الواجبات وارتكاب سائر المحرّمات.

اقتران القول بالعمل

ذكرنا هذا لبيان حقيقة شرعية قد تغيب عن بعض الأذهان. أمّا الحقيقة الأخلاقية التي ينبغي الإشارة إليها في ظلّ الآية المباركة فهي أنّ القول الذي لا يعمل به صاحبه لا يكون منبعثاً من القلب، وما لم يكن منبعثاً من القلب لا يقع في القلب، أي لا يؤثّر غالباً.

وقيّدنا بـ «غالباً»، لما روي في الحديث الشريف: «**أنّ أناساً من أهل الجنّة اطّلعوا على أناس من أهل النار، فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنّة. فقالوا: كنّا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها**»[1]. وهذا يدلّ أنّ القول قد يؤثّر أحياناً وإن لم يكن صاحبه عاملاً به.

ولكن ينبغي أن يُعلم أنّ هذا الحديث لا يتنافى مع الأحاديث التي تقول: إنّ القول الذي لم يعمل به صاحبه لا يؤثّر في غيره؛ ذلك أنّ المقصود منها الغالب، أو أنّ مثل ذلك القول بمفرده لا يربّي.

ولكن يبقى هذا الحديث نذيراً لأهل العلم والمتصدّين لهداية الناس، بل هو من قواصم الظهر حقّاً إن لم يُلتفت إليه!

---

(١) انظر مجموعة ورّام لأبي فراس الأشتري: ج٢ ص١٣٥.

وفي مجمع الزوائد للهيثمي: ج١ ص١٨٥: إنّ أناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار، فيقولون: لِمَ دخلتم النار؟! فوالله، ما دخلنا الجنّة إلا بما تعلّمنا منكم. فيقولون: إنا كنّا نقول ولا نفعل.

إنّ كثيراً من العبارات الجميلة التي تُنسب لبعض الحكماء أو المفكّرين ترى لها أصلاً في كلمات أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم، فإن لم تكن بالنصّ فبالمعنى؛ ذلك أنّ أهل البيت سلام الله عليهم ما تركوا شيئاً حسناً وجميلاً إلاّ أمروا به ودعَوا إليه، وما من سيّئة إلاّ ذمّوها ونهوا عنها، ولذلك يجد الباحث كلّ العبارات الصائبة والجميلة للحكماء مقتبسة من كلمات الرّسول وأئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام.

إنّ الناس لا يكونون كما تقولون، بقدر ما يكونون كما تكونون، إنّهم يأخذون من سيرتكم أكثر ممّا يأخذون من أقوالكم.

وهذا ما يراه كلّ منّا في نفسه، فإنّ الأشخاص الذين نراهم طيّبين ـ أو كنّا نراهم كذلك وانتقلوا إلى الدار الآخرة ـ إنّما تأثّرنا بسيرتهم أكثر ممّا تأثّرنا بكلماتهم، وما تأثُّرنا بكلماتهم إلاّ لأنّها طابقت أفعالهم. وبعبارة: إنّ كلماتهم التي نعتقد أنّها تتطابق مع سيرتهم هي التي أثّرت فينا وربّما غيّرتنا.

بين التربية والترويض

إنّ الآية التي صدّرنا بها الكلام لا تعني الكفّ عن القول مطلقاً بل هي بصدد تحريضنا على العمل إلى جانب القول. فالقول شيء سهل، ولكن الالتزام به والعمل بمقتضاه ربّما كان صعباً يحتاج إلى إرادة قوية وممارسة وسعي دون يأس أو فتور إلى جانب الاستعانة الصادقة بالله سبحانه وتعالى.

روى الديلمي في «إرشاد القلوب»؛ قال: «كان بعض العلماء يقدّم تلميذاً له على سائر تلاميذه. فلاموه على ذلك، فأعطى كلّ واحد منهم طيراً وقال: اذبحه في مكان لا يراك فيه أحد، فجاءوا كلّهم بطيورهم وقد ذبحوها، لكن ذلك التلميذ جاء بطيره وهو غير مذبوح، فقال له: لِمَ لم تذبحه؟ قال: لقولك: لا تذبحه إلاّ في موضع لا يراك فيه أحد، وما من مكان إلاّ يراني فيه الله.

فقال له: أحسنت. ثم قال لهم: لهذا فضّلته عليكم وميّزته منكم»[١].

يظهر أنّ هذا الأستاذ كان مربّياً وليس أستاذاً في الدروس المقرّرة كالفقه والأصول والنحو حسب، فلم يكن يرى واجبه منحصراً في إلقاء الدروس وإنما بتربية التلاميذ أيضاً. ولهذا كثيراً ما نقرأ عن بعض العلماء الماضين رضوان الله تعالى عليهم كيف أنّه كان متعايشاً مع تلاميذه في السفر والحضر، أو أنّ التلميذ كان يرى نفسه خادماً بين يدي أستاذه، كنتيجة حتميّة للتفاعل الروحي الذي يكون سائداً بين أستاذ كهذا وتلاميذه.

فهذا الطراز الرفيع من الأساتذة كان يربّي ذلك الطراز الجيّد من التلاميذ؛ والذين كان منهم ذاك التلميذ الذي ضرب أروع مثل في تنبيه الغافلين عن الله تعالى.

وقد يكون الأستاذ جيّداً، لكن يوجد في تلاميذه من ليس بجيّد. فهل هناك معلّم أفضل من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ومع ذلك نرى في أصحابه مَن له القدم وليس له القَدم، أي ليس على شيء، فمع أنّ بعضهم صحب الرسول صلى الله عليه وآله أكثر من عشرين سنة، إلاّ أنا نراه داخلاً في قول الله تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾**[٢]، فكان من المنقلبين. فربّ أستاذ جيّد وتلميذه رديء، وربّ أستاذ غير لائق لكن تلميذه يلتقط الدرر، لما لديه من استعداد نحو الرفعة والسموّ.

فإذا أردت أن يكون كلامك مؤثّراً فانظر إن كنت قد عملت به فبها، وإن لم تكن قد عملت به بعدُ فحاول أن تعمل به قبل أن تتفوّه به، وكرّر المحاولات ولا تيأس، لأنّ الأمر ممكن وإن كان لا يخلو من صعوبة. ولو راجع كلّ منّا نفسه بعد كلّ قول يقوله ونظَر إن كان قد عمل به أم لا، لتعجّب

---

(١) إرشاد القلوب للديلمي: ج١ ص١٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

من كثرة ما يصدر عنه من أقوال مغايرة لأفعاله! وسيشعر حينها بمسؤولية الكلمة ومدى خطورتها، محاولاً لأن يقترن كلامه مع عمله.

فالآية الكريمة تحرّضنا على أن نعمل بما نقول، دون أن تنهانا عن القول وإن كنّا لم نعمل به بعدُ؛ وذلك أنّ القول الحقّ بحدّ ذاته واجب سواء في الواجبات أو المحرّمات، وهو ما يعبّر عنه الشرع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإنْ أمَر المكلّف بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يكن ممتثلاً بنفسه، خاطبتْه الآية محرّضة إيّاه على العمل بما يقول، مضافاً إلى أنّ قوله قد يكون قليل التأثير ما لم يكن مقترناً بالعمل.

ولا ينبغي الاستهانة بالتأثير لأنّ كلامنا إذا أثّر في إنسان وعمل خيراً، فهذا يعني امتداد الثواب لنا مادام أثره باقياً. فلو أنّ شخصاً اهتدى بكلماتك وتربّى بسببها، فهذا يعني حصولك على الثواب كلّما عمل بها عملاً صالحاً دون أن ينقص من ثوابه شيء. فلو استفاد من كلامك الناس واستمرّوا لآلاف السنوات فإنّه يُكتب لك ثواب ذلك كلّه دون أن ينقص من ثوابهم شيء.

العلماء باقون ما بقي الدهر

علي بن الحسين بن بابويه القمي[1] أحد علمائنا، نلاحظ بقاء ذكر اسمه رغم مرور أكثر من عشرة قرون على وفاته ـ حيث كان يعيش في زمن الغيبة الصغرى ـ ويعلم الله كم من الناس اهتدوا خلال هذه السنين برسالته تلك وعملوا بما جاء فيها، وكم كُتب له جرّاء ذلك من ثواب عند الله، فبقي حيّاً عند الله وعند الناس أجمعين، فأيّة حياة أطول وأكبر من هذه الحياة.

هذا في حين نرى أنّ أكثر الناس يموت ذكره بموته، ولا يعود يعرفه

---

(١) المدفون في مقبرة تُعرف بـ «مقبرة ابن بابويه» في قم المقدّسة، وهو شيخ القميين، ووالد الشيخ الصدوق. له رسالة حوت أحكاماً وسنناً وآداباً، قد تناولتها الكتب المعتبرة عندنا.

أحد حتى من عقبه الخامس بل الرابع أحياناً! فلو أنّك سألت أكثر الناس عن اسم جدّه الخامس لما عرفه، بل إنّ بعض الأشخاص قد لا يعرف حتى اسم جدّه الرابع، فهو يعرف اسم أبيه وجدّه وجدّ أبيه (أي الجدّ الثاني) وجدّ جدّه (أي جدّه الثالث) ولكنّه لا يعرف أسماء مَن هم قبله مع أنّه قد لا يفصله عنه مئة وعشرون سنة. بل إنّ كثيراً من الناس قد لا يعرف حتى عن جدّه الثاني في أيّ يوم توفي وفي أيّة بقعة دُفن؛ مع أنّ الفاصلة الزمانية قد لا تزيد على خمسين سنة!

الخلاصة

يمكننا أن نُبقي سجلّنا مفتوحاً تدرج فيه الحسنات، ليبقى معه ذكرنا خالداً ونظلّ أحياء عند الله وعند الناس إذا ما استطعنا أن نؤثّر بأقوالنا، خصوصاً إذا كانت مقترنة بالعمل، فلنحاول دائماً أن نعمل بما نقول، لا أن نترك القول بذريعة عدم العمل، فيكون الحال كما ذكرته الآية الكريمة: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[1]. وإذا راجعنا أنفسنا بعد كلّ قول شعرنا بمسؤولية الكلمة من جانب، وجدّدنا سعينا للالتزام بما نقول أيضاً، فيكون ذلك ترويضاً لنا، ولا شكّ أنّ مَن أراد شيئاً وعمل من أجله مستعيناً بالله تعالى بلغه أو اقترب منه.

فلو أنّ الإنسان تمرّن وروّض نفسه استطاع أن يفكّر في كلّ كلمة قبل أن يطلقها، لشعوره بمسؤوليتها.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

(٦)

تذليل الصّعاب في طلب العلم

قيل: «**لكل شيء آفة وللعلم آفات**»[1] وهذا القول يؤيّده الاعتبار العقلاني. أي أنّه صحيح خارجاً، فإنّنا نلاحظ في الواقع الخارجي أنّ نسبة كبيرة ممّن بدأوا طريق العلم والدراسة بإصرار وصدق وإيمان لم يستمروا حتى النهاية، بينما النسبة الأقلّ هم الذين استطاعوا التغلّب على المشاكل الكثيرة التي تحفُّ طريق طلب العلم.

فإذا كانت المشاكل والعقبات في طريق طلب العلم كثيرة فيما مضى، فإنّها اليوم أكثر. فأكبر مشكلة في السابق كانت تتلخّص بعدم وجود الكتاب، وكون الكتب مخطوطة، فكان طالب العلم الذي يريد أن يقتني كتاباً كالشرائع ـ مثلاً ـ أمام أحد خيارات:

- إمّا أن يستعير نسخة خطّية أو مستنسخة ثم يقوم بنسخها من أوّل الكتاب إلى آخره.
- أو أن يدفع ثمناً باهضاً لشراء نسخة من الكتاب. وهذا لم يكن ميسوراً لأكثر الطلاّب، فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ تسعين بالمئة منهم لم يكونوا قادرين على توفير هذا الثمن.

---

(١) قول لبعض الحكماء. راجع تاج العروس للزبيدي: ج٦ ص٤٩ «مادّة آفة».

- أو أن يجد مَن يتبرّع له بثمن الكتـاب. وهـذا أصـعب الخيـارات وأندرها تحقّقاً.

أمّا اليوم فبإمكان غالب طلاّب العلوم الدينية شراء نسخة من الكتاب الذي يريدون دراسته. إذاً يمكن القول: إنّ مشكلة صعوبة الحصول على الكتاب لم تعد اليوم موجودة.

ومن المشاكل التي كانت موجودة في السابق، وقد قلّت اليوم إلى درجة كبيرة، الحصول على مدرّس، فقد زالت هذه الصعوبة اليوم إلى حدٍّ كبير وخاصّة في الحواضر العلمية التي نعيش فيها.

لكن هناك مشاكل استجدّت ولم تكن في السابق، ومنها كثرة العطل، فلم تكن بهذه الكثرة، ولم تتجاوز ـ على ما أتذكّر ـ غير الخميس والجمعة، والحالات الأربع من كل عام وهي شهر رمضان كلّه، وثلاثة عشر يوماً الأولى من شهر محرّم، ووفيّات ومواليد المعصومين عليهم الصلاة والسلام، والأعياد الثلاثة: الغدير والفطر والأضحى، ولم تكن عندنا عطلة صيفية ولا عطلة أخرى غيرها. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ بعض وفيّات ومواليد المعصومين كانت تقع في أيّام الخميس أو الجمع ما عدا تلك التي تقع في أيّام شهر رمضان. إذاً، فإنّ مجموع الأيام التي كنّا نعطّل فيها الدرس لم تزد على الشهرين في السنة، ومع كلّ ذلك لم نصل إلى شيء، مع أنّنا كنا نستغلّ حتى أيّام العطل في تلقّي دروسٍ خارج المنهج الحوزوي المقرّر كدروس الأخلاق والتفسير والعقائد والرياضيات والخطابة والكتابة، ولم تكن حتى ليالي الجمع وأيّامها مستثناة من ذلك.

لقد عبّأنا كلّ طاقاتنا ولم يصل أغلبنا إلى الغاية المرجوّة، فكيف بالوضع اليوم، وقد نقل لي أحد المدرّسين أنّه أحصى كلّ الأيام التي درّس فيها خلال

إحدى السنوات الأخيرة فوجدها لا تزيد على التسعين!

فإذا كانت المشاكل في طريق طالب العلم كثيرة، وكان طالب العلم لا يريد صرف عمره هكذا عبثاً ثم يكتشف بعد مرور ثلاثين سنة أو ربّما خمسين سنة أنّه لم يصل إلى شيء ولم يحصل على نتيجة، فما هو الحلّ العملي للتغلّب على هذه الصعاب؟

الحلّ الجذريّ يتمثّل بالآية الكريمة: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[1]. والمقصود بذكر الله تعالى في الآية ـ كما قال المفسّرون ـ الذكر اللساني والقلبي معاً.[2] والمقصود بالذكر القلبي هو التوجّه إلى الله تعالى، فإنّ الممارسات العبادية التي نؤدّيها لله تعالى ينبغي أن لا تكون طقوساً جامدة، لا روح فيها، بل علينا أن نتفاعل معها، ونشعر من خلالها أنّنا نقف بين يدي الله تعالى ونؤدّي حقّ العبوديّة على أتمّ وجه.

صحيح أنّ الواجب يسقط بالامتثال وفق الشروط المذكورة في كتب الفقه، حتى مع عدم حضور القلب، وأنّه لا تجب الإعادة على الشخص الذي أدّى صلاته بصورة صحيحة ـ وذلك لطف وعفو من الله عزّ وجلّ ـ ولكن النتيجة المطلوبة من العبادة لا تحصل، ولهذا فهي لا تسجّل صلاة حقيقية وكذا سائر العبادات، كما في مستفيض الأحاديث.[3]

أي إنّ مَن اكتفى بأداء العبادة كطقس وعادة دون توجّه القلب لله، لا يحصل على نتيجة لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل ـ إن لم يشمله اللطف الإلهي ـ قد يصبح عمله هذا وبالاً عليه كما ورد في بعض الأحاديث.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) راجع التبيان للطوسي: ج٦ ص٢٤٩، مورد تفسير سورة الرعد، الآية ٢٨.

(٣) راجع الكافي: ج٣ ص٤٦٨، باب من حافظ على صلاته أو ضيّعها.

الإرادة معيار التغيير

نُقل أنّ الشيخ علي القمّي[١] عندما أراد الزواج ـ يوم كان شابّاً ـ طلب نوعاً من القماش الفاخر الذي كان الشباب المتأنّق في تلك الأيّام يخيطون منه بذلة الزواج، وكان هذا القماش يُستورد من بلاد الشام.

وحيث إنّ طلبة العلوم الدينية كانوا أكثر تواضعاً وبساطة في زيّهم وملبسهم من سائر الشباب، لاعتبارهم قدوة للآخرين، حاول بعض زملاء الشيخ أن يثنيه عن هذا المطلب. ولكنّه كان مصرّاً لدرجة أنّه أجّل زواجه عدّة أشهر، لأنّ ذلك القماش لم يوجد آنذاك في الأسواق.

وما يثير العجب أكثر أنّ هذا لم يكن حال كلّ الشباب آنذاك. فما كان يهتمّ بمثل هذه المظاهر إلاّ المنهمك في الدنيا.

ولا نقول: إنّه كان حراماً ولكنّه كان يعبّر عن اهتمام زائد بالدنيا، مما لا يناسب طالب العلم الديني، ولذلك كان زملاؤه يحاولون ثنيه.

ولكنه كان يجيبهم بالقول: مادام غير محرّم، فهو زينة والله تعالى يقول: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾[٢].

وصار يوصي المسافرين إلى المدن الأخرى في العراق ككربلاء والحلّة وبغداد ولكن دون جدوى، حتى اتّفق أنّ بعض أصدقائه نوى السفر إلى بلاد الشام وبعد عودته أتى له بذلك القماش، فتزوّج بعد ذلك!

وحيث إنّ وسائط النقل لم تكن يومئذ كما هي اليوم لتلبية رغبته فربما أخّر زواجه لمدة سنة كاملة ليس إلاّ ليكون في ليلة زفافه مرتدياً ذلك

---

(١) أحد العلماء المعروفين في النجف، توفّي قبل أكثر من نصف قرن.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

القماش!!

أذكر لكم هذه القصّة لتعرفوا أنّ التغيير ممكن، فإنّ هذا الشيخ نفسه بعد أن كان مستوى اهتمامه في شبابه قد أرغمه على أن يؤجّل موعد زفافه لحين حصوله على قماش اليوم! قد تحوّل تحوّلاً عجيباً حتى صار مضرب المثل في الزهد والتقوى في عامّة العراق وإيران رغم وجود العشرات بل المئات من الزهّاد والمتّقين في ذلك الزمان! فلقد سمعت قصصاً عن الشيخ علي القمّي رحمه الله أكتفي هنا بنقل اثنتين منها:

- يقول والدي رحمه الله: إنّه كان في النجف الأشرف يومـذاك تـسعون رسالة عملية، وهذا يعني أنّ المجتهدين كانوا بالمئات، لأنّ الـذين عندهم رسائل عملية لا يشكّلون في العادة عشرة بالمئـة ـ مـثلاً ـ من مجموع المجتهدين. فهكذا كان وضع النجف وحوزتها، إذا ما استثنينا مدينة قم وكربلاء ومشهد! ولا أعلم اليوم بوجـود تـسعين رسالة عملية في العالم الإسلامي كلّه.

يقول الوالد: إنّه بالرغم من وجود العشرات من المراجع في النجف الأشرف في ذلك اليوم، وبالرغم من وجود المئات من أئمّة الجماعة من المتّقين والزهّاد، لكن كثيراً من الناس والعلماء لم يكونوا يطمئنّون إلاّ بالصلاة خلف الشيخ علي القمّي، لأنّه كان مسلّم العدالة عند الكلّ.

فلو كان بعض الناس يصلّون خلف فلان لكنّهم يستشكلون بالصلاة خلف فلان الآخر، وكان بعض آخر يُصلّي خلف الثاني ويستشكل بالصلاة خلف الأوّل، إلاّ أنّهم جميعاً كانوا يتّفقون على عدالة الشيخ علي القمّي ويطمئنّون بالائتمام به. فما أعظم التحوّل الذي حدث في حياة هذا الرجل حتى بلغ هذه الدرجة، بعد أن كان على ما سمعتم في شبابه!

- أمّا القصّة الأخرى من القصص التي تنقل عن الشيخ علي القمّي رحمه الله فهي أنّه أُصيب في أخريات عمره بمرض احتصار البول، وهو مرض مؤلم جدّاً وقد لازمه هذا المرض ـ كما ذكر لي بعض أبنائه ـ زهاء عشر سنوات حتى توفّي رحمه الله. يقول ولده: طيلة المدّة التي كنت معه لم أسمع منه كلمة «شكوى» أبداً، وكان إذا اشتدّ به الألم قال: «**لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم**» فكان ينفّس عن شدّة آلامه بذكر الله، ويأسى أن يصرف هذه الثواني من عمره في قول كلمة تنمّ عن ضجر أو جزع، ولا يستثمرها في ذكر الله عزّ وجلّ.

إنّ الإنسان إذا تألّم لا يمكنه إلاّ أن يقول عبائر تكشف عن مدى تألّمه، ولكن إذا ربّى نفسه تمكّن أن لا يقولها بل يقول بدلاً منها: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

لا شكّ أنّ التأوّه بنفسه ليس مذموماً بل ورد في الأحاديث أنّ المريض إذا تأوّه كُتب له فيه ثواب[1]، ولكن لا شكّ أيضاً أنّ قول: «لا إله إلاّ الله» أكثر ثواباً، إذاً لا ينبغي أن ننهى مريضاً من التأوّه، ولكن حبّذا أن يربّي نفسه بحيث يُهلّل الله ويَحمده ويُسبّحه ويُكبّره إذا نزل به مرض أو بلاء.

فالشيخ علي القمّي استطاع أن يغيّر نفسه حتى تحوّل ذلك التحوّل الذي جعل منه قدوة في عدالته وفي ذكره لله عزّ وجلّ.

---

(١) عن أبي اسحاق الخزاعي، عن أبيه، قال: دخلت مع أبي عبد الله عليه السلام على بعض مواليه يعوده، فرأيت الرجل يكثر من قول: آه. فقلت له: يا أخي، اذكر ربّك واستغث به!!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنّ «آه» اسم من أسماء الله عزّ وجلّ. فمن قال: آه، فقد استغاث بالله تبارك وتعالى**. معاني الأخبار للصدوق: ص٣٥٤، باب: معنى قول المريض: آه.

١. تقوية العلاقة مع الله

إذاً، فلنحاول من الآن أن نُدخل في عباداتنا روح التوجّه والصدق شيئاً فشيئاً، وذلك بأن نلتفت إلى معاني العبادة، فمثلاً: إذا وقفتَ بين يدي الله في الصلاة، وشرعت بقراءة سورة الفاتحة، فكّر في معاني مفردات السورة واستحضر مفاهيمها، ولا تدَع فكرك يهرب هنا وهناك، ولو حصل ذلك عُد به سريعاً ولا تدَعه يسرح، ولا تيأس لو خاتلك ذهنك مرّة أو مرّتين بل حتّى خمسين مرّة، واحرص على أن ترجعه الى حضيرته حتى يصبح حضور الذهن مَلَكة عندك، لتعي ما تقرأ وتتدبّر في المعاني، فإذا قلت: ﴿**إِيّاكَ نَعبُدُ**﴾ استحضرت في ذهنك أنّ العبادة لله تعالى وحده وأنّك في حال أدائها، وإذا قلت: ﴿**وَإيّاكَ نَستَعين**﴾ جدّدت استعانتك به في كلّ أمورك وخاصّة في عبادته.

ولا شكّ أنّ الإنسان العربي يفهم معاني هذه المفردات أفضل من غيره، لأنّها في لغته وعنده انطباع عنها، فكيف إذا كان من طلاّب العلوم الدينية وقد قرأ كتب النحو والصرف والبلاغة.

فهذا هو الأساس؛ قال تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾، والتوفيق من الله تعالى، وبمقدار تقوّي الرابطة بين الإنسان وبين الله تعالى يأتي التوفيق بنفس النسبة.

٢. ترويض النفس اساس التغيير

وعلى الإنسان أن يحرص على تقوية علاقته مع المجتمع؛ وذلك عبر الالتزام بالأخلاق الإسلامية كالتواضع والبِشر والكرم والعفو والرحمة وصلة الرحم.

إنّ هذه القيم الأخلاقية معروفة للجميع لاسيّما أهل العلم وهي موجودة

في المجتمع المتديّن بنسب متفاوتة، ولكن المطلوب تعميقها وترسيخها والاستزادة منها.

فمثلاً: حاوِل أن تخالف هواك في كلّ الأمور، فإن كنت لا ترغب في أمر ما رغم اعتقادك بصوابه، حاول أن تخضع له بكلّ رحابة صدر. وإن كنت مختلفاً مع صديقك وواجداً عليه، حاول أن تصله بزيارة أو بإلقاء التحيّة عليه كلّما لقيته. ولا تبتئس إن لم يقابلك بالمثل ما دمت قد أدّيت ما عليك. فإن كنت تريد أن تصبح عالِماً ومرشداً ينبغي أن تكون قدوة في الخُلق من حلم وكظم غيظ وما شابه، لا أن تثور بسرعة أو تتوتّر أعصابك لأتفه الأسباب.

تصرّف أنت بالنحو الصحيح واستفد من حياتك بصورة صحيحة ولا يهمّك بعد ذلك إن كان قد استفاد الآخرون منك ومن تعاملك معهم أم لا؛ فإنّ الله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[1]. ولا توجد عبارة أكثر صراحة من هذه الآية في لزوم ترويض النفس على الأخلاق الحميدة فإنّ كلمة «عليكم» اسم فعل بمعنى «الزموا». فإن بدأتَ بنفسك فربّما اهتدى العشرات بأسلوبك.

٣. الاهتمام بالكيف أكثر من الكم

أحد الطلبة كان يقول: لديّ اثنا عشر درساً في اليوم. فمثل هذا لا يتمكّن أن يستفيد من الجوانب الأخرى من حياته، ولا بإمكان غيره أن يستفيد منه في تلك الجوانب إلاّ أن يكون عبقرياً ولا يكون هذا الاّ لمن هو استثناء من الناس.

وعلى العكس من ذلك، نقل والدي رحمه الله أنّ أحد الطلبة كان يقول: لماذا

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

أنتم الطلبة تدرسون كلّ يوم من الصبح إلى الظهر ثم من العصر حتى الليل، وأنتم في حركة ودويّ مستمرّين، إنّ الأمر لا يتطلّب هذا المقدار، بل يكفي أن يكون لطالب العلم درس واحد أو درسان في اليوم ولا يلزم أيضاً أكثر من يومين أو ثلاثة في الأسبوع.

وهذا أيضاً لا يمكن أن يصل إلى نتيجة، فأيّ كاسب يكتفي بالذهاب إلى السوق ساعة أو ساعتين في يومين أو ثلاثة من الأسبوع فقط، ثم يصير تاجراً ويحصل على المال الوفير؟ إلاّ أن يكون تاجراً قد بلغ مرحلة يعتمد في عمله على عوامل وخطوط معيّنة، وهذا أيضاً لم يأت اعتباطاً بل لابدّ أنّه عمل في أوّل أمره ست عشرة أو ثماني عشرة ساعة في اليوم على مدار ستة أيام في الأسبوع على الأقلّ.

لذا، ينبغي لطالب العلم أن يوزّع الوقت بصورة مناسبة بين تحصيله العلمي وقضاء باقي احتياجاته، وليعلم أنّ الأمر المهمّ هو الكيف وليس الكمّ، وأعني بالكيف: الإتقان.

فلو درستم تاريخ حياة العظماء من العلماء كالشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي والمحقق الحلّي والعلاّمة الحلّي والسيد بحر العلوم والشيخ الأنصاري رحمهم الله لرأيتم أنّ اهتمامهم بالكيف ونوعية الدراسة وإتقانها كان أكثر من اهتمامهم بالكمّ.

فلو أنّك خصصتَ وقتاً لدراسة كتابين فقط في الفقه ولكن بإتقان، ستستفيد أكثر مما لو بذلته في دراسة عشرة كتب دون إتقان.

بل يمكن أن يقال لمَن يتقن كتابين تخصّصيين في الفقه أنّه حامل لفقه آل محمد صلى الله عليه وآله.

مقارنة مفيدة

المقارنة التالية تكشف لنا عن أهميّة الدقّة والإتقان وتفضيل الكيف على الكمّ.

المحقّق الحلّي والعلاّمة الحلّي كلاهما من أعاظم فقهاء المسلمين. ـ والمحقّق هو خال العلاّمة ـ ولهذين العلَمين كليهما كتب في الفقه. ولكن المحقّق الحلّي صبّ جهده في ثلاثة كتب هي «شرائع الإسلام» و«المختصر النافع» وهو تلخيص للشرائع نفسه، وكتاب «المعتبر» وهو فقه استدلاليّ شرحاً للمختصر النافع. أي أنّ الماتن نفسه قام بشرح كتابه، كما للمحقّق كتاب في أجوبة المسائل التي استُفتي فيها.

والآن عندما تنظرون إلى الدراسات الحوزوية تلاحظون أنّ الاستفادة من كتاب «شرائع الإسلام» للمحقّق الحلّي تفوق كثيراً الاستفادة من كلّ كتب ابن أخته العلاّمة الحلّي. فهناك المئات من الشروح على كتاب «شرائع الإسلام»، ولقد رأيتُ في مكتبة واحدة بقمّ أكثر من مئة شرح ـ بين مخطوط ومطبوع ـ على هذا الكتاب.

لا ننكر أهميّة كتب العلاّمة، فكلّها جيدة، وعلى بعضها شروح، ومن بينها كتابه «قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام»[١]، ولكن لا شروح «القواعد»

---

(١) كتاب فقهيّ كامل من كتاب الطهارة إلى كتاب الديات، وهو بحجم «الشرائع» تقريباً.

يُحكى: أنّ أحد مدارس طهران قد اشترط واقفها على طالب العلم الذي يُعطى حجرة فيها، أن يعنى بكتاب القواعد للعلاّمة الحلّي. أي يكون جزءاً من اهتماماته وضمن منهاجه سواءً درساً أو تدريساً أو مباحثة أو شرحاً.

وعندما سئل الواقف عن سبب اشتراطه هذا الشرط، قال: رأيت أنّ هذا الكتاب الجيد مهمل والطلبة كلهم متّجهون إلى الشرائع، فأحببت أن أروّج له ليكون كالشرائع.

وهكذا يأتي اليوم بعد مرور ستّمائة سنة أو أكثر ليروّج للقواعد عن طريق وقف مدرسة وإعطاء امتياز ساكنيها لمن يهتمّ بهذا الكتاب.

تبلغ شروح «الشرائع» ولا سلاسة «الشرائع» موجودة في كتاب «القواعد» ولا الالتزام بالفتاوى المتقنة الموجودة في «الشرائع» تجدها في «القواعد».

نستنتج مما تقدَّم أنّه يجب الاهتمام بكيفية الدرس، ولا نعني بذلك أن يكتفي الطالب بدروس قليلة ويترك سائر أوقاته هكذا هملاً بلا استثمار، بل المقصود الإتقان أكثر.

في التكرار إفادة

- هناك أبيات شعرية باللغة الفارسية في النحو تسمّى العوامل المنظومة.. حفظتها في الصغر وحيث إنّ حفظي لها كان حفظاً جيّداً، تراني إلى اليوم أتذكّرها رغم مرور أكثر من خمسين سنة عليها.
- يوصي الشهيد الثاني رحمه الله في كتابه «منية المريد» طلاّب العلوم الدينية أن يكرّروا الدرس سبع مرات. وأنا أضمّ صوتي لما أوصى به، وإن لم تقدروا أقول لكم: كرّروا كلّ درس أربع مرّات على الأقلّ، وعلى النحو التالي:

✓ مرة بمطالعته والتحضير له قبل طرحه من قِبل الأستاذ، ولو مطالعة إجمالية بحيث يعلق في الذهن ولو بنسبة خمسين بالمئة، فإنّ ذلك يوجب إعطاء الفكر حريّة أكثر لكي يتفرّغ للخمسين بالمئة الأخرى، بدلاً من أن يتوزّع خلال مدّة الدرس على كلّ المادّة. فما فُهم من خلال التحضير يمكن استسهال فهمه عند إلقاء المحاضرة، وما لم يفهم يمكن التركيز على محاولة فهمه بشكل جيّد.

✓ أمّا المرّة الثانية فبالحضور في الدرس مع اليقظة والمشاركة الفعّالة في النقاش والمحاورة المستمرَّين مع الأستاذ.

- ✓ المرة الثالثة بمراجعة الدرس الذي تلقّيته مرّة أو أكثر حتى تستوعبه.
- ✓ أمّا المرّة الرابعة فبالمواظبة على مباحثة مادّة الدرس مع زميل لك.

ينقل عن السيّد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي ـ صاحب العروة الوثقى ـ أنّه راجع كتاب «الجواهر» عدّة مرّات، وذلك أنّه كان يباحث الكتاب مع زميل له مرّتين في اليوم، فكانا يتباحثان صباحاً ـ مثلاً ـ ثمّ يبحثان الصفحة أو الصفحات نفسها مرّة ثانية عصر ذلك اليوم.

وكان السيّد يطالع المادّة نفسها مرّة قبل المباحثة الأولى، ومرّة بين المباحثتين، ومرّة بعد المباحثة الأخيرة.

أتدرون ماذا أثمرت هذه المطالعة الخماسية لكتاب الجواهر من قِبل السيد اليزدي رحمه الله؟ لقد أثمرت كتاب «العروة الوثقى» الذي قلّ أن تجد فقيهاً له رسالة عملية دون أن يكون له إلى جانبها تعليقة على العروة. هذا مع أنّ كتاب «العروة» ليس دورة كاملة في الفقه، بل ربّما لا يحتوي على أكثر من ربع مادّة الفقه، ففيه كتاب الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والخمس وحوالي عشرة بالمئة من كتاب الحجّ، ثم كتاب المضاربة، وشذرات من باقي الكتب الأخرى، فكتاب النكاح ـ مثلاً ـ لا يوجد منه سوى زهاء عشرة بالمئة، أمّا كتاب البيع فلم يتطرّق إليه، كما أنّ كتب المعاملات أغلبها غير موجودة وكذا الديات والقضاء، فربّما ثلاثة أرباع الفقه غير موجودة فيه، ومع ذلك لا ترى مرجعاً لم يعلّق أو يهمّش عليه حتى المختلفين مع صاحبه من الناحية السياسية منذ ذلك الزمان وحتّى اليوم، وما ذلك إلاّ لإتقانه.

وهكذا نلاحظ أنّ كلّ مرجع يموت تموت رسالته العملية معه وكذلك تعليقته على العروة الوثقى، بينما العروة الوثقى باقية يعلّق عليها العلماء رغم مرور هذه المدّة الزمنية على وفاة صاحبها، فتكون بذلك متميّزة عن سائر الرسائل العملية.

هذه نتيجة دراسة المواد العلميّة بكيفيّة متقنة. أمّا القراءة العابرة فلا تنتج شيئاً من هذا القبيل.

قد يتعب الطالب نفسه أربع سنوات في المباحثة في كتاب الجواهر ولكن لا تشكّل له سوى خلفية فقهية، أمّا تلك الاستفادة التي حصل عليها السيّد اليزدي فلا يمكن تحصيلها إلاّ بذلك التكرار قبل المباحثة وبعدها مع الإتقان.

٤. الاهتمام بالخطابة والكتابة

على طلاّب العلوم الدينية أن يهتمّوا بهذين البعدين المهمّين مبكّراً. فكلّ الأنبياء والقادة والمصلحين يتمتّعون بموهبة الخطابة، كما أنّك قلّما تجد عالماً مبرّزاً لم يعنَ بالكتابة منذ شبابه. فالإنسان في شبابه أكثر قدرة على التركيز، والمجال مفتوح أمامه أكثر، والمشاكل التي يعاني منها أقلّ في الغالب، فغير المتزوّج مشاكله أقلّ من المتزوّج، والمتزوّج أقلّ مشكلة ممن ليس عنده أولاد، وذو الولد الواحد مسؤوليته أقلّ من ذي الولدين.

وهكذا كلّما يتقدّم الإنسان بالعمر تقلّ الفرص أمامه وتكون مسؤولياته أكثر، ولهذا ينبغي المبادرة إلى تنمية هذين البعدين ـ الخطابة والكتابة ـ قبل فوات الأوان. وهاهنا ثلاث نقاط جديرة بالاهتمام:

أ. تقبّل النقد البنّاء

بعض الأشخاص يستاء لو وُجّه نقدٌ لعمله أو إنتاجه، كما لو نُبّه على وجود أخطاء في كتابه أو أمور غير سائغة في خطابته، وبعض آخر وإن كان يتقبّل النقد إلاّ أنّه لا يأخذ به في تنمية قدراته، وهناك طائفة ثالثة تطالب الآخرين بالنقد وترحّب به من أجل تطوير عملها.

يُنقل أنّ صاحب «الجواهر»[1] رحمه الله كان يطلب من تلاميذه أن يذكروا له كلّ نقد أو إشكال يأتي إلى أذهانهم على المادّة التي يلقيها عليهم في درس الخارج يومياً، ولهذا كانت دروسه تتميّز بالفاعلية والنشاط، فكان من طلاّبه من يناقش في سند الرواية التي ذكرها أستاذه، وآخر يستفسر عن صحّة اللفظ، وثالث يعترض على مداليله، ورابع يشكّك في الإجماع المدّعى مثلاً، وبهذا الأسلوب كان الشيخ الأستاذ يجمع علوم الطلبة إلى علمه.

وفي أحد الأيام لاحظ أنّ أحداً من طلابه لم يستشكل في الدرس الذي ألقاه، فتعجّب وقال لهم: لم أسمع اليوم مَن يوجّه إشكالاً أو نحوه، فهل كان ما ذكرناه اليوم وحياً منزّلاً أم ماذا؟!

فأجابه بعض الطلاب: كلا، ولكنا لم نطالع الدرس ونحضّر له أمس بسبب ارتفاع درجة الحرارة وكثرة الهوامّ والحشرات؛ لذا لا علم لنا بمدى ثبوت ما ذكرت اليوم.

لم تكن كلّ الإشكالات التي توجّه لصاحب الجواهر صحيحة، لكن حتى لو كان بعضها ـ مهما قلّ ـ صحيحاً، فإنّه لا يخلو من فائدة للشيخ.

إذاً حريّ بالإنسان أن يسمح للآخرين في نقده، ولا شك أنّه يوجب استفادته من وجهات النظر الصحيحة المطروحة عليه، وذلك من خلال تنمية قدراته والتقدّم في أعماله.

ب. البحث عن مدرّسين جيدين

إنّ الاعتماد على الأستاذ والاستفادة من خبرته وإرشاداته والتدرّب لديه، يوجب الوصول إلى الهدف بصورة أفضل وأسرع. وينبغي عدم اليأس بسرعة

(١) هو: الشيخ محمد حسن النجفي، المتوفّى سنة ١٢٦٦ هـ.

من الحصول على أستاذ جيّد، فإنّه: مَن جدّ وجد.

ج. حفظ النصوص

فإنّ حفظ الأبيات الشعرية والمنظومات القصائدية في علم من العلوم الدراسيّة، فضلاً عن الخطابة والتأليف يُبقي ذكر المطالب في الذهن أكثر، فإنّك حتى لو درست كتاب الشرائع ـ مثلاً ـ ودرّسته مرّات، قد تنسى قسماً كبيراً منه بعد مرور عشرين سنة، أمّا إذا حفظت منظومة فقهية إلى جانب ذلك، فإنّ ما يبقى في الذهن سيكون أدوم، وهكذا الحال مع الموادّ الأخرى كألفية ابن مالك في النحو، وغيرها.

أعرف مرجعاً بارزاً، بلغ هذه المرتبة بفضل حفظه المتقن للمسائل الشرعية، فهو ـ مثلاً ـ يحفظ أحكام الإرث وطبقاتها والمقادير والنسب التي يخصّ كلاًّ منها، وعدد الحاجبين ومَن هم، رغم أنّها متشعّبة كثيراً.. وهكذا الحال مع كلّ الفروع الفقهية حتى ذات الفروع والتشعبات الكثيرة كالزكاة والحجّ.

فحفظ أمّهات المسائل والأصول والخطوط العامّة حفظاً جيّداً بحيث يمكن للمرء استحضارها متى شاء، لا بدّ أن ذلك سيعينه على أمره كثيراً.

على أيّ حال: إنّ ما ذُكر من هذه المطالب، إذا عمل بها طالب العلم، استطاع ـ رغم كلّ المشاكل ـ أن يحصل على نتائج في الدنيا والآخرة، وعلى رأس تلك الأمور ذكر الله تعالى باللسان والقلب، أعني التوجّه الدائم إلى الله سبحانه وتعالى؛ ليطمئنّ بذكره قلبه ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[١].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٧)

التبليغ

قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً**﴾[1].

لاشكّ أنّ من أشرف المهامّ في حياة الإنسان هي مهمّة التبليغ؛ لأنها مهمّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يكلّفهم بمهمّة أخرى كما كلّفهم بالتبليغ. ومن ثم إذا استطاع الإنسان أن يكون مبلّغاً لدين الله، فهذا يعني أنّه وضع أقدامه في موضع كان قد سبقه فيه الأنبياء والرّسل عليهم السلام.

القرآن والتبليغ

هناك إلفاتة لطيفة في القرآن الكريم تكشف عن أهمية التبليغ أذكرها بمقدّمة: إنّ الناس ـ كما نلاحظ ـ مترتّبون في الأمور العامّة وفق سلسلة من المراتب يتمّ وفقها تبليغ الأوامر من الأعلى وصولاً إلى مرحلة التنفيذ في المراتب الدنيا. أي أنّ الأعلى يأمر الذي هو دونه، وهذا يأمر الأدنى منه، والأدنى فالأدنى، حتى تنتهي سلسلة المراتب إلى عوامل التنفيذ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

فنرى في الحكومات ـ مثلاً ـ أنّ هناك الرئيس ثم يأتي الوزراء في المرتبة الثانية، فالمدراء العامّون تحت إشرافهم، فمدراء الأقسام حتى ينتهي هذا التسلسل الوظيفي عند مَن يتّصل بعامّة الناس مباشرة. فإذا أصدر الحاكم الأعلى أو الرئيس حكماً فإنّه لا يأمر وزيره بأن يبلّغه إلى عامّة الناس مباشرة، بل يأمره بتنفيذ الحكم وحسب. فيقوم الوزير بإصدار الأمر إلى مَن هم أدنى منه درجة، وهؤلاء بدورهم لا ينزلون إلى الشارع مباشرة بل يجمعون مَن تحت سلطتهم ويوجّهونهم بالحكم، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى من هم في المرتبة الأدنى، فقد يقعون في المرتبة العاشرة من سلسلة المراتب أو أدنى. وهذا بطبيعته يعدّ تدرجاً وضعياً في كلّ حكم عامّ أو دائرة وعلاقات، وهو ما نلاحظه ونراه في كلّ الحكومات والأنظمة القائمة.

أمّا الإلفاتة الموجودة في القرآن فهي أنّه عندما يتوجّه الخطاب للنبيّ الأكرم بالتبليغ، يأمره الله تعالى أن يقوم هو صلى الله عليه وآله به مباشرة وبلا واسطة مع عامّة الناس. يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيّه الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ...**﴾[1]، و﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ...**﴾[2]، و﴿**قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون...**﴾[3]، و﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾[4]، وهكذا؛ وهذا يعني المباشرة في التبليغ.

فمع أنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، وإله كلّ شيء وهو ربّ الأرباب

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

(٤) سورة الكافرون، الآية: ١.

وسيّد السادة، ومع أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو أشرف المخلوقات وأفضلها وأعلاها، إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يقوم بمخاطبة كلّ الطبقات والمستويات من الناس حتى أدناها.

الهدف هو التبليغ

وليعلم الإخوة الذين ينطلقون للتبليغ والإرشاد وهداية الناس في المدن والبلاد الأخرى والقرى والأرياف في شهر رمضان وغيره، أنّ الهدف المقدّس والغاية الأسمى من دراستهم ومن كلّ ما تلقّوه من علوم دينية في الحوزات هو التبليغ، وحسب الاصطلاح العلمي: إنّ كلّ ما في الحوزات العلمية يعدّ بمثابة مقدّمات، والتبليغ هو ذو المقدّمة.

صحيح أنّ أدوار التبليغ ووسائله قد تختلف باختلاف الحاضرين وتنوّعهم؛ فالخطيب إذا تحدّث إلى جمهور من المثقّفين تحدّث بأسلوب يختلف عمّا إذا كان حديثه إلى أناس أمّيين، لكن يبقى التبليغ يحظى بالأهميّة في كلّ حالاته كما تفيدنا تلك الإلفاتة الرائعة في القرآن الكريم.

أهمية التبليغ في سيرة النبي وأهل بيته

هناك نقطة وإلفاتة أخرى تبيّن أهمية التبليغ نكتشفها من خلال سيرة رسول الله والأئمّة من أهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فكلّنا يعلم مدى اشتياق النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله للعبادة والالتذاذ بها. فلقد كان صلى الله عليه وآله يشتاق إلى العبادة أكثر من أيّ إنسان آخر، ويلتذّ بها ما لا يلتذّ بأيّ عمل. فهو أعرف الناس بالله تعالى وأفضل مَن عرف الله عزّ وجل. ليس هذا فحسب بل كانت عبادته وذكره ودعاءه وتوجّهه إلى الله تعالى، تفوق في الفضل عبادة الناس كلّهم.

ولكنّا نرى أنّ هذا الرسول العابد الذي أبلتْه العبادة حتى خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿**طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[1] يرجّح في كثير من الأحيان التجوّل في الشوارع والطرقات أو المساجد أو البيوت للتبليغ وهداية الناس، على العبادات المستحبّة ـ في حقّه ـ حتى لقد استغلّ صلى الله عليه وآله معظم وقته بعد البعثة بالتبليغ. ولقد كان يبلّغ في وسط أناس اُميّين بلغ الحال ببعضهم لأن يمدّ رجليه أويستلقي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول له: يا محمد حدّثنا![2]

كان الرسول صلى الله عليه وآله يصرف أوقاته مع أمثال هؤلاء، كما كان يصرفها مع أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين سلام الله عليهم، ومع أمثال أبي ذرّ وعمّار، ممّن تقع على عاتقهم مسؤولية هداية الأمّة، وكان لهم شطر كبير من وقته صلى الله عليه وآله.

إنّ تبليغاً كهذا هو الذي صنع رجالاً عظاماً كأبي ذرّ وعمّار والمقداد وغيرهم من خيار الصحابة، فمن هذا الوسط تخرّج هؤلاء الأخيار والمؤمنون. وهذا يعني أنّ على المبلّغ ألاّ يقتصِر تبليغه على فئة معيّنة من الناس كالمثقّفين مثلاً، دون غيرهم، بل عليه أن ينزل إلى كلّ فئات المجتمع وطبقاته.

صحيح أنّ الواجب يفرض على الإنسان أن يستفيد من حياته ووقته أحسن الاستفادة وبأقصى ما يستطيع، ولكن قد يأتي يوم يصبح فيه هذا الأمّي أحد العظماء، أو أنّ ذلك المثقّف ـ الذي يبدو مهمّاً في نظر الداعية اليوم من الناحية الاجتماعية أو العلمية، ويركّز عليه في تبليغه أكثر من غيره ـ قد لا ينفع في شيء، وربما ارتحل عن الدنيا قبل أن يقدّم شيئاً ما لينفع به الآخرين.

(١) سورة طه، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٢) راجع تفسير الميزان للطباطبائي: ج١٨ ص٣١٠، مورد تفسير سورة الحجرات، الآية: ٤.

فما دام المبلّغ لا يدري أيّة أرض ستثمر فيها الكلمة الطيّبة أكثر، لذا عليه أن يسعى لبذر الكلمة الطيّبة في كلّ مكان ومع كلّ إنسان، وأن يقتدي برسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك، فلقد كان صلى الله عليه وآله يغتنم كلّ الفرص للتبليغ ويدع التفرّغ للعبادات المستحبّة إلى الأوقات التي لا يمكن التبليغ فيها كمنتصف الليل مثلاً، ليخلو فيها مع ربّه يستمدّ منه العون والتأييد ويناجيه بقوله: «**إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً**»[١].

أثر التبليغ على بلدان بأكملها

إنّ للتبليغ أهميةً كبرى وتأثيراً عظيماً. فإيران والعراق اللتان تعدّان اليوم مواليتين لأهل البيت عليهم السلام بأغلبية ساحقة، لم تكونا كذلك في السابق، بل تحوّلتا إليه بفضل التبليغ الذي نهض به رجال أفذاذ نذروا أنفسهم له وعقدوا العزم عليه.

ينقل المحدّث النوري رضوان الله عليه في خاتمة «مستدرك الوسائل» أنّ المرحوم السيّد مهدي القزويني ـ من علماء الشيعة ومراجعها، نزيل الحلّة في العراق، وزميل الشيخ مرتضى الأنصاري رحمهما الله ـ أخذ في أواخر حياته بالتبليغ وهدَى عشائر كانت برمّتها غير موالية لأهل البيت سلام الله عليهم؛ إذ كان يذهب إلى إحدى العشائر ويمكث في مضيفها سنة كاملة يخالطهم فيها ويصلّي بهم ويحكي لهم قصصاً حتى يغيّر معظمهم ويجعلهم موالين لأهل البيت سلام الله عليهم ثم يغادرهم إلى عشيرة ثانية ويمكث فيهم سنة أو أكثر حتى يهديهم الله إلى الحقّ وهكذا... حتى اهتدى على يديه زهاء مئة ألف إنسان.

---

(١) الكافي للكليني: ج٢ ص٥٢٤ ح١٠.

فبعزم أمثال هذا الرجل اهتدت شعوب، وصار العراق وإيران دولتين ذاتي أغلبية شيعية، وإلاّ فإنّ إيران ـ مثلاً ـ كانت على مذهب أهل السنّة والجماعة حتى أنجبت زهاء ثمانين في المئة من كبار علماء العامّة ـ الذين ليسوا على خطّ أهل البيت ـ ثم تغيّر الوضع بفضل التبليغ حتى آل الأمر إلى أن تنجب إيران الألوف من العلماء المسلمين السائرين على خطّ أهل البيت سلام الله عليهم.

نعم، لقد كانت إيران على مذهب العامّة، وكانت إحدى مدنها متعصّبة لدرجة كبيرة حتى أنّه عندما منع عمر بن عبد العزيز سبّ الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه من على المنابر[١] جاء أهل تلك المدينة إلى واليهم وقالوا له: إنّنا على استعداد لدفع الضرائب غير المستحقّة على أن يسمح لنا بالاستمرار في سبّ علي بن أبي طالب لمدّة ستّة أشهر أخرى.

فهكذا كانت بعض المدن الإيرانية في يوم من الأيام.. ولكن أتدرون أنّ تلك المدينة نفسها تحوّلت تحوّلاً عظيماً بحيث احتضنت في عصر مّا أكبر حوزة علمية للشيعة لعشرات السنين، أي انقلبت من مدينة معادية لأهل البيت إلى مدينة منجبة للعلماء السائرين على نهج أهل البيت سلام الله عليهم والملايين من محبّيهم.

ولو تفحّصت في التاريخ والسير، وبحثت في أنساب كثير من المؤمنين وأجدادهم لرأيت أنّ كثيراً منهم ينحدر من أجداد لم يكونوا على خطّ أهل البيت سلام الله عليهم ولكنهم تحوّلوا إليه بفضل التبليغ والإرشاد، واستمرّ الخطّ في أولادهم وأعقابهم إلى يومنا هذا. وأنا شخصياً أعرف أشخاصاً من أهل العلم

---

(١) وهي بدعة ابتدعها معاوية بن أبي سفيان بعد استشهاد أمير المؤمنين سلام الله عليه وصيّرها سنّة ألزم بها رقاب الناس وأشربهم زعافها.

والوعّاظ وأئمّة الجماعة لم يكن أجدادهم موالين لأهل البيت سلام الله عليهم.

نقل لي أحدهم أنّ جدّه السادس لم يكن موالياً لأهل البيت سلام الله عليهم، ثم كان من جملة الذين اهتدوا على يد المرحوم السيّد مهدي القزويني فصار من الموالين والمؤمنين وعلى ذلك جرى نسله وذرّيته. وهكذا نشهد اليوم جماعة من المبلّغين للمذهب من سلالة الذين هداهم الله على يد السيّد القزويني رحمه الله.

أفضلية التبليغ

من المستحبّات الأكيدة الصلاة في أوّل الوقت. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حلّ وقت الصلاة انقطع إليها ولم يعبأ بشيء دونها. يُنقل عن عائشة أنه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه[1].

هب أنّ لك صديقاً عزيزاً تطلب لقاءه كلّ الطلب، ولم تره منذ سنوات، وقيل لك فجأة إنّه ينتظرك الآن على الباب، فكيف تسرع للقائه تاركاً كلّ حديث أو عمل؛ فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حضرت الصلاة ترك كلّ شيء متّجهاً للقاء الله تعالى.

ولا يستساغ تفويت فضيلة الصلاة لوقتها إلاّ عند الضرورة الأهم.

يروى عن داود الصَّرمي أنّه قال: كنت عند أبي الحسن الثالث سلام الله عليه يوماً فجلس يحدّث حتى غابت الشمس، ثم دعا بشمع وهو جالس يتحدّث. فلما خرجت من البيت نظرت وقد غاب الشفق قبل أن يصلّي المغرب ثم

---

(١) مستدرك الوسائل للنوري: ج٤ ص١٠٠ ب٢، تأكّد استحباب الخشوع في الصلاة، واستحضار عظمة الله، ح١٧.

دعا بالماء فتوضّأ وصلّى[1]. مما يبدو أنّ الإمام عليه السلام كان يتحدّث مع بعض المتأثّرين بالتيارات المنحرفة والتي انتشرت في عصره، فاستمرّ على عمله التبليغي حتى فات وقت الفضيلة. وهذا يعني أنّ التبليغ مقدّم على سائر المستحبّات.

وهكذا فيما إذا اتّفقت ليلة القدر أو ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان أو المواسم الأخرى التي تكثر فيها الأدعية والمستحبّات، وزاحمت التبليغ فالأرجحية تكون للتبليغ.

مثلاً: في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان يستحبّ قراءة سورة القدر ألف مرّة، وصلاة مئة وثلاثين ركعة ـ من الألف ركعة في كلّ شهر رمضان ـ وتستحبّ أمور أخرى كثيرة، ولكن إذا تزاحمت المستحبّات مع التبليغ وأردت الحصول على ثواب أكثر فقدّم التبليغ لأنّ الأنبياء والأئمّة سلام الله عليهم كانوا يعملون كذلك.

ويمكنك القيام بالأمرين معاً، فمثلاً: إذا كان هناك شباب مستعدّون للتلقّي والهداية والتوجّه للدعاء ـ وكانت ليلة القدر ـ أمكنك أن تشترك معهم في قراءة دعاء الجوشن الكبير ورفع المصاحف... فهذا نوع من التبليغ العملي وهو مطلوب أيضاً. ولكن إذا دار الأمر بين أن تنهض بمهمّة التبليغ أو تخلو بنفسك وتقرأ سورة القدر ألف مرّة أو تصلّي المئة والثلاثين ركعة المستحبّة وما أشبه، فالتبليغ لاشكّ يكون أفضل في التقديم. والعارف يحاول الأخذ بالأفضل دائماً.

---

(١) وسائل الشيعة، ج٤ ص١٩٦، باب جواز تأخير المغرب حتى يغيب الشفق، بل بعده لعذر، وكراهته لغير عذر، ح١٠.

التأهب للتبليغ

فعلى الإخوة الذين يتوجّهون إلى التبليغ أن يعلموا أوّلاً أنّ مهمّتهم هي مهمّة الأنبياء عليهم السلام الذين صرفوا معظم وقتهم من أجل إرساء دعائم التبليغ.

كما عليهم أن يتهيّأوا للأمر وللأسئلة المتنوّعة التي قد يواجَهون بها، وألاّ ينزعجوا من الأسئلة الساذجة بل حتى السفيهة التي قد يواجهون بها أحياناً، بل عليهم أن يفتحوا صدورهم للناس، ويعلموا أنّه ليس كلّ الناس على حدٍّ سواء.

جاءني يوماً أحد المبلّغين وقال: لقد سُئلت اليوم أغرب مسألة. قلت: وما هي؟ قال: كلّ شيء فكّرت فيه إلاّ هذا السؤال. قلت: وما هو؟ قال: جاءني أحد الناس وسألني عن أمّ بعض الأصحاب، ما اسمها؟ فقلت له: دعني أراجع المصادر، ثم عدت إليه وأجبته.

صحيح أنّ معرفة اسم أمّ فلان الصحابيّ ليس من أصول الدين ولا من فروعه ولا من الأخلاقيات ولا من آداب الإسلام ولا ولا... إلا أنّ المبلّغ ينبغي أن يكون رحب الصدر حليماً. فلا فائدة في علم دون حلم، بل قد يكون العلم وبالاً على صاحبه ـ لا سمح الله ـ ونحن نقول في الدعاء: «كريم حليم ذو أناة»[1].

لا تردّ أحداً مهما كان سؤاله، بل استقبل الجميع، واحرص على أن تجيب كلاًّ بمستوى عقله.

وإذا كان الأصل في أعمالنا الاقتداء بالأئمّة المعصومين سلام الله عليهم وأنّ المتقدّم لهم مارق والمتأخّر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق[2] ـ كما نقرأ في

(١) بحار الأنوار، ج٣٧ ص٢٠٤، نصّ خطبة النبيّ صلى الله عليه وآله في يوم الغدير.
(٢) اشارة لفقرة من فقرات الزيارة الجامعة الكبيرة.

أدعية أيّام شهر شعبان بعد الصلوات – فلنفتح صدورنا إذاً لكل الناس ونشجّعهم على أن يسألوا عما يختلج في صدورهم وما يدور في أذهانهم، فهكذا كانت سيرة النبي الأعظم والأئمّة المعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم.

كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم

إنّ لأسلوب المبلّغ وسلوكه أكبر الأثر في التبليغ. فمن الطبيعي أن يتناسب تأثّر الناس بنا مع أعمالنا وتصرّفاتنا وصدقنا ومطابقة عملنا لقولنا.

وليكن تعاملنا حتى مع أضعف الناس علماً وإيماناً بنحو لا يترك لديه انطباعاً سيئاً عنّا. قد لا يكون الإنسان متكبّراً ولكن هذا وحده لا يكفي، بل ينبغي أن لا يترك انطباعاً يوحي بذلك أيضاً. فإنّ لطلاقة الوجه والبشر والتواضع كما لجمال التعبير وحسن الاستماع وهكذا الحلم أثراً كبيراً في نفوس الناس يفوق تأثير الأقوال التي تنطلق عبر اللسان، وكما في المرويّ عن أبي عبد الله سلام الله عليه: «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم**»[١].

صفات المبلّغ

صحيح أنّه، ينبغي للمبلّغ أن يكون بشّاً طلق الوجه، ولكن هذا لا يعني أن يضحك دائماً ويقهقه لأتفه الأسباب، لأنّه كما ينبغي للمبلّغ أن لا يكون عبوساً، كذلك ينبغي له أيضاً أن يكون وقوراً ولا يكون مبتذلاً. فلو أنّ شخصاً عاميّاً استخدم في عبارته إحدى العبارات السوقية، فلا تقطّب وجهك أمامه فينفضّ من حولك، ولا تشترك معه وتضحك ضحكة طويلة وعريضة فينقلب

---

(١) الكافي: ج٢ ص٧٨ ح١٤.

مجلسك إلى نادٍ يُتبارى فيه بإطلاق مثل هذا النوع من الكلمات غير اللائقة.

حاول أن تنسجم مع كلّ مَن يوجّه إليك سؤالاً، فربّ شخص لا يكون له شأن أو ثقافة يهديه الله تعالى على يديك، بل ربّما يأتي يوم ترى مسجداً أو مدرسة دينية فيها حوزة علمية تخرّج منها علماء يكون قد أسّسها ذلك الشخص الذي كانت هدايته على يديك.

وكما قلت آنفاً فالعديد من العلماء والأخيار الذين كانوا ينحدرون من أصول غير موالية لأهل البيت سلام الله عليهم أوغير مؤمنة قد هداهم الله فأصبحوا اليوم نجوماً في سماء العقيدة والإيمان؛ ومن الأمثلة على ذلك أحد علمائنا القدامى الذين يفخر الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه بالتتلمذ على يديه عدّة سنوات، قيل: إنّ جدّه كان شخصاً غير لائق، ولكن ابنه هداه الله على يد أحد المبلّغين، ورزق بولد صار فيما بعد أحد المراجع والعلماء الكبار، فكتابه الفقهي مازال يحظى بأهميّة بالغة في الأوساط العلميّة. فقد اُلّفت بعده الكثير من الكتب من قِبل علمائنا كالشيخ الأنصاري والآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.. وبعده جاء الشيخ محمد حسين الأصفهاني (صاحب الفصول) وكان معاصراً للمحقق الميرزا أبي القاسم بن الحسن الشفتي القمّي (صاحب القوانين) ومازال كتابه في القمّة.

فلو جاء إليكم شخص وكان أبوه ضالاً أو ظالماً في حياته ثم مات أو قُتل، فلا ترفضوا استقباله فلعلّه يهتدي على أيديكم. فإنّه لم يُسمع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طرد أحداً أبداً، بل حتى وحشيّ قاتل حمزة لم يزد أن قال صلى الله عليه وآله له: «**غيّب وجهك عنّي**»[1].

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان: ج٣ ص٢٣١.

الخلاصة

حاولوا أن تستفيدوا من التبليغ بالأسلوب والقول جميعاً لكي تحصلوا على نتائج جيّدة. ولا تنسوا الإخلاص منذ الآن؛ فإنّ الشيطان قد يأتي أحدكم ويقول له: إذا ما أصبحتَ مبلّغاً جيّداً ونجحت في عملك فسيصبح لك مريدون مخلصون يقبّلون يديك، ويرفعون الصلوات عند قدومك.

نعم، ربّما سيكون ذلك لو نجح حقّاً، ولكن لا ينبغي له أن يستحضر هذا المعنى في ذهنه أبداً، لأنّ الشيطان يحاول أن يقحم هذا الهاجس بأن يجعله كهدف في الذهن، لذا فليحاول أن يزيحه ليربح.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا جميعاً لما هو المطلوب ولما هو مطابق لسيرة الأنبياء وأهل البيت سلام الله عليهم أجمعين.

(٨)

الإنفاق وتربية النفس

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

الإنفاق الذي يربي النفس

غاية الأخلاق تتلخّص في مسألة واحدة وهي تربية النفس وإصلاحها، وهي من أعقد المسائل وأصعبها، لأنّ كثيراً من الناس قد ينجحون في مسائل صعبة ولا ينجحون في هذه المسألة، بل يمكن القول إنّها ركيزة أساسية ضمن ركائز الهدف من خلق الله تعالى للكون والحياة والإنسان وبعث الرسل والأنبياء وجعل الأوصياء؛ ولهذا نلاحظ اهتمام القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في الغالب في الدعوة إلى تحقيقها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

إنّ الإنسان إذا أنفق الرديء أو ما فاض من ماله فهو وإن كان إنفاقاً لبعض المال وقد ينفع من أنفق عليه، غير أنّه لا يمكن أن يصل بصاحبه إلى ساحل البرّ والإحسان، بينما لو كان إنفاق الإنسان ممّا يحبّ ولا يستغني عنه، فهذا بعينه هو الذي يربّي النفس ليصل بها إلى ما تنشده الآية الكريمة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

إنّ الله لا يحتاج إلى الإنفاق ولا إلى المنفق، لأنّه تعالى قادر على إغناء الناس فلا يكون فقير واحد محتاج للإنفاق، ولكنّه سبحانه جعل هناك فقيراً وآخر غنيّاً، ومحتاجاً ومنفقاً، لكي يكون هناك امتحان وتربية.

ولا شكّ أنّ هذه التربية لا تتحقّق فيما لو كان هناك فقير جائع وأعطيتَه أرغفةً من الخبز لا تحتاج إليها، وإن كان هذا إنفاقاً أيضاً ويعدّ عملاً صالحاً تثاب عليه، ولكن إن استطعت أن تعطيه أرغفة الخبز مع حاجتك إليها فهذا يعني أنّك بلغت مرحلة عالية من تربية النفس. قال الله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[1] أي إنّهم يُطعمون الطعام مع حبّهم له ـ بناءً على بعض التفاسير التي تُرجع الضمير في «حبّه» إلى الطعام[2] ـ.

وهذا لا يتحقّق من خلال تقديم الطعام الزائد عن الحاجة الذي لا تجد النفس رغبة فيه، بل لابدّ أن يكون الإنسان محتاجاً لذلك الطعام الذي يقدّمه وراغباً فيه ومع ذلك يقدّمه لغيره، وهذه الحالة هي التي تساهم في تربية النفس وتُعَدّ من الفضائل؛ لأنّ المراد من الفضائل والأخلاق تربية الإنسان نفسه، وأن يكون هو القائد لها المسيطر عليها وليس العكس.

إن السيطرة على النفس تحتاج إلى ترويض وتمرين قد يستغرق عقوداً من السنين. وما من أحد غالباً إلاّ ويحبّ أن يكون ذا أخلاق محمودة، وأن يكون مالكاً لزمام نفسه، وأن يكون هو المسيِّر لها لا المسيَّر من قبلها، وإنّ أغلب الناس لا يحبّ أن يكون عبداً لشهواته. فكلّ إنسان يحبّ أن يكون صالحاً إلاّ القليل من ذوي النفوس السيّئة، والكثير قد يتصوّر أنّ بلوغ هذا الأمر شيء سهل وأنّه لا يحتاج إلى مثابرة وترويض؛ مع أنّه أصعب وأعمق

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين للحويزي: ج٤ ص٣٠، مورد تفسير سورة الدهر، الآية ٨.

شيء ولا ينال بسهولة. هذا ما يدلّ عليه التركيز المستمرّ من الآيات والأحاديث على مسألة تربية النفس، والإرشاد إلى كيفيتها.

الأشق على النفس أنفع

روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**والله ما عرض لعليّ عليه السلام أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلاّ عمل بأشدّهما وأشقّهما عليه**»[١].

فمع أنّ كلا العملين فيهما مرضاة الله تعالى، إلاّ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يختار الأشقّ؛ لأنّ تربية النفس تكون في اختيار الشيء الأصعب.

قد لا يُقصد بالأشقّ هنا الأشقّ على البدن فقط، بل المقصود به الأشقّ روحياً أيضاً، فإنّ الإنسان لا يحسّ أحياناً بالمشقّة البدنية بسب راحة الروح، ومثاله السّهَر، فقد يكون شاقّاً بدنياً على مَن اعتاد أن ينام الليل ـ كما هو حال أغلب الناس ـ ولكنّه روحيّاً لا يعود كذلك بالنسبة لمن حضر عنده صديق حميم أو ذو رحم قريب بعد غياب وفراق طويل، فإنّ مثل هذا الإنسان قد لا يأتيه النوم أصلاً لأنّ الروح لا تستصعب السهر في هذه الحال، بل لا تشعر به لأنّها تعيش الأُنس بلقاء الحبيب الغائب. إذاً عمدة المقصود من الأشقّ ما هو أشقّ على الروح، وهو ما يربّي الإنسان ويقرّبه إلى الله عزّ وجلّ أكثر.

إنّ عامل البناء الذي يتقاضى أجراً مضاعفاً لقاء عمله في اليوم الممطر مثلاً، سيشعر بالأسف إذا فاته العمل في ذلك اليوم؛ لأنّه سيخسر أكثر مما لو تغيّب عن العمل في يوم عادي. ولو قيل له: ينبغي أن تكون فرحاً لأنّك تخلّصت من عناء العمل في يوم ممطر. لقال في الجواب: ولكنّي فوتُّ أجراً مضاعفاً كنت سأحصل عليه لو كنت أعمل في هذا اليوم.

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج٤ ص١١٠.

والحالة نفسها تصدق على العامل في سبيل الله، فإنّ المؤمن الحقيقي يبحث عن أشقّ الأعمال المحبوبة لله تعالى لينال قربه وأجره أكثر، و كما في الحديث: فإنّ «**ثواب العمل على قدر المشقّة فيه**»[١].

أفضلية الإنفاق على الأرحام

ولعلّ هذا أحد أسباب تأكيد الأحاديث بأنّ الإنفاق على الوالدين أفضل من الإنفاق على سائر الأرحام، وأنّ الإنفاق على الأرحام أفضل من الإنفاق على غيرهم، لأنّ أقارب الشخص ـ عادة ـ لا يستعظمونه إذا أنفق عليهم لأنّهم يعرفون في الغالب حدود قدرته المالية، فلو أنّ شخصاً دخله الشهري ألف دينار أعطى عشرة دنانير لقريب له محتاج فإنّ عطيته ستكون محتقرة وربما اعتبرها القريب إهانة لمعرفته المستوى المالي لقريبه، بينما لو أعطى ديناراً واحداً لمحتاج غريب فإنّ عطيته ستقع موقع الرضا والإعجاب من المحتاج لأنّه لا يعرف شيئاً عن مستوى المعطي، ولا يتوقّع منه المزيد.

هذا مضافاً إلى أنّ المنفِق قد يقابَل بالجفاء من قريبه لو أنفق عليه، لأنّ الإنسان يشعر في العادة بتصاغر أمام المنفق عليه، وهذا الشعور يكون مضاعفاً إذا كان المنفِق قريباً للإنسان؛ فإنّه قد يتألّم ويغمره شعور بالضعة والحرمان وربما يندب حظّه قائلاً: لماذا أنا فقير محتاج، وفلان الذي هو من أقربائي غنيّ؟ ومن ثم يلجأ إلى الجفاء في محاولة لإطفاء نائرة تألّمه.

ومن الواضح أنّه تزداد الصعوبة عندما يكون الإنفاق على الوالدين، فإنّ توقّعهما ـ ولا شكّ ـ من ولدهما أكثر، خاصّة إذا كانا على اطّلاع بمستواه

---

(١) عيون الحكم والمواعظ للواسطي: ص٢١٨ ب٤ ف٣.

المالي الحقيقي؛ لأنّهما يعتقدان أنّ ولدهما وكلّ ما يملك هو ملك لهما[١]، وأنّ كلّ ما يقدّمه لهما فهو قليل في حقّهما، فمهما كان عطاؤه لهما، فهو قليل في نظرهما غير معظَّم من قِبلهما. وهكذا الحال بالنسبة للنقطة الثانية، وهي الشعور بالتصاغر الذي يشتدّ عند القرناء والأقرباء والتي تستتبع جفاءً وتعالياً، فهي الأخرى تكون في حال الإنفاق على الوالدين أشدّ لزيادة القرب، خاصّة وأنّ الأبوين لا يشعران أنّ ابنهما نظير لهما وحسب، بل يشعران بأنّهما أفضل منه، فيزدادان ألماً إذا كان غنيّاً ويعطيهما، مع فقرهما.

يقول بعض علماء الأخلاق: ربما لهذين السببين ـ توقُّع الأكثر، والجفاء ـ كان الإنفاق على الأقارب والأرحام أفضل، غير منكرين الأسباب الأخرى. وهذان السببان إنّما يصبّان في تربية النفس، لأنّ التغلّب عليهما يعني التغلّب عليها.

كما يمكن أن نضيف لهاتين النقطتين نقطة ثالثة في السياق نفسه وهي أنّه كثيراً ما نلاحظ قطيعة بين الأرحام، وفي مثل هذه الحالة يجد المنفِق صعوبة في التغلّب على نفسه والاستجابة لداعي الإيمان في الإنفاق على قريبه المعسر وإن كان قد أساء إليه، ولهذا عدّ الإنفاق على أُولي الأرحام أفضل من الإنفاق على مَن سواهم.

صدقة السر تطفئ غضب الرب

إنّ الإنفاق أمر حسن ومفيد، ولكن الأهمّ أن يربّي الإنسان نفسه لأجل ذلك. ولهذا ورد في الحديث: «**صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ**»[٢].

---

(١) رُوي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال لرجل جاءه يستعدي على والده: «**أنت ومالك لأبيك**» انظر الاستبصار للطوسي: ج٣ ص٤٨ رقم٢.

(٢) الكافي: ج٤ ص٧ ح١، فضل صدقة السرّ.

إنّ صدقة السرّ تربّي المعطي مضافاً أنّ آخذها لا يشعر بالذلّ؛ فإنّ الإطراء أو الإعجاب الذي يحصل عليه المرء فيما لو أعطى على مرأى من الناس قد يخفّف من صعوبة الإعطاء والصدقة، لإحساسه بكونه قد اشترى بها سمعة وجاهاً، فلا يشعر بصعوبة بذْله. أمّا الصدقة في السرّ فتعني تغلّب المرء على صعوبة البذل لغياب التشجيع والإطراء والإعجاب وما أشبه. فصدقة السر تطفئ غضب الرب، لأنّها أقرب إلى الإخلاص؛ لأنّ الله تعالى ـ كما ورد في المأثور ـ سريع الرضا[1]، ولكنّه حليم، أي لا يغضب بسرعة. وهذا قد يبدو جمعاً للأضداد إذا ما قيس إلى حالتنا نحن البشر.

فالذين يحلمون ولا يغضبون بسرعة إنّما يكظمون غيظهم لا أنّهم لا يتأثّرون أساساً، وهذا يعني تراكماً في غيظهم حتى إذا امتلأ وفاض كان غضبهم شديداً وبطيء الزوال، وقديماً قيل: «**نعوذ بالله من غضب الحليم**»[2]. أمّا الله تعالى فليس هكذا، فهو سبحانه حليم وهو سريع الرضا إذا غضب، لأنّه عزّ وجلّ هو الرحمة المطلقة، وقد سبقت رحمتُه غضبه، وقد خلقنا ليرحمنا؛ قال تعالى: ﴿... **إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[3]، أي ليرحمهم.

ولكن مع ذلك لا ينبغي للعبد أن يستصغر أيّة معصية، فلعلّ غضب الله فيها. وعلى العبد أيضاً أن يعمل ما من شأنه أن يزيل غضب الله تعالى، وممّا يطفئ غضبه سبحانه صدقة السرّ، والعلّة في ذلك أنّها تعني أنّ القائم بها قد نجح في ترويض نفسه وتعبيدها لله عزّ وجلّ، إضافة إلى أنّ آخذها لا يشعر بالضعة بين الناس.

---

(١) كما ورد في كثير من الأدعية والأوراد. انظر مفاتيح الجنان للقمي، دعاء كميل مثلاً.

(٢) من الأمثال العربية.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٨ـ ١١٩.

الهدف من الفضائل الأخلاقية

إنّ من أهمّ الأمور في المقام هو أن يربّي الإنسان نفسه، فهذا هو الشيء الأساسي، وإن كانت الفضائل الأخلاقيّة في حدّ نفسها جيّدة ولازمة، من قبيل أن لا يؤذي الناس بلسانه أو خُلقه السيّئ أو سيرته السيّئة أو بخله. وما نقل من قصص العلماء والصلحاء في هذا المجال يدلّ على ضبط قويّ للنفس.

فما نراه من اهتمام الناس غالباً بقصص الذين ربّوا أنفسهم تربية صحيحة حتى أكثر من اهتمامهم بالمجتهدين رغم أنّ الاجتهاد ليس شيئاً سهل المنال بل يتطلّب من الشخص متوسّط الذكاء تفرّغاً للدراسة المتواصلة لمدّة زهاء عشرين سنة. فرغم هذا ورغم وجود الألوف من المجتهدين في الحوزات العلمية في طيّ الزمان ـ والحمد لله ـ ولكننا لم نرَ كتباً تهتمّ بإحصاء المجتهدين من الشيعة ـ مثلاً ـ ولكنا نرى اهتماماً بنقل القصص التي تحكي جانب بناء النفس عند بعض العلماء مما يدلّ على أهميّته وندرته وصعوبته.

قصة فيها عبرة

حكي أنّه كان للشيخ الأنصاري زميل في الدراسة اسمه سعيد العلماء، وكانا يحضران معاً عند الأستاذ شريف العلماء ـ رحمهم الله جميعاً ـ وكان الشيخ الأنصاري ينحدر من مدينة شوشتر الإيرانية، فيما كان زميله سعيد العلماء من أهالي مدينة مازندران ـ الإيرانية أيضاً ـ. وبعد مرور عشر سنوات على الدراسة معاً استدعى المازندرانيون سعيد العلماء لكي يقيم لهم صلاة الجماعة ويفتيهم في المسائل الشرعية ويقضي بينهم ويقضي حوائجهم، فلبّى دعوتهم، فانتقل إلى مازندران وأسّس هناك حوزة وظل فيها، فيما بقي الشيخ الأنصاري في مدينة كربلاء المقدّسة ثم انتقل بعد وفاة شريف العلماء إلى النجف الأشرف وظلّ يواصل الدرس والتدريس والبحث والتحقيق طيلة

مرجعية صاحب الجواهر رضوان الله عليه. ولما توفّي صاحب الجواهر كانت الأصابع تشير إلى الشيخ الأنصاري وتطالبه بالتصدّي للمرجعية والإفتاء وإصدار رسالة عملية لكي يقلّده الناس. ولكن الشيخ الأنصاري أجاب مناشديه بالتصدّي للمرجعية أنّه يشترط الأعلمية في مرجع التقليد. مشيراً الى أنّ زميله سعيد العلماء كان أذكى منه أيام دراستهما في كربلاء لدى شريف العلماء، مرشداً الأمّة لتقليده. وذهب وفد من العراق إلى مدينة مازندران في إيران وعرضوا الأمر على سعيد العلماء وطلبوا منه أن يصدر رسالة عملية ليتسنّى لهم تقليده، ولكنه امتنع معلّلاً بالقول: إنني انقطعت عن البحث والتحقيق منذ مغادرتي كربلاء لأتفرّغ لإمامة الجماعة وهداية الناس في مازندران فيما واصل الشيخ الأنصاري الدرس لدى شريف العلماء ومن بعده صاحب الجواهر وكان متفرّغاً للبحث والتحقيق، فصار أعلم منّي وإن كنت سابقاً أعلم منه.

ولما عاد القوم إلى الشيخ الأنصاري ونقلوا له مقالة سعيد العلماء أجابهم إلى طلبهم وكتب حاشيته على كتاب «نجاة العباد» الرسالة العملية لصاحب الجواهر.

إنّ هذه القصّة هي إحدى القصص الكثيرة التي تنقل عن الشيخ الأنصاري وتحكي سموّ روحه وتهذيب نفسه. وجدير بتلك القصص أن تكون مربّية للأجيال، ولذلك تراها تلتقط وتُدوّن وتتناقل وتذكر ويُتّعظ بها حتى مع تكرر سماعها، لأنّها نادرة وغير يسيرة التحقق عند كلّ أحد. فربّما احتاج المرء إلى خمسين سنة من التربية لتصل نفسه إلى هذه المرحلة بحيث يعرض عليه مثل هذا العرض و مع ذلك يتورّع وينجح في التنازل عنه، في حين إنّ بعض الناس إذا واجه فقيراً يحتاج إلى مساعدة، ربّما يتردّد في المبلغ الذي ينوي إعطاءه، أيعطيه ديناراً ـ مثلاً ـ أم نصف دينار أم ربع دينار؟ وربّما لا يعطيه في الآخِر ولا يتنازل حتى عن درهم من ماله.

تربية النفس أولاً

يُنقل عن المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري، عن أستاذه السيّد الفشاركي ـ الذي كان من العلماء الفطاحل والمجتهدين المحقّقين ومن تلامذة المجدّد الشيرازي رضوان الله عليهم جميعاً ـ أنّه قال: لمّا توفّي المجدّد الشيرازي[1] رجع كثير من الناس في تقليدهم إلى الشيخ محمد تقي الشيرازي[2]، وكان والدي ـ أي والد السيّد محمد الفشاركي ـ مجتهداً ومرجعاً للتقليد أيضاً، فبعثني رسولاً إلى الشيخ محمد تقي الشيرازي لأسأله إن كان يرى نفسه الأعلم أم والدي، قال والدي في رسالته إلى الشيخ: إنّ زوجتي وأولادي كانوا يقلّدون المجدّد الشيرازي وقد توفي، فهل تعتقد أنّك أنت الأعلم لكي يرجعوا في تقليدهم إليك، أم تراني أعلم منك لكي يتحولوا إليّ؟!

يقول السيّد الفشاركي: بعد أن نقلت تحيات الوالد وسؤاله للشيخ الشيرازي، فكّر قليلاً ثم قال لي: أبلغ والدك السلام وقل له: وما رأيه؟

يضيف السيّد الفشاركي: عدت إلى الوالد و أخبرته بمقالة الشيخ محمد تقي، فأرجعني للشيخ لأسأله هذه المرة عن رأيه في تفسير الأعلم، وهل هو الأكثر ذكاء وفطنة أم الأكثر تعمّقاً ودقّة أم الأقوى ذهناً من الناحية العرفية؟ ولمّا عدت للشيخ أرجعني بدوره إلى الوالد يسأله عن تحديده لمفهوم الأعلم. وبعد أن دقّق والدي في هذا الأمر كثيراً، أمر أهله بأن يقلّدوا الشيخ محمد تقي الشيرازي لترجيحه أن يكون هو الأعلم وفق تفسيره لمعنى الأعلم.

---

(١) هو: الميرزا محمد حسن الشيرازي الذي أفتى بتحريم التنباك أيّام ناصر الدين شاه حينما عقد معاهدة مع إحدى الشركات الأجنبية حول التنباك وكانت تضرّ بالأمّة الإيرانية. توفّي عام ١٣١٢هـ.

(٢) صاحب الفتوى المشهورة في ثورة العشرين ضدّ الاحتلال الانجليزي للعراق عام١٩٢٠م، توفّي عام١٣٣٨هـ.

ويظهر ممّا ذُكر المدى الذي بلغه بعض مراجعنا في الورع وتربية النفس بحيث لا يتنافسون على المرجعية والزعامة، بل لا يتصدّون لها ولا يدّعونها إلاّ بعد تثبّت وتحفّظ وتدقيق، وبعد أن تقلّدهم الأمّة وعلماؤها المسؤولية وهم أهل لها من حيث العلم والورع والتقى والخلق والسموّ الروحي وتهذيب النفس والزهد في الدنيا ونبذ كلّ مظاهرها من شهرة وجاه ومال وغيرها. لأنّ الهدف من الفضائل الأخلاقيّة عندهم هو بناء النفس.

وتبقى قصصهم تربّي الأجيال، فربّ واحدة منها غيّرت مجرى حياة فرد وجعلته يستقيم؛ فهذه القصص إنّما جاءت كنتيجة لتربية تميّز بها أصحابها تحوّلت فيما بعد إلى صدقة جارية[١] تتناقلُها الكتب والألسن جيلاً بعد جيل.

أقول: إذا كانت «**الكلمة الطيبة صدقة**»[٢] فكيف بالعمل والسيرة الطيبة؟ لا شك أنّها أوفر حظّاً، وأبلغ شأواً لاستحقاق الصدقة.

فلنحاول نحن أيضاً من الآن أن نسعى في تربية أنفسنا، فإنّ تهذيب النفس وتربيتها ينبغي أن يكون هو الهدف الأسمى من وراء الدراسة والمنبر والتأليف. إنّ تهذيب النفس هو هدف الأنبياء والأوصياء، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»[٤].

فمن أتعب نفسه في هذا الطريق ووصل إليه ولو بعد حين، يكون قد

---

(١) لقوله صلّى الله عليه وآله: **إذا مات ابن آدم، انقطع عمله الا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به**، غوالي اللئالي للاحسائي: ج١ ص٩٧، الفصل السادس، ح١٠.

(٢) انظر مكارم الأخلاق للطبرسي: ص٤٦٨، الفصل الخامس، من وصية رسول الله صلّى الله عليه وآله لأبي ذرّ.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢١٠ باب ٩ـ مكارم أخلاقه صلى الله عليه وآله.

وصل إلى الغاية التي من أجلها خُلق. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[١].

بينما لو أصبح أكثر الناس مالاً، وأصحّهم جسماً، وأدقّهم نظراً دون أن يحقق هذه الغاية، فستذهب حياته كلّها سدى، ولا فائدة ترتجى من كلّ ما حصل عليه، كما صار إليه قارون، الذي حكى الله قصّته في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**﴾[٢].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨ـ١١٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٩)

في التعامل مع الناس

مصانعة المنافق

هناك أحاديث وروايات عديدة تؤكّد على الإنسان أن لا يُظهر للآخر كلّ ما في قلبه من حبّ وعداء، وما يختلجه من أفكار تجاهه، إلاّ بمقدار ما يقتضيه الظرف، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو نحوهما ـ مما يُعرف من الأدلّة في مظانّها ـ كما في رواية عن الإمام الصادق سلام الله عليه يرويها الشيخ الصدوق في «من لا يحضره الفقيه»، ويؤكّد صحّة سندها المجلسي الأوّل في «روضة المتقين» وفيها: إنّ إسحاق بن عمار ـ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ـ يقول: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا إسحاق، صانع المنافق بلسانك، وأخلص ودّك للمؤمن، وإن جالسك يهوديّ فأحسن مجالسته**»[1].

من الطبيعي أنّ المؤمن لا يحبّ المنافق بل يبغضه ويكرهه، إلا أنّ الإمام يأمره هنا بأن يصانعه بلسانه، أي يجامله في الحديث؛ لأنّ من الأخلاق الحميدة للمؤمن أن لا يظهر كلّ الكراهية التي يحملها في قلبه للشخص الذي لا يتوافق معه على حال، وإن كان منافقاً، فكيف إذا كان مؤمناً؟

---

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج٤ ص٤٠٤ رقم ٥٨٧٢.

قد يختلف المؤمن عن أخيه المؤمن في أسلوبه أو خلفياته أو عاداته أو ذوقه أو بعض صفاته، إلا أنّ هذه الفوارق ليس من شأنها أن تسلب المؤمن التزامه بالتعاليم الإسلامية، فلا ينبغي للمؤمنين أن يتباغضوا فيما بينهم؛ ولذا أوصى الإمام سلام الله عليه هنا بقوله: «**وأخلص ودَّك للمؤمن**» أي عامله بما هو مؤمن، وأظهر حبّك له بغضّ النظر عن شكله ولونه ولسانه أو ذوقه أو تربيته الخاصّة التي لا منافاة فيها مع الموازين الإسلامية.

أمّا المنافق وهو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام، فإنّ الإمام يوصينا بمجاملته: «**وصانع المنافق بلسانك**»، فهذا هو الخطّ العام للأخلاق الإسلامية، وهو أن تتحدّث وتتعامل مع الناس ـ مؤمنهم، ومنافقهم، وكافرهم ـ بالحسنى، وإذا كانت هناك مستثنيات واقتضاءات خارجية في بعض الموارد تستدعي تقديم الأهمّ على المهمّ، فيرجع فيها إلى مظانّها، ولكنّ الذي يجب أن نفهمه في الخطّ العامّ هو أنّ على المؤمن أن يكون مدارياً وإيجابيّاً في تعامله وكلامه مع الناس حتّى مع غير المؤمنين كالمنافقين، واليهود الذين وصفهم الله تعالى بأنّهم أشدّ الناس عداوة للمؤمنين[1].

الاقتداء بنهج النبي وأهل بيته

من يتتبّع تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم ومن بعدهم تاريخ العلماء الأخيار، سيجد هذا النهج الأخلاقي القويم في سيرتهم وتعاملهم مع الناس. فقد ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا صافحه شخص، لا يسحب يده حتى يكون ذاك هو البادي[2].

---

(١) قال تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ**﴾ سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) عن أنس بن مالك قال: صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله عشر سنين، وشممت العطر كلّه فلم=

ومعلومٌ أنّه لم يكن كلّ الذين يصافحهم رسول الله صلى الله عليه وآله من المؤمنين، بل كان فيهم ـ بلا شكّ ـ المنافقون، ومنهم من يعلم بحالهم النبي صلى الله عليه وآله ممن يستحقّون القتل، ولم يقتلهم لئلاّ يقال: إنّ محمداً استعان بقوم، حتى اذا ظفر بعدوّه قتلهم[١].

وهكذا كان أهل البيت سلام الله عليهم. فمن يتصفّح تاريخهم سيجد النهج نفسه. ومن يطّلع على سيرة الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، سيلاحظ أنّه كان يتعايش مدارياً في أيّام حكومته حتى مع الخوارج والمنافقين، فكان لا يغلظ معهم في القول حين يتعرّضون بالإساءة إليه بل كان يظهر لهم منتهى اللين والرفق.[٢]

قد يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في موردٍ ما موقفاً خاصّاً ـ بحسب ما يرجع فيه إلى تقدير الإنسان ومعرفته للحكم الشّرعي ـ إلا أنّ الخطّ العام هو أن يعامل الناس بالحسنى، أمّا المنافقون فلا يُظهر لهم ما في قلبه من بغض، بل يصانعهم بلسانه، لأنّ هذه من الصفات التي كان أهل البيت سلام الله عليهم، يأمرون بها أتباعهم، وهناك روايات عديدة في هذا الباب، فضلاً عمّا تقدّم[٣].

= أشمّ نكهة أطيب من نكهته، وكان إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول بيده ناولها إياه فلم ينزع عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع عنه، وما أفرج ركبتيه بين جليس له قطّ، وما قعد إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله رجل قطّ فقام حتى يقوم. مكارم الأخلاق للطبرسي: ص١٧.

(١) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **لولا أني أكره أن يقال: إنّ محمداً استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدّوه قتلهم، لضربت أعناق قوم كثير.** الكافي للكليني: ج٨ ص٣٤٥ ح٥٤٤، لولا قول الناس لضرب النبي صلّى الله عليه وآله أعناق جمع من الصحابة!

(٢) للتفصيل راجع مناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه للكوفي: ج٢ ص٣٤٢، كلام أمير المؤمنين سلام الله عليه حول قتاله مع أعدائه.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٤، أبواب آداب العشرة.

تهذيب النفس طريق الإبداع

إذا كان في الناس ـ عموماً فضلاً عن المؤمنين ـ انحراف، فهو في الغالب انحراف سطحيّ في بداية أمره، لا يلبث أن يزول تدريجياً فيما إذا كان أسلوب مناصحتهم حسناً، ولكنه يتعمّق بواسطة الأساليب الخشنة؛ فإنّ السلوك الحسن غالباً ما يؤثّر تأثيراً إيجابياً في الإنسان المنحرف ويقوّم انحرافه. ومن النادر أن لا يؤثّر هذا الأسلوب في التعامل مع الأفراد، خصوصاً إذا كانوا مؤمنين؛ ولذا عندما نبحث في بعض الجوانب المهمّة من تاريخ علمائنا الماضين رضوان الله عليهم، نرى أنّ هذا الأسلوب من الأخلاق في تصرّفاتهم هو الذي فسح لهم الطريق لأن يبدعوا في مجال أعمالٍ ضخمة قد خلّدها التاريخ.

أمّا الذين لم يتوانوا عن إظهار ما في قلوبهم من مشاعر سلبية نحو هذا وذاك، فإنهم لم يستطيعوا إنجاز ما حقّقه أولئك الذين سما بهم سلوكهم الأخلاقي الرفيع في الوصول إلى ما وصلوا إليه.

فالسبب المهمّ الذي مكّن المجدّد الشيرازي رضوان الله عليه من محاربة الغزاة المحتلّين في زمانه وتعبئة كلّ الطاقات الشعبية ضدّهم، هو تجنّبه عن الصغائر في الأمور وابتعاده عنها، لعلمه مسبقاً أنّ الإنسان إذا اشتغل ـ وهو بهذا المقام الرفيع ـ بنواقص فلان وفلان لا يسعه المجال لكي ينصرف لمكافحة الاستعمار.

بينما كان هناك عالمان من معاصريه يمثّلان الجهة السلبية، ولذلك لم يُنقل عنهما في الميادين الاجتماعية شيء يذكر، ولو ذُكر اسميهما فلعلّ معظمكم لا يتذكر أنّه سمع بهما، رغم ما توفّرا عليه من مكانة علمية قد ترتقي إلى مستوى علميّة المجدد الشيرازي، إلا أنّ تعاملهما الاجتماعي السلبي قد أقصاهما عن التاريخ.

يُذكر أنّه كان في زمانهما شخص له مقدرة علمية يشار لها بالبنان، إلا أنّه

كان متهكّماً، تصدر منه تجاه العلماء الماضين بعض التعبيرات غير اللائقة عند مناقشة آرائهم، فحضر هذا يوماً مجلساً كان يحضره أحد العالمين آنفي الذكر أيضاً ـ أعني أحد الرجلين اللذين يرتقي مستواهما الى مستوى المجدّد الشيرازي ـ فلمّا قُدّم الشاي لذاك الشخص وجاء صاحب المجلس ليرفع من أمامه صحن الشاي، ناداه ذلك العالم من جانب المجلس: مرهم ليغسلوا هذا صحن الشاي! إشارة منه إلى كفر ونجاسة مستعمله ـ أي الرجل صاحب التعبيرات اللاذعة ـ فلقِّب الرجل على أثر ذلك بالمكفَّر، أي من رُمي بالكفر، ولكن بسبب السلوك التكفيري لم يستطع هذا المكفِّر على ما له من باعٍ في المقام العلمي أن يبرز في الميادين الاجتماعية من تاريخه سوى في هذا الأمر، حتى عُرف واشتهر به، أي لا يُنقل عنه من الأمور الاجتماعية سوى أنّه كفَّر فلاناً، بينما عُرِف زميله المجدّد رضوان الله عليه بأنّه كافح الانجليز من خلال إحباطه لمؤامراتهم ضدّ المسلمين، وخير شاهد على ذلك فتواه في تحريم استعمال التنباك والتي عُرفت فيما بعد بـ «ثورة التنباك».

فإذا أخذ الإنسان المؤمن هذا الأمر بنظر الاعتبار، وأخلص ودّه للمؤمن وصانع غير المؤمن من منافق أو كافر، أمكنه أن يقطع شوطاً في هداية الناس، فضلاً عن تقويم نفسه. وهذا معناه أننا لو تعاملنا مع الناس بهذه النفسية وداری كلّ واحد منّا مئة منافق ـ مثلاً ـ فأغلب الظن أنّه سيعود تسعون منهم إلى جادّة الصواب ومنهل الخير شيئاً فشيئاً. وينبغي أن لا يثنينا تخلّف الباقين، كما لا ينبغي أن نضحّي بالتسعين ـ ما دام لديهم هذا الاستعداد في الميل نحو الهدى ـ بسبب امتناع أولئك العشرة الباقين عن طريق الهدى والصلاح.

أحبب لغيرك ما تحب لنفسك

الناس عموماً يُستمالون باللين، وتؤلّفهم الرأفة، وتنفّرهم الحدّة. فإذا استطاع الإنسان كسب ودّ الناس وأُلفتهم وعدم تنفيرهم عن نفسه، أصبح أكثر

توفيقاً في أموره وأعماله.

نحن نحبّ الحلم، ونحبّ الدفع بالتي هي أحسن وغيرهما من الأمور الحسنة، فهكذا الآخرين. مثلاً: لو صدرت منّا زلّة، فماذا نُحبّ أن نُكافأ به، هل سوى الحلم والصفح؟ كذلك لو صدرت من غيرنا تلك الزلّة، فإنّه يحبّ الشيء نفسه، ويُحبّ أن نحلم ونصفح عنه.

فينبغي لنا دائماً أن نُحبّ لغيرنا ما نُحبُّه لأنفسنا، ونظهر لغيرنا من أنفسنا ما نرجوه لنا من غيرنا، فالإنسان عند هذه الأمور التي تحدث، ينبغي له أن يضع نفسه مكان غيره، وغيره مكان نفسه.

جاء شخصٌ يوماً إلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي رحمه الله يطلب منه ما يُسمّى بالصلاة والصوم الاستيجاري ـ وكان الشيخ يشترط العدالة في المستأجر لقضاء الصلاة والصوم عن الميّت ـ فقال له الشيخ: الآن لا يوجد عندي شيء. فغضب الرجل وسبّ الشيخ ثم انصرف! وبعد مدّة جيء بأموال إلى الشيخ لغرض قضاء صلاة وصوم، فقرّر إرسالها إلى ذلك الرجل الذي سبّه. فقيل له: ألا تشترط العدالة فيمن يقضي صلاة أو صوماً عن ميّت؟ قال: نعم. قالوا: إن كان ذلك الرجل عادلاً فقد فسق عندما سبّ مؤمناً. قال: غير معلوم أنّه كان ملتفتاً إلى قوله، وذلك لشدّة حاله وفقره.

فهذا الخلق الرفيع لهذا العالم الجليل، حقيقٌ بالتمجيد والثناء، فلننظر لو وقعت لنا القضية نفسها، فهل نفعل ما فعله الشيخ؟ أو أنّ سبّه يوجب شكّنا في عدالته على أقلّ تقدير، فلا نسلّمه شيئاً يقتضي العدالة فيه؟ هذا إن لم نقل: إنّ مجرّد صورة اعتدائه هذا نعتبره تجرّياً على العصيان والظلم. فطبيعة الإنسان كثيراً ما توحي إليه هذا الإيحاء السلبي تجاه غيره لتميد به عن جادّة الأخلاق الحسنة.

فإن لم نحاول تغيير هذه الطبيعة فسنبقى نتصرّف مع الناس سلبيّاً حال

وقوعنا في قضية مشابهة، بينما لو حملنا الأمر على محامله الحسنة ـ لرؤيتنا له من زاوية أخرى ـ لوضعنا له الحلول المناسبة وبحسب ما تقتضيه نفوسنا من حبّ الخير والصلاح، ولا يتأتّى ذلك إلاّ إذا روّضنا النفس على التحلّي بالخصال التي تحلّى بها أئمتنا الأطهار سلام الله عليهم وعلماؤنا الأبرار.

ينقل عن العلاّمة الحلّي رضوان الله عليه قصّة في هذا المجال، وهي أنّ الفقهاء كانوا يقولون: إنّ ماء البئر ينجس بملاقاة النجاسة، وذلك لعدم اعتبار ماء البئر كرّاً أو جارياً. وكان العلاّمة على شكّ من هذه المسألة. فاتّفق أن سقطت نجاسة في بئر بيته، فبادر إلى طمّها فوراً، ثم راجع المسألة بدقّة، وبعد أن عثر على الحكم الشرعي، أفتى بطهارة ماء البئر، واعتبار حكمه حكم ماء الكر، وإن كان أقلّ منه، فلا يتنجّس بملاقاة النجاسة من غير تغيير.

ربّما كان ضمن وجه عمله هذا هو أن لا تؤثّر مصلحته الشخصية ـ ولو قليلاً جداً ـ في بحثه عن الأدلّة والشواهد التي انتهت به إلى طهارة ماء البئر وعاصميّته.

فقد روي عن أهل البيت صلوات الله عليهم، قولهم: «**من اتّهم نفسه أمِنَ خدع الشيطان**»[1]، و«**من اتّهم نفسه فقد غالب الشيطان**»[2]، فإذا أراد الإنسان أن يربّي نفسه، فعليه أوّلاً أن يتّهمها دائماً في تصرّفاته الشخصية، وذلك بأن يجعل نفسه مكان غيره في كلّ القضايا، وكذلك يجعل غيره مكان نفسه، لأنه في كثير من القضايا يحكم لنفسه بشكل، ولغيره بشكل آخر، يعني نفس القضية إذا وقعت له يحكم لنفسه بشكل ينسجم مع غرائزه وميوله، وإذا وقعت لغيره يحكم له بشكل آخر مغاير لما حكم به لنفسه.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ للواسطي: ص٤٣٧.

(٢) غرر الحكم للتميمي: ص٣٢٩ رقم ٤٨٣١، توبيخ النفس.

يُنقل عن الشيخ نصير الدين الطوسي ــ وكان عالماً فيلسوفاً فقيهاً، وحاكماً أيضاً ـ أنّ شخصاً كتب إليه رسالة فيها تأنيب وتقريع وإساءة أدب، ومن جملة ما كتب فيها (يا كذا) فكتب له الشيخ الطوسي: ... وأمّا وصفك لي بـ (ياكذا) فهذا خطأ، لأنّ الكلب حيوان يمشي على أربع، وأنا أمشي على اثنتين، والكلب يغطّي كلّ بدنه الشعر وأنا لست كذلك، فضلاً عن ذلك فأنا حيوان ناطق ـ بحسب الفصل المنطقي ـ والكلب حيوان غير ناطق.

فهذا النفَس الأخلاقي في الردّ من جانب الشيخ الطوسي مدعاة لتمجيده والإطراء عليه؛ لما له من الثقة بالنفس وعدم المبالاة بما تعرّض له من قبل ذلك الشخص، والتركيز بدلاً من ذلك على الأمور المهمّة الشرعيّة والاجتماعيّة.

أمّا لو وقعت لنا مثل هذه القضية وجاءنا البريد برسالة من شخص تحمل عبارات كتلك، فهل نستطيع من دون تربية أنفسنا أن نجيب عليه بمثل جواب الشيخ الطوسي ولا نحاول ردّه بالمثل ونحو ذلك؟

الترفّع عن صغائر الأمور

لا شكّ أنّ الناس غير متّفقين في الأذواق فضلاً عن الأخلاق، فينبغي لمن يتعامل معهم أن يترفّع عن وضائع الأمور، وهذا الأمر يتأكّد بالنسبة إلى العلماء ورجال الدين لأنهم مرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الناس، فيكونون عرضة للمشاكل أكثر من غيرهم، فهناك من يعارضهم في مسألة أو يردّهم في رأي أو يختلف ذوقه مع أذواقهم، بل قد يصل الأمر إلى وجود من يواجههم بالسبّ والشتيمة، لغاية ما. فلو انشغل رجال الدين بهذا وذاك، ستتلف أعمارهم ويضيع تاريخهم وجهدهم دون جدوى.

لقد علّمنا أئمتنا سلام الله عليهم أن نصانع المنافق بألسنتنا ـ فضلاً عن ودّ

المؤمن ـ لنكون قادرين على تغيير المجتمع فضلاً عن تربية أنفسنا.

يُنقل عن المجدد الشيرازي رضوان الله عليه أيضاً: أنّ مجموعة من الأعداء المنافقين قتلوا له ولداً ـ وكان أكبر أولاده ـ فلم يتّخذ رحمه الله تجاههم موقفاً غير موقف الحلم، فصفح عنهم صفحاً جميلاً! مع أنّه كان من حقّه شرعاً أن يطالب بدم ابنه وكان يمكنه ذلك، لأنّ الأمور كانت مهيّأة له، إلاّ أنّه رحمه الله لم يفعل ذلك، وإلاّ لم يكن ليستطيع تعبئة كلّ الطاقات في نفسه وفي المسلمين لمجابهة الاستعمار البريطاني الذي كان قابعاً على صدر الأمّة آنذاك.

والأمر نفسه حدث للسيّد أبي الحسن الأصفهاني رحمة الله عليه حين قُتل ولده، فاعتُقل قاتلُه، إلاّ أنّه وهو المفجوع بولده ـ الذي كان خير أولاده ـ طلب من المسؤولين وبإصرار، أن يُخلوا سبيل القاتل، وهكذا أُخلي سبيل القاتل وترك. فهذا التوجّه والخلق والاشتغال بالأمور المهمّة التي يُنظر فيها إلى المصلحة العامّة، هو الذي أوصل السيد الأصفهاني رحمه الله إلى ما وصل إليه من علوّ شأن ورفعة.

فالإنسان إذا انشغل بالأمور الصغيرة، سوف لا يصل للأمور الكبيرة والمهمّة.

إنّ طالب العلم الديني عند بداية دخوله في مجال الدراسة أو التدريس أو الموعظة أو التأليف، يدخل بآمال كبيرة ورؤى واسعة، غير أنّ انشغاله برطب الحياة ويابسها يعرقل سيره ويحبط بالنتيجة آماله ورؤاه التي شرع في السير من أجلها.

لذا فعندما نمجّد الشيخ نصير الدين الطوسي أو المجدّد الشيرازي أو الشيخ محمد تقي الشيرازي أو السيّد أبا الحسن الأصفهاني رحمهم الله وغيرهم من العلماء الأعلام، على مثل تلك الأخلاق الرفيعة، فلا ينبغي أن نكتفي بذلك، بل علينا أن ننهج نهجهم وذلك بترويض أنفسنا للوصول إلى مثل ذلك الخلق الكريم والسير بين الناس بالحسنى.

فإذا استطاع طالب العلم أن يكون بهذا المستوى عندها سيحقّق آماله وتطلّعاته التي من أجلها بدأ، وقطع الأشواط أملاً في الوصول إليها، وإلاّ فلا يرجو أن يحقّق شيئاً، لأنه سيبقى يدور في مجال محدود، ضمن محيط ضيّق وأعمال صغيرة، وإن كانت بعضها حسنة في نفسها، ولكن قد لا تكون كذلك بلحاظ أمور أخرى، فيكون هذا الإنسان قد صرف عمره ـ الذي كان ينبغي أن يصرفه لهداية الملايين من الناس ـ في هداية الآحاد وربما العشرات، على أحسن التقادير، هذا إذا لم يكن قد صرفه في توافه الحياة وهوامشها.

ليس للإنسان عُمران في هذه الحياة، فلو صرف عمره في الأمور التي هي أقلّ أهمية، فإنّه سيُصرف بذلك عن الأمور المهمّة، وبمقدار ما نتأخّر في الأمور المهمّة يتقدم أعداؤنا فيها!

والتوفيق فيما ذُكر يحتاج إلى الاستعانة الدائمة بالله تعالى والاستعاذة به من الزلل في المنعطفات الخطيرة، وفي الوقت نفسه يحتاج إلى تركيز وجهد مع صبر، فالله تعالى لا يقطع رجاء من يرجو فضله. نسأله سبحانه التوفيق بمنّه وفضله.

(١٠)

المداراة من طرق هداية الناس

وردت في المداراة أحاديث وروايات كثيرة، يظهر منها مدى مكانة المداراة في الإسلام؛ منها:

ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «**من عاش مدارياً مات شهيداً**»[١].

وقوله صلّى الله عليه وآله: «**أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض**»[٢].

وقوله صلّى الله عليه وآله: «**بُعثت بمداراة الناس**»[٣].

وكذلك: ما رُوي عن الامام الحسن المجتبى عليه السلام: «**مداراة الناس نصف الإيمان**»[٤].

كما يختلف الناس في أشكالهم وألوانهم كذلك يختلفون في أخلاقهم وأذواقهم، ولا يكاد يوجد إنسان يشبه الآخر في كلّ الجوانب، والمداراة هي واحدة من الجسور التي يمكن عبرها التأثير في الناس. وهي تختلف عن

---

(١) روضة الواعظين للنيسابوري: ص٣٨٠، مجلس في ذكر حسن الخلق.

(٢) الامالي للطوسي: ص٤٨١، المجلس السابع عشر، رقم ١٩.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي: ج٦ ص٣٥١ رقم٨٤٧٥.

(٤) تحف العقول للحرّاني: ص٤٢، من قصار كلماته صلى الله عليه وآله.

المداهنة.

فعن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «**لا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا، ولا تداهنوا في الحقّ فتخسروا**»[١].

الفرق بين المداراة والمداهنة

الفرق الرئيسي بين المداراة والمداهنة أنّ المداهنة لا تكون في طريق التربية والهداية. ومن يداهن شخصاً يعصي الله تعالى، ليس غرضه مراعاة الأهمّ والمهمّ، بل كسب رضا العاصي على أيّ حال، فيجاريه من أجل مصالح شخصية، من قبيل أن يحصل على احترام العاصي أو ودّه، أو يحصل منه على مكسب مادّي كأن يعطيه مالاً.

والمداهنة مذمومة ويحاسَب الإنسان عليها؛ ولذلك روي فيما أوحى الله تعالى إلى النبيّ شعيب: «**إني معذّب من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم**، فقال: يارب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: **داهَنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي**»[٢].

أمّا المداراة فهي من الدراية والعلم والمعرفة والتوسّل بطرق الهداية لجلب الإنسان إلى الحقّ أو إبقائه عليه.

وبعبارة أخرى: المداراة أن يكون موقف الإنسان تجاه الناس موقفاً يخدم في استقطاب الناس وهدايتهم إلى الإسلام والأخلاق والفضيلة بشتّى السبل المشروعة.

---

(١) انظر مستدرك الوسائل للنوري: ج١١ ص١٧٧ ح١٢٦٨٢.

(٢) الكافي: ج٥ ص٥٥، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح٢٠.

من نداري؟

قُسّم المسلمون الأوائل من حيث الأدوار إلى أربعة أقسام، فبعض امتاز بالقدم في الانتماء فقط دون أن يكون له قَدَم ودور وموقف مشهود، وبعض وإن لم يكن له قِدم بأن كان حديث العهد في الإسلام إلاّ أنه امتاز بالقَدَم والدور، وثالث جمع بين الفضيلتين، ورابع كان فاقداً لهما.

ومثال الفريق الثاني، الذي له قَدم وإن لم يكن له قِدم: ذاك الذي أسلم في الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وتشهّد الشهادتين ثم قُتل دون أن تمهله الحرب لصلاة بعدها أو صيام[١].

كما يمكن أن يكون «الحرّ بن يزيد الرياحي» مصداقاً لذلك لأنّه كان في معسكر قد شهروا السيف في وجه الإمام الحسين صلوات الله عليه، أي كان في صفوف ناصبي العداء لأهل البيت سلام الله عليهم، ولكنه تاب قبل بدء المعركة واستشهد ربما قبل أن يصلّي صلاة صحيحة بعدما انحاز إلى لواء أهل البيت سلام الله عليهم؛ لأنه وكما يروى عنه قال للإمام الحسين: «**يابن رسول الله، كنت أوّل خارج عنك فدعني أكون أوّل شهيد بين يديك**»[٢].

---

(١) روي أنّه: كان عمرو بن قيس قد تأخّر إسلامه، فلمّا بلغه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله في الحرب أخذ سيفه وترسه، وأقبل كالليث العادي يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ثم خالط القوم، فاستشهد، فمرّ به رجل من الأنصار فرآه صريعاً بين القتلى، فقال: يا عمرو! وأنت على دينك الأوّل؟ قال: لا والله، إنّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ثم مات، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، إنّ عمرو بن قيس قد أسلم وقتل، فهو شهيد؟ قال: **إي والله، شهيد، ما رجل لم يصلّ لله ركعة دخل الجنّة غيره**. تفسير القمّي: ج١ ص١١٧، مورد تفسير سورة آل عمران، الآية: ١٢٢ في بيان معركة أحد، شهادة حمزة عليه السلام.

(٢) راجع أسرار الشهادة للرشتي: ج٢ ص٢١٠ـ٢١٩ المجلس السابع في ذكرى شهادة جمع من=

أمّا مثال الفريق الأخير، وهو الذي لا قِدم له ولا قدَم، كالشيخ الذي يدخل الإسلام ويبدأ الالتزام وقد ناهز عمره السبعين ـ مثلاً ـ فتراه يصلّي ويصوم ويؤدّي العبادات ولكنه لا يتحمّل الشدّة في الدين، وربما انفلت عنه عند تعرّضه لأبسط امتحان، أو ارتكب المعصية مع أوّل شدّة تمُرّ عليه؛ فمن الجدير المداراة مع أمثال هؤلاء، لضعف إيمانهم، كما ينبغي المداراة مع الشباب أيضاً من أجل عدم انفلاتهم عن الطريق وتوغّلهم في المعاصي.

المداراة: تقديم الأهم على المهم

كنت قد عقدتُ مجلساً في كربلاء المقدسة ـ في زمن بعيد ـ لمجموعة من الشباب لبيان أصول الدين والأحكام والآداب الإسلاميّة. وكان يحضره إلى جانب طلاب العلوم الدينية شباب من طلاّب المدارس الحديثة وبعض المثقّفين. ففي إحدى الجلسات لفت انتباهي شابّ لم أعهد حضوره من قبل ولم أعرفه، رأيته متختّماً بخاتم من ذهب ـ ويظهر أنّه كان جديد عهد بالزواج ـ .

إلاّ أنّي رأيت عدم التعجّل في نهيه عن التختّم بالذهب؛ لاعتبار كونه جديد عهد في حضوره المجلس، فضلاً عن عدم معرفتي به، فخشيت أن لا يحضر المجلس بعد ذلك إذا نهيته في أوّل تعرّفي به. ولم تكن خشيتي ـ بالطبع ـ من عدم حضوره المجلس، إلاّ لأنّه بعدم حضوره قد يتّخذ مسالك غير سليمة.

وبعد أن نقلتُ القضيّة لوالدي رحمه الله قال لي: حسناً فعلت، دعه يحضر أوّلاً، ويستمرّ في حضوره ليتعلّم أصول الدين وفروعه، وما يترتّب عليه من

= أصحاب سيد الشهداء روحي فداه.

أوامر ونواه، وبعد أن يقوى إيمانه وترتقي إرادته في الإقدام على ترك المنكرات يمكنك أن تطرح عليه المسألة، وتقول له: إنّه لا يجوز له ذلك. فاحتمال عدم حضوره المجلس وارد لو نهيته الآن.

فهذا يُعدّ من معاني المداراة، أي تقديم الأهمّ على المهمّ، عند التزاحم، من أجل هداية الناس إلى الإسلام أو إبقائهم عليه وعلى أصوله وأحكامه. ومهما يكن، فالمداراة ليست كالمداهنة التي لا ترجو هدفاً كهذا، فترى صاحبها يتوخّى من وراء سكوته على الباطل أن يصل إلى تحقيق منافع شخصية دنيوية صرفة.

النبي يونس والمداراة

يظهر من الروايات أنّ النبي يونس عليه السلام كان قد ترك المداراة وفعل غير ما ينبغي فعله من باب الأولوية ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ**﴾[1] ونزل به ما نزل.

فقد روي عن أبي عبد الله الصادق سلام الله عليه أنّه قال: «**كان رسول الله** صلى الله عليه وآله **في بيت أم سلمة في ليلتها، ففُقد من الفراش، فدخلها من ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائماً رافعاً يديه يبكي ويقول: اللهم لا تنزع منّي صالح ما أعطيتني أبداً. اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً. اللهم لا تُشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً. اللهم لا تردّني في سوء استنقذتني منه أبداً.**

قال: فانصرفت أمّ سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها، فقال لها: **ما يبكيك يا أم سلمة؟**

فقالت: بأبي أنت وأمّي يارسول الله ولم لا أبكي وأنت بالمكان الذي

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٢.

أنت به من الله، قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، تسأله أن لا يشمت بك عدوّاً أبداً ولا حاسداً وأن لا يردّك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع عنك صالح ما أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً.

فقال: **يا أمّ سلمة، وما يؤمنني، وإنّما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان منه**»[١].

فما كان ينبغي ليونس عليه السلام أن يستميل قومه للإيمان ثم يتركهم بعد مدّة قصيرة، بل كان الأولى مداراته لهم أكثر، لكنّه ترك الأولى لأنّ الله تعالى ـ كما يقول النبي صلى الله عليه وآله في الحديث المتقدّم ـ أوكله إلى نفسه طرفة عين!

وهذا الأمر يلزم علينا ملاحظته أيضاً؛ لأننا في كثير من الأحيان قد نغضب لله تعالى ولكنه غضب عن جهل مركب ـ وإن كان لله ـ لذا يجب علينا أن لا نظهر غضبنا بسرعة لئلاّ يحدث ما ربّما لا تُحمد عقباه. وهذا من المداراة أيضاً.

ثم إنّ الناس إمّا مؤمن أو كافر أو منافق، وكلّهم بحاجة إلى المداراة، فأمّا المؤمن فهو بحاجة إلى المداراة ليزداد إيماناً، والكافر يحتاجها ليسلم، والمنافق ليُقلع شيئاً فشيئاً عن نفاقه ويصير مؤمناً.

والمسلم بكلا قسميه يحتاج للمداراة ليثبت على إسلامه ويقوّيه.

ولكم في رسول الله صلّى الله عليه وآله أسوة

ومن يتتبّع سيرة الرسول الأعظم يجده صلى الله عليه وآله قمّة في مداراة الناس على مختلف مشاربهم، حتى أنّه صلى الله عليه وآله قلّما كان يستعمل كلمة «حرام»

---

(١) تفسير القمّي: ج١ ص٤٩، مورد تفسير سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

في وصف ما يجب اجتنابه، بل كان يستبدلها بكلمات أخرى من قبيل: «إنـي لا أفعل ذلك» و«إنّي أكره..» لخفّة وقعهما على السامع، فكان النـاس يعرفـون الحرام من خلال هذه التعبيرات دون أن يحصل لهم أي ردّ فعل على ذلك.

ومن الأمثلة على مداراة الناس في منهاج الرسول صلى الله عليه وآله عـدم قتلـه لمنافقين كانوا يستحقّون القتل؛ لئلا يُـساء فهـم الإسـلام مـن بعـض النـاس، فيتركوه.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «**لو لا أنّي أكره أن يقال: إنّ محمـداً استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، لضربت أعناق قوم كثير**»[١].

لا شكّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقـدم علـى قتـل أحـد إلا إذا كـان مستحقّاً للقتل، لأنّ القتل أمر دائر بين الواجب والحرام ـ حسب تعبير الفقهـاء ـ ولا يوجد قتل مستحبّ أو مكروه أو مباح، كمـا هـو الحـال فـي الفـرائض كالصوم ـ مثلاً ـ فهناك صوم واجب وصوم حـرام وصـوم مـستحبّ وصـوم مكروه، أمّا القتل فليس فيه سوى الوجوب كمن هدر دمـه، أو الحرمـة كمـن عصم دمه.

لذا فقوله صلى الله عليه وآله: «**لضربت أعناق قوم كثير**» يعني لاستحقاقهم القتل بالحكم الأوّلي، غير أنّ النبي لم يُجر الحكم لأمر أهمّ وهو عدم لحـوق تهمـة بالإسلام قد تؤدّي إلى ابتعاد الناس عنه.

وهذا يوضّح ما للمداراة من أهميّة في الشريعة. فكما أنّ الإنسان يتعامـل في الأمور المادّية والشخصية على أساس الترجيح بـين الأهـمّ والمهـمّ، كـأن يعطي تارة مبلغاً كبيراً من المال لأحد ولا يعطي مثله لغيره، وذلك بحسب مـا

---

(١) الكافي للكليني: ج٨ ص٣٤٥ ح٥٤٤.

يراه من المصلحة والأهمية، أو تارة ينفق من وقته ساعات لشخص ما، ولا ينفق إلا دقائق معدودة لآخر، فكذلك الحال في المداراة حيث ينبغي النظر إلى الأهمّ والمهمّ وتقديم الأوّل على الثاني، وهذه سيرة الأنبياء والرّسل[١] وبالأخصّ سيرة نبيّنا وأهل بيته المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وبتبعهم الأولياء والعلماء والصلحاء.

المعصومون أسوة

يروى أنّه بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله من غزوة حنين ـ وقد نصره الله تعالى على المشركين بعد فتح مكّة ـ جاء بالغنائم فنزل بالجعرانة[٢] بمن معه من الناس وقسّم ما أصاب من الغنائم بين المؤلّفة قلوبهم من قريش وسائر العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير. قال محمد بن إسحاق: فأعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، ومعاوية ابنه مئة بعير، وحكيم بن حزام من بني أسد بن عبد العزى مئة بعير... قال: وغضب قوم من الأنصار لذلك وظهر منهم كلام قبيح، حتى قال قائلهم: لقي الرجل أهله وبني عمّه ونحن أصحاب كلّ كريهة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما دخل على الأنصار من ذلك، أمرهم أن يقعدوا ولا يقعد معهم غيرهم، ثم أتاهم صلّى الله عليه وآله شبه المغضب يتبعه عليّ سلام الله عليه حتى جلس وسطهم. فقال: **ألم آتكم وأنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بي؟**... إلى أن قال: **بل لو شئتم قلتم: جئتنا طريداً مكذّباً فآويناك وصدّقناك، وجئتنا خائفاً فآمنّاك.**

---

(١) ورد في بحار الأنوار: ج٧٢ ص٤٠١ باب ٨٧ ـ باب التقية والمدارة، ح٤٢، عن تفسير الإمام العسكري سلام الله عليه قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **إنّ الأنبياء إنّما فضّلهم الله على خلقه بشدّة مداراتهم لأعداء الله...**».

(٢) وهي ماء بين الطائف ومكّة، وهي إلى مكّة أقرب. انظر معجم البلدان للحموي: ج٢ ص١٤٢.

فارتفعت أصواتهم، وقام إليه شيوخهم فقبّلوا يديه ورجليه وركبتيه، ثمّ قالوا: رضينا عن الله وعن رسوله، وهذه أموالنا أيضاً بين يديك فأقسمها بين قومك إن شئت.

فقال: **يا معشر الأنصار، أوجدتم في أنفسكم إذ قسمت مالاً أتآلف به قوماً ووكلتكم إلى إيمانكم، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنَعَم ورجعتم أنتم ورسول الله في سهمكم...؟**[1].

لقد نبّههم رسول الله صلى الله عليه وآله بما غفلوا عنه وذكّرهم ما نسوه، وأعلمهم أنّ ما قام به من إعطاء المال الكثير لأولئك الناس بعد أن خصّهم بالغنائم دون الأنصار إنّما كان لغاية تأليف قلوبهم للإسلام، ولإظهار عظمة الإسلام، ولكي يكسر حالة العداء فيهم فلا يعود أمثال أبي سفيان وابنه معاوية وغيرهما من المنافقين لتنفيذ مؤامراتهم ضدّ الإسلام، وفي الوقت نفسه استثار صلى الله عليه وآله عواطف الأنصار بقوله: «**ألا ترضون أن يكون رسول الله في سهمكم**».

شروط لابد منها

يرى المتتبع لسيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أنّ مواقفه كانت تتناسب مع الظروف المحيطة به، فكانت له سيرة خاصة عندما اجتمع حوله نفر من المسلمين، وكانت له سيرة ثانية عندما جاء مهاجراً إلى المدينة حتى شكّل الدولة الإسلامية، وثالثة بعدما شرع في توسيع رقعة الدولة الكلامية ومحاربة الكفر والطغيان لنشر تعاليم السماء. فكان في بداية دعوته صلى الله عليه وآله يذهب إلى الناس في أيّ مكان يراهم فيه سواء على الصفا أو المروة أو المسجد

---

(١) راجع أعلام الورى للطبرسي: ج١ ص٢٣٥، غزوة حنين.

الحرام أو الطرقات والأسواق أيّام الحجّ يدعوهم منادياً: «**يا أيّها الناس، قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا**»[١]. أمّا بعد أن اجتمع حوله عدد أكثر من الناس، صارت سيرته صلى الله عليه وآله وفق ما يتناسب وعدد المسلمين، واختلف الأمر أيضاً عندما هاجر إلى المدينة، لأنّه في البداية عندما لم يكن ذا عدّة وعدد كان عليه أن يدعو الناس إلى توحيد الخالق وعبادته وفق المنهج التبليغي الصرف، وبعدما هاجر إلى المدينة وكثر أتباعه الذين آمنوا به، فضلاً عن شيوع أمر نبوّته أخذ يسير في نشر الإسلام بين الناس بما يستلزمه الموقف استناداً الى العدّة والعدد، كما انبسط الأمر له صلّى الله عليه وآله في زيادة تفعيل أحكام الشريعة بين المسلمين، وهكذا.

لذا فإنّ الظروف الاجتماعية كثيراً ما تتحكّم في مثل هذه الأمور، وهذا ليس معناه أنّ الحلال يصبح حراماً وبالعكس، بل اللازم ملاحظة مدى استعداد الناس وقبولهم الحقّ؛ وإرجاء الحكم الشرعي لا يعني إبداله أو إبطاله بأيّ حال من الأحوال.

روي أنّه دخل على الإمام الصادق سلام الله عليه رجل فقال له: أصلحك الله ذكرت أنّ عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيّد.

فقال له الإمام: **إنّ علي بن أبي طالب كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهّر به، فخير لباس كلّ زمان لباس أهله، غير أنّ قائمنا أهل البيت إذا قام لبس لباس عليّ وسار بسيرته**[٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب، للمازندراني: ج١ ص٥١، فصل فيما لاقى صلّى الله عليه وآله من الكفّار.

(٢) فروع الكافي للكليني: ج٦ ص٤٤٤ ، باب اللباس ح١٥.

يتبيّن لنا من خلال هذه الرواية أنّ المداراة تتطلّب معرفة طبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده في اختيار ما يتناسب معها. فأسلوب هداية الناس لا يعني السكوت عن الحرام أو ترك الواجب، بل يعني التدرّج في مراحل بيانه ونحو ذلك، لكيلا يقع المداري والمدارى كلاهما في حرام أهمّ منه وأشدّ. وبما أنّ الناس ـ بما فيهم المؤمنون ـ ليسوا كلّهم عدولاً فضلاً عن عدم علمهم لجملة ممّا له مدخلٌ في التشريع؛ لذا يلزم على من يريد هدايتهم أن يتحلّى بأعلى قدر من المداراة في تعامله معهم.

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم، فيلزم على من يريد هدايتهم أن يكون مدارياً لهم إلى آخر لحظة ليتمكّن من توجيههم نحو الله تعالى، فيكون قوله وفعله جامعاً للناس وهادياً لهم، لأنه مسؤول على أن لا ينفرّهم عن الحقّ.

مثال عملي

لو طلب كاتب ناشئ من مؤلّف قدير أن يقرأ له مقالاً كتبه، وبعد قراءته للمقال وجد المؤلّف أخطاءً بعدد كلماته، وذكر له أخطاءه كلّها في المرة الأولى دفعة واحدة، فإنّ هذا الناشئ قد يفقد الأمل بالتقدم في مجال الكتابة ويترك الأمر. أمّا إذا تعامل معه بتدبّر وعقلانية وحكمة وأخبره ببعض الأخطاء وقلّلها في عينه، ثم ذكر له في المرّة القادمة أخطاء أخرى وهكذا، فمما لا شك فيه أنّه لن يفقد الأمل بل تنمو عنده القابلية ويكثر استعداده لأن يصبح كاتباً له شأنه. هذا مصداق من مصاديق المداراة.

المداراة أسهل طرق الهداية

ينبغي لطالب العلم أن يعرف كيف يهـدي الآخـرين ويـوجّههم إلـى الله سبحانه وتعالى، أمّا إذا أخذهم بالشدّة والغلظة فربّما كثير منهم ينحـرف عـن الطريق، خصوصاً في زماننا هذا الذي تكثر فيه التيّـارات المختلفـة، والكفيلـة بالتقاط المنفرط عن الحق فيما إذا تاه ونأى، لـذا علينـا أن لا نفـسح المجـال أمام تلك التيّارات الفاسدة والمضلّة باصطياد شـبابنا، خاصّـة مـع كثـرة أهـل الباطل وتيّـاراتهم التـي أعـدّت فخاخهـا ومـصائدها المتنوّعـة لاصـطياد أيّ شخص قد يضعف إيمانه أو ينفلت عن الحقّ وأهله.

نسأل الله تعالى أن يوّفقنا للتحلّي بهذا الخلق العظيم الذي ورد فـي قـول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من عاش مدارياً مات شهيداً**»[1].

---

(١) روضة الواعظين للنيسابوري: ص٣٨٠، مجلس في ذكر حسن الخلق.

(١١)

الحرص والكفاف

قال الله تعالى في كتابه الحكيم مخاطباً نبيّه الكريم: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[١].

تتناسب الموعظة والنصيحة التي يقدّمها الموصي مع الموصى له تناسباً يحدّده الكمّ والكيف لدى كلّ من المانح والقابل، فمن الطبيعي أن تختلف الموعظة على اختلاف درجات طالبها. فلو أنّ تلميذاً جاء إلى عالِم دين أو واعظ وقال له: عظني أو أَوصني، فربما يقول له العالم: أتقِن درسك. أمّا إذا جاءه كاسب وطلب منه النصيحة والموعظة فقد يقول له: تفقّه في مسائل البيع والشراء أو إيّاك والتطفيف والاحتكار.

وهكذا تختلف الموعظة لو كان طالبها عالماً أو رجل دولة أو غيرهما؛ فإنّ الحكمة تقتضي ذلك، وهذا ما ندركه نحن بعقولنا، فكيف بالله سبحانه وتعالى وهو خالق العقل وربّ الحكمة، فإنّه لاشكّ قد حكم هذا الأمر. فإذا كان الواعظ الله، والقابل سيّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله، فلاشكّ أن تكون الموعظة جامعة للفضائل، والوصية التي يوصي بها الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم صلّى الله عليه وآله لاشك تكون أبلغ الوصايا وأسناها.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

وهذه القضية يمكن إدراكها أيضاً من خلال ملاحظة كلمات وخطب الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة، فإنّ خطبه عليه السلام على منبر الكوفة لعامّة الناس تختلف عن تلك التي يلقيها على جيشه، كما تختلف وصاياه العامّة عن تلك التي يوصي بها ولديه الحسن والحسين عليهما السلام.

هذه الآية الكريمة، يوصي الله سبحانه وتعالى نبيّه، والوصية موجَّهة له وهو المخاطَب بها، وهذا ما يميّزها عن غيرها ـ وإن كانت الوصية موجَّهة في الحقيقة لسائر الناس بصورة غير مباشرة؛ وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الأسوة والقدوة في كلّ أعمال الخير ـ ولكن عندما يكون المخاطَب هو النبي صلى الله عليه وآله ويراد به نفسه بصورة مباشرة، فلا شكّ أنّ أسلوب القرآن الكريم يختلف، ولابدّ أن تكون الوصية التي يوصَى بها من خيرة الوصايا.

ما يؤكّد أنّ الخطاب موجَّه إلى النبي صلى الله عليه وآله على نحو ما أسلفنا أنّ الآية الكريمة لم تتصدّر بقوله تعالى: «قل» كما هو الحال في كثير من الموارد؛ مثل قوله تعالى : ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا...**﴾[1]، ونظائرها من الآيات، بل وجّه النصيحة والموعظة والوصية للنبي مباشرة، فقال: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا**﴾.

وكأنّ الآية تنهى النبي صلى الله عليه وآله عن التطلّع إلى ما متّع الله به الآخرين من المتع الدنيوية، أو النظر إلى ما عندهم من مباهج وزخارف نظرة إعجاب وتحسّر، وذلك ليكون وقعها أكبر في نفوس المسلمين؛ لا فرق في تلك المتع والمباهج إن كانت أموالاً أو أولاداً أو أزواجاً أو قصوراً أو إمكانات أخرى من قبيل العلم أو الجمال أو الشخصية والوجاهة، فكلّها في نظر القرآن

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

الكريم زينة لهذه الدار المشحونة بالآفات والكدورات.

كما تُلفت الآية إلى أنّ مَن كان يتمتّع بهذه المتع فليعلم أنّها كلّها من الله تعالى، فمَن كان يملك أموالاً فالله سبحانه هو الذي متّعه بها، ومَن كان ذا علم فإنّ الله تعالى هو الذي أفاضه عليه، ومَن كان يحظى ببسطة في الجسم أو طلاقة في اللسان أو ذكاء مفرط أو جمال كثير أو قصور راقية أو أيّة نعمة ومزيّة فكلّها من الله لأنّ الآية تقول: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ**﴾، أي نحن الذين أعطيناهم ذلك ومتّعناهم به.

وهذا كلّه ليس مهمّاً، إنما المهمّ من هذه الأمور كلّها أنّه فيم تستعمل وتستغلّ، أمِن أجل الله، أم من أجل الشهوات؟ ولذلك تقول الآية: ﴿**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ أي لننظر كيف يعمل بها، فهي من باب الامتحان والابتلاء وليست تعبيراً عن التفضيل والاحتفاء.

فما أحوج الإنسان إلى اتّباع الوصايا الإلهية، سواء تلك الوصايا التي أوصى بها المولى تعالى خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله ليريد الناس بها، أو تلك الوصايا الصادرة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

إنّ الناس يقتدون بأهل العلم ويتعلّمون من سيرتهم، ولذا فهم يحاسبون على أعمالهم من جهتين، الجهة الأولى كونهم كسائر الناس، حيث يحاسَب كلّ إنسان على عمله، والجهة الثانية لما يستتبع اقتداء الناس بهم من جهة كونهم علماء أو طلبة علم أو ما شابه.

ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى

روي أنّه: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله براعي إبل، فبعث يستسقيه، فقال: أمّا ما في ضروعها فصبوح الحيّ، وأمّا ما في آنيتنا فغبوقهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **اللهمّ أكثِر ماله وولده.** ثمّ مرّ براعي غنم، فبعث إليه يستسقيه،

فحلب له ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن نزيدك زدناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **اللهمّ ارزقه الكفاف.** فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، دعوت للذي ردّك بدعاء عامّتنا نحبّه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلّنا نكرهه! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى، اللهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف**»[1].

إنّ أكمل عقل خلقه الله عزّ وجلّ هو عقل رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا هو منطقه، فإنّ الذي عنده الكفاف هو في مأمن، أمّا صاحب الزيادة فمعرّض للأخطار. فكلّما ازداد المرء أموالاً زادت التزاماته ومسؤولياته وازداد تحديداً وتقييداً. إنّ طالب العلم إذا كان موسراً تراه لا يبلغ المراحل العلمية العالية في الغالب، لأنّها ستشْغله عن هدفه الأصلي. ولا نقصد أنّه سينصرف عن الإيمان، ولكن الأموال تُشغله وتأخذ من وقته وفكره، فيتأخّر عن الدراسة وارتقاء الدرجات، ولهذا نرى معظم مراجع الدين ينحدرون من عوائل فقيرة، وذلك لأنّ ابن الغني غالباً لا يتيسّر له الرُّقيّ في هذه المجالات.

وأكرّر القول أنّ هذا ليس بمعنى ذمّ الغنى بما هو غنى، بل لبيان كونه يمنع الإنسان غالباً، والحال أنّ المطلوب أن يسمو ويتكامل ويرتقي، فكلّما طوّقت عوارض الدنيا عنقه حالت دون سموّه بالطبع إلاّ إذا كان قويّ النفس بحيث لا تشغله ولا تحدّه هذه الأمور.

وهكذا الحال مع باقي النعم وما متّع الله به العباد، كالجاه والملكات والقوى والاستعدادات، ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالكفاف لراعي

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٤٠، باب الكفاف، ح٤.

الغنم.

ما المقصود بالكفاف؟

الكفاف هو المقدار الذي يكفي الإنسان لسَنته. ويظهر من عدّة أمور، منها:

- المقدار الضروري الذي يحتاجه لمعيشة نفسه.
- ما يحتاجه لحفظ كرامته. فمثلاً لا يليق بالرجل أن يخرج إلى الشارع بسروال قصير فقط وإن كان يمكنه أن يعيش به وحده، لكنّه يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك لحفظ كرامته الاجتماعية، لأنّه لو خرج بسروال قصير فقط لتعرّض للسخرية والحطّ من شأنه وشخصيته.
- ما يحتاجه لتوفير العيش الكريم لمَن يعيلهم، كالزوجة والأولاد، وبحكمهم الضيوف، خاصة لمَن كان من شأنه ذلك. ولاشكّ أنّ الإنسان يستحبّ له أن يتقشّف في مصارفه الشخصية، ولكنّه لا يستحبّ له أن يتقشّف على عائلته وضيوفه، بل العكس هو الصحيح.
- ثمّ إنّ الله تعالى أمر المسلمين بالعمل من أجل بلوغهم الاكتفاء الذاتي وعدم خضوعهم اقتصادياً للكفّار، فقد يريد التاجر مثلاً أن يترك عمله لأنّه قد حصل على ما يكفيه من المال، ولكنّ الإسلام يأمر أتباعه بالتجارة لئلاّ تنتقل أزمّة اقتصاد البلاد والعباد إلى الكفّار، وهكذا تكون مواصلة العمل بالتجارة جزءاً من الكفاف المطلوب اجتماعياً وإن كان التاجر المسلم قد وصل إلى مرحلة الكفاف الشخصي.

وما عدا هذه الأمور المتقدّمة يُعدّ زيادة، وفخّاً، على الإنسان المسلم أن

يحذر منه بدلاً من أن يتمنّاه.

الهدف سمو النفس

ينبغي للإنسان أن يتقشّف على نفسه، ولكنّه يستحبّ له أن يبذل على عائلته وضيوفه، وينبغي للإنسان المسلم أن يقنع بما يسدّ حاجته ولا يمدّ عينيه إلى المزيد إلاّ فيما أمر الإسلام. وهذه الأمور وأمثالها تكشف عن أنّ هدف الإسلام هو تربية الإنسان لكي يسمو ويتكامل روحياً، ولقد ذكرنا ذلك مراراً، وإنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ إذا آثر الإنسان بما يحبّ. قال تعالى: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[١].

إنّ أغلب الناس يسعى لأن يأكل الأفضل ويلبس الأجود ويسكن الأرفه... ولكنّه عندما يريد أن يعطي وينفق فإنه يُخرِج الأدوَن والأقلّ وما لا حاجة لنفسه فيه. فإذا أراد أن يعطي فاكهة لفقير ـ مثلاً ـ أعطاه الفاكهة الرديئة، وإذا سُئل عن ذلك، قال: لأنّه متعوّد على أكلها. وإذا أراد أن يعطيه مالاً أعطاه قليلاً جداً، مدّعياً أنّ ذلك يكفيه، وأنّه لا يأمل أكثر من ذلك؛ غافلاً عن أنّ للإنفاق هدفين، الأوّل سدّ حاجة المنفَق عليه، والثاني تحقيق الكمال للمنفِق نفسه، فإنّ الله تعالى قادر على أن يعطي الفقير ويغنيه كما هو قادر على أن يسلب الغني ويفقره، ولكنّه سبحانه جعل هذا التفاضل من أجل الامتحان والابتلاء والتربية لهما معاً؛ ولذلك قال تعالى وهو الحكيم: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء**﴾[٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

من مواعظ السيد المسيح

ذهب عيسى ـ إلى مكان ما ـ وصحبه يهوديّ وكان مع اليهودي رغيفان ومع عيسى رغيف، فقال له عيسى: تشاركني؟ قال اليهودي: نعم، فلما رأى أنّه ليس مع عيسى إلاّ رغيف ندم، فلما نام عيسى جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف. أكل لقمة، قال له عيسى: ما تصنع؟ فيقول له: لا شيْء. فيطرحها حتى فرغ من الرغيف كلّه، فلما أصبحا قال له عيسى: هلمّ طعامك، فجاء برغيف، فقال له عيسى: أين الرغيف الآخر؟ قال: ما كان معي إلاّ واحد. فسكت عنه! وانطلقوا فمرّوا براعي غنم، فنادى عيسى: يا صاحب الغنم، أجزرنا شاة من غنمك. قال: نعم، أرسِل صاحبك يأخذها. فأرسل عيسى اليهودي، فجاء بالشاة فذبحوها وشووها، ثم قال لليهودي: كل ولا تكسر عظماً. فأكلا فلما شبعوا قذف عيسى العظام في الجلد ثم ضربها بعصاه، وقال: قومي بإذن الله. فقامت الشاة تثغو[١]، فقال: يا صاحب الغنم، خذ شاتك. فقال له الراعي: مَن أنت؟! قال: أنا عيسى ابن مريم. قال: أنت الساحر. وفرّ منه.

قال عيسى لليهودي: بالذي أحيى هذه الشاة بعدما أكلناها، كم كان معك من رغيف؟

فحلف ما كان معه إلاّ رغيف واحد.

فمرّ بصاحب بقر فقال له: يا صاحب البقر، أجزرنا من بقرك هذه عجلاً.

فقال: ابعث صاحبك يأخذ.

فقال: انطلق يا يهودي فجئ به.

فانطلق فجاءه به فذبحوه وشووه وصاحب البقر ينظر، فقال له عيسى:

---

(١) الثغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلها. لسان العرب لإبن منظور: (مادّة ثغا).

كل ولا تكسر عظماً.

فلمّا فرغوا قذف العظام في الجلد ثم ضربه بعصاه وقال: قم بإذن الله.

فقام له خوار.

فقال: يا صاحب البقر، خذ عجلك.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا عيسى.

قال: أنت الساحر. ثم فرّ منه.

قال اليهودي: يا عيسى أحييته بعدما أكلناه؟!

قال: يا يهوديّ! فبالذي أحيى الشاة بعدما أكلناها، والعجل بعدما أكلناه، كم رغيفاً كان معك؟

فحلف بذلك ما كان معه إلاّ رغيف واحد.

فانطلقا حتى نزلا قرية، فنزل اليهودي في أعلاها وعيسى في أسفلها، وأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى وقال: أنا الآن أُحيي الموتى. وكان ملك تلك القرية مريضاً شديد المرض، فانطلق اليهودي ينادي من يبغي طَبيباً، حتى أتى مِلك تلك المدينة فأخبره بوجعه، فقال: أدخلوني عليه فأنا أُبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أُحييه.

فقيل له: إنّ وجع الملك قد أعيى الأطبّاء قبلك، ليس من طبيب يداويه ولا يغني دواؤه شيئاً إلاّ أمر به فصلب.

فقال: أدخلوني عليه فإني سأُبرئه.

فأُدخل عليه، فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات. فجعل يضربه وهو ميّت ويقول: قم بإذن الله.

فأُخذ ليُصلب فبلغ عيسى، فأقبل إليه وقد رُفع على الخشبة، فقال: أرأيتم

إن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لي صاحبي؟

قالوا: نعم.

فأحيى عيسى الملك، فقام وأنزل اليهودي، فقال: يا عيسى أنت أعظم الناس عليَّ مِنّة. والله، لا أفارقك أبداً.

فخرجوا، فمرّوا بثلاث لبنات، فدعا الله عزّ وجلّ عيسى فصيّرهن من ذهب.

قال: يا يهودي، لبنة لي ولبنة لك، ولبنة لمَن أكل الرغيف.

قال أنا أكلت الرغيف... .

ثمّ إنّ عيسى عليه السلام تركه مع اللبنات الثلاث وانصرف. فأتاه رجلان، فأرادا أن يأخذاه ويقتلاه.

قال: هو بيننا أثلاثاً.

فقالا له: إنّا لا نستطيع هذا الذهب إلاّ أن نحمله على شيء، فخذ من هذا الذهب فاشترِ لنا به طعاماً واشترِ لنا ظهراً نحمل عليه من هذا الذهب.

فانطلق لما أمراه به، فأتى الشيطان الرجلين فقال لهما: إذا أتاكما فاقتلاه واقسما المال نصفين.

فلما أحكم أمرهما انطلق إلى الآخر فقال: إنك لن تطيق هذين فاجعل في الطعام سمّاً فأطعمهما واذهب بالمال وحدك.

فابتاع من المدينة سمّاً فجعله في طعامهما. فلما أتاهما وثبا عليه فقتلاه ثم قرّبا الطعام فأكلا منه، فماتا.

فانطلق عيسى إلى حاجته ثم رجع فإذا هو بهم قد ماتوا عند الذهب.

فقال لأصحابه: انظروا إلى هؤلاء.

ثم حدّثهم حديثهم، ثم قال: النجاء النجاء، فإنّما هي النار»[١].

فعندما نسمع بمثل هذه القصص من سير الأنبياء ينبغي أن نعتبر بها، لأنّها تذكّرنا فيما إذا مررنا أمام امتحان مشابه، فهل يا ترى سنكون كهؤلاء الرجال الثلاثة الذين ضحّوا بحياتهم من أجل ثلاث قطع ذهبية، أم سنعتبر بقصّتهم؟!

قد لا نركض وراء الذهب لأنّنا نعلم أنّا لا نحصل عليه، ولكن بالنسبة إلى أُمور أخرى أيضاً قد نكون كذلك كحبّ التفوّق على الأقران وحبّ الظهور وغير ذلك.

جعلنا الله من المستفيدين من مواعظ القرآن الكريم ووصايا أهل البيت عليهم السلام، والمعتبرين بما جرى على الأمم الماضين.

---

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق لإبن عساكر: ج٤٧ ص٣٩٦.

(١٢)

قيمة السكوت

روي عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله أنّـه قـال: «**السكوت ذهب والكلام فضّة**»[١].

لكلّ من الذهب والفضّة قيمة ولكن الذهب أغلى من الفضّة كما هو معلوم، وقد لوحظ ذلك في الأحكام الشرعية أيضاً. فدية المرء المسلم ـ مثلاً ـ هي ألف دينار من الذهب أو عشرة آلاف درهم فضّة، وهذا الحديث الشريف يجعل النسبة بين الكلام والسكوت كالنسبة بين الفضّة والذهب، فكما أن للفضّة قيمة وللذهب قيمة، فكذلك يمكن مقارنة السكوت إلى الكلام.

تارة يكون الكلام واجباً، ولاشك أنّ السكوت غير مفضّل عليه في مثل هذه الحالة، كما هو الحال في الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر. وتارة يكون السكوت واجباً ويأثم الإنسان بتركه كما لو أدّى إلى قتل النفس المحترمة، وفي مثل هذه الحالة يكون السكوت مفضّلاً، بل لا يجوز الكلام.

ومن الواضح أنّ الحديث الشريف غير ناظر لمثل هذه الموارد، بل هو يقرّر حقيقة أخلاقية مفادها أنّ السكوت بنفسه ـ إذا لم تكن هناك مرجّحات

---

(١) مستدرك الوسائل: ج ٩ ص١٦ ح١.

للكلام عليه ـ خير وأغلى. ويمكن توضيح الأمر بمثال مادّي:

لو قلنا: إنّ الأرز أغلى من القمح. فإنّ ذلك لا يعني أنّه كذلك في كلّ الظروف والأحوال وبالنسبة لكلّ الأشخاص، ولكنّا مع ذلك نقول: إنّ الأرز أغلى من القمح؛ لأنّ هذا هو الغالب.

إذاً المقصود من الحديث الشريف أنّ السكوت النافع أغلى من الكلام النافع، ما لم يكن هناك مرجّح لأحدهما على الآخر.

وروي أيضاً: «**إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة**»[1]. والصموت مبالغة صامت أي كثير الصمت. والحكمة أغلى شيء في حياة الإنسان.

وهذا الحديث الشريف يكشف أنّ الحكمة تأتي في الغالب من الصمت أكثر ممّا هي في الكلام؛ لأن الحكمة وليدة التأمّل والتدبّر والتعقّل، وهذه كلّها تتحقّق في التأمّل والسكوت.

والأحاديث في هذا المجال عديدة، وهي تفسّر بعضها بعضاً، ومنها الأحاديث التي تنهى الإنسان عن التكلّم فيما لا يعنيه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه الكلام فيما لا يعنيه**»[2]. أي على المرء أن يفكّر في الكلام قبل أن يطلقه ليعرف هل يعود عليه بالنفع؟ فإن لم يعد عليه بالنفع، فليختر السكوت ويتخلّى عمّا كان يريد قوله.

نضرب لذلك مثلاً ماديّاً أيضاً لأنّ الأمثلة المادية تقرّب المعنويات إلى

---

(١) بحار الأنوار: ج١ ص١٥٤ ب٤ ح٣٠، في الوصية الطويلة للإمام الكاظم سلام الله عليه إلى هشام بن الحكم.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٩ ص٣٤ ح٢٢.

الأذهان، والإنسان بطبعه يحسّ بالمادّيات أكثر:

لو خُيِّر إنسان محتاج من الناحية الماديّة بين أمرين: الحضور في ساحة والتكلّم فيها لقاء دينار ـ مثلاً ـ أو البقاء ساكتاً لقاء دينارين، فأيّهما سيختار؟ لاشكّ أنّه سيختار الثاني لأنّه أنفع له وأكثر ربحاً.

السكوت طريق الرقي

بعد أن ضربنا هذا المثال الماديّ نقول:

إنّ السكوت هو الطريق الأفضل والأسرع لرقيّ الإنسان وتكامله؛ لأنّ الإنسان ميّال بطبيعته لأن يقول كلّ ما يشعر به ويعلمه ويعرفه، مع أنّ معظمه لا يتناسب من حيث القيمة مع ما يصرفه من وقت في هذا السبيل، بينما التأمل والتفكّر يعطي نتائج أفضل. وإذا كان الناس يعظّمون المبدعين والمخترعين والمكتشفين، فإنّ الإبداع في كلّ مجالات الحياة لا يظهر نتيجة الكلام كظهوره نتيجة التأمّل.

إذا كان المؤمن صموتاً فإنّ تفكيره لا ينصرف إلى المال والشهوات بل يفكّر في التعالي والسموّ في طريق الخير والهداية والفضائل والكمال، وإذا أصبح كذلك أبدع فكره وأينع قوله وفعله وتفتّحت أمامه آفاق الرقيّ والازدهار.

نقرّب الموضوع بمثال من واقع الحياة الماديّة أيضاً:

لو أنّ شخصاً أراد أن يشتري بضاعة مّا، فتأمّل قليلاً قبل الشراء، فربّما انتهى إلى أنّ هذه البضاعة يمكن اقتناؤها من أمكنة أخرى، وأنّ سعرها قد يكون أرخص مع الاحتفاظ بالمواصفات نفسها. ولو كان هذا الشخص قد بادر إلى شراء البضاعة دون تأمّل وتفكر، فربّما ندم؛ لفوات الأفضل أو الأرخص.

الحالة نفسها تصدق في المعنويات. فالطالب ـ مثلاً ـ يتأمّل ويفكّر في

اختيار الدروس وسلوك الطريق الذي يختصر فيه الوقت. والمحاضر يفكّر كيف يرفع من مستوى الحاضرين، والداعية يخطّط قبل أن يبدأ بهداية الشباب، وهكذا المجاهد والعالم والقائد.. كلٌّ يبحث بالتأمّل والتدبّر عن أسهل الطرق وأسرعها بلوغاً للهدف. وهذا كلّه لا يأتي إلا بالصمت. فبه وبالتأمّل وملاحظة الأمور ومقارنتها، بلغ العظماء ما بلغوا.

وعندما نراجع سيرة العظماء وندرس تاريخ العلماء ومراجع الدين نجد أنهم كانوا كثيري الصمت والفكر والتأمّل.

فكّر ثم تكلّم

عن الإمام عليّ سلام الله عليه أنّه قال: «**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**»[1] أي أنّ الأحمق سريع الكلام، يطلق القول قبل أن يفكّر فيه، خلافاً للعاقل، فإنّه يفكّر في الكلمة قبل أن يقولها. نقل عن بعض الحكماء أنّه كان يقول: لا ترسل كلّ كلمة مع أوّل خطورها إلى الذهن بل أرجعها إلى الفكر وتمعّن فيها سبع مرّات قبل أن يطلقها لسانك. ولا شكّ أن من يتريّث إلى هذه الدرجة تقلّ شطحاته وزلاّته غالباً ويقلّ ندمه إثر ذلك[2].

لقد عرف الشيخ محمد تقي الشيرازي رحمه الله بأنّه كان كثير الصمت، كثير الفكر، واشتهر بهذه الصفة حتى تناقلتها الكتب وألسن العلماء. ومن جملة ما نُقل عن أحواله في هذا الصدد أنّه إذا دار نقاش بين تلاميذه في مسألة ما،

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص١١، الكلمات القصار، رقم ٤٠.

(٢) روي عن لقمان أنّه قال:

ما إن ندمت على سكوت مرة ... ولقد ندمت على الكلام مرارا.

أعلام الدين للديلمي: ص٨٨.

كان لا يدخل في النقاش إن رأى أنّه لا يعود بالنفع على الموضوع الذي يتكلّم فيه.

وفي هذا المجال يروى أيضاً أنّه قد صحب النبي صلى الله عليه وآله أو عاصره الآلاف من المسلمين وغيرهم، ولكن الذين عُرفوا واشتهروا بالفضل ـ عدا أهل البيت سلام الله عليهم ـ يُعدّون بالأصابع، ومن أبرزهم أبو ذر الغفاري الذي عُرف عنه من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ أكثر عبادته كانت في التفكّر. فعن أبي عبدالله الصادق سلام الله عليه: «**كان أكثر عبادة أبي ذر التفكّر والاعتبار**»[1].

وهكذا لو ألقيتم نظرة على من حولكم سترون أنّ أكثر الذين بلغوا المراتب العالية في الدنيا والدين والعلوم الدينية وغيرها كالطبّ والهندسة والتجارة هم أناس مفكّرون قد ركّزوا على التفكير والتأمّل. ولهذا عُدّ الصمت من فضائل الأخلاق.

وقتك حياتك

ليس المقصود بالصمت عدم الحديث مطلقاً، فكما أنّ الثرثرة بالباطل ممقوتة فكذلك السكوت عن قول الحق يكون ممقوتاً أيضاً، غاية الأمر المطلوب من الإنسان أن لا يصرف وقته في الحديث غير النافع، لأنّ الوقت أغلى من المال، فإذا كان المال قابلاً لأن يعوَّض، فالوقت غير قابل للتعويض، ولقد ورد في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «**إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة فلا تبيعوها إلاّ بها**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١٩٧.

(٢) نهج البلاغة: ج٤ ص١٠٥، باب الحكم القصار، رقم ٤٥٦.

فحريّ بالإنسان أن يستفيد من ساعات عمره أقصى ما يستطيع. فكما يفكّر باستثمار أمواله على أحسن نحو يمكن، فتراه لا يبذّرها، بل لا ينفقها إلاّ حيث يجب، ولا يعطي منها أكثر مما يجب ـ هذا مع أنّ المال سهل التحصيل نسبةً، ولا يودي ذهابه بحياة الإنسان ـ كذلك يجب أن يكون وقت الإنسان، فهو ثروته الحقيقية، التي توجب عليه أن يحسن كيف ينفقها ولا يبيعها بالتافه.

فلنقرّر من الآن أن نتعوّد على الصمت والاستفادة من الوقت، وهذا لا يتحقّق دفعة واحدة، بل يأتي عبر الممارسة والترويض ويبدأ بالقليل ثم يزداد شيئاً فشيئاً، وذلك بأن يصمّم المرء أن يكون منتبهاً لنفسه كلّ يوم في ساعة معيّنة، فلا يتكلّم إلاّ بعد أن يتأمّل فيما ينبغي أن يتكلّم فيه، ويستمرّ على هذا المنوال لمدّة أسبوع ـ مثلاً ـ بعد ذلك يزيد المدّة إلى ساعتين ويستمرّ هكذا لمدّة أسبوعين أو شهر ـ مثلاً ـ ويستمرّ بزيادة عدد الساعات التي يراقب فيها نفسه مع مرور الزمن، حتى تصبح الحالة ملكة عنده.

هذه التجربة التي أنقلها لكم خلال عدّة ثوان أو دقائق يحتاج تحقيقها إلى وقت طويل، ولكنّها ثمينة جدّاً، لأن ما يحصل عليه الإنسان منها هو أغلى شيء في الحياة، وهو عمره وتاريخه وحياته، بل ثروته الحقيقية في هذه الدنيا التي يتاجر بها لكي يربح الحياة في الآخرة.

الفضائل الخمس

إنّ الإنسان المهذار الثرثار الذي يطلق للسانه العنان ويتفوّه بكلّ ما يخطر بباله، ولا يرى قيمة لوقته وحياته، مثل هذا الإنسان لن يصل إلى شيء.

أمّا الذين يهدفون إلى بلوغ جوار الله تعالى والقرب من الأنبياء والمتّقين، فليسوا كذلك، وإنّ التكامل لا يأتي من لا شيء وبلا تأمّل وفكر.

كان للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ولد يكنّى بزيد النار[1] لم يكن سالكاً طريق أبيه، فقال له الإمام الرضا سلام الله عليه يوماً ينصحه: «**إن كنت ترى أنك تعصي الله عزّ وجلّ وتدخل الجنّة وموسى بن جعفر أطاع الله ودخل الجنّة، فأنت إذاً أكرم على الله عزّ وجلّ من موسى بن جعفر. والله، ما ينال أحد ما عند الله عزّ وجلّ إلاّ بطاعته**»[2].

فالذين يريدون أن يكونوا غداً مع أولياء الله في الجنّة، ليس لهم إلى ذلك إلاّ طريق واحد وهو سلوك طريق أولياء الله تعالى، ومن أساسيات هذا الطريق أنّ أصحابه كانوا أهل صمت وتأمّل، وكما ورد في الحديث عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «**الأغلب من غلب بالخير، والمغلوب من غُلب بالشرّ، والمؤمن مُلْجَم**»[3].

وصدق من قال: حجب الله سبحانه اللسان بأربع مصاريع لكثرة ضرره: الشفتان مصراعان، والأسنان مصراعان[4]. فلماذا لا يلتزم الإنسان الصمت رغم كلّ ذلك؟!

هب أنّ بعض الكلام ليس حراماً، ولكن لماذا الإسراف والتبذير؟ أجل إنّ هذا من أسوأ أنواع الإسراف وإن لم يذكر تحت اسمه، وقد لا يعرف ذلك كثير من الناس، مع أنّه قد يكون أسوأ من إسراف المال أحياناً.

---

(١) خرج بالبصرة زمن المأمون العباسي، وقد أحرق دور بني العباس، فسمّي بزيد النار. راجع سرّ السلسلة العلويّة لأبي نصر البخاري: ص٣٧، أولاد الإمام أبي إبراهيم موسى بن جعفر الكاظم سلام الله عليه.

(٢) عيون أخبار الرضا سلام الله عليه للصدوق: ج١ ص٢٥٩ باب قول الرضا سلام الله عليه لأخيه زيد، ح٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٧٥.

(٤) انظر شجرة طوبى للحائري: ج٢ ص٣٩٧، تعليق المؤلف على قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **ما شيء أحق بطول الحبس من اللسان**.

ظهر مما تقدّم أنّ الصمت أحد الفضائل الأخلاقية التي لايمكـن بلوغهـا إلاّ بالتجربة، والتي تحتاج هي الأخرى إلى زمن، وإلى ثبات وصمود. بيد أنّه إضافة إلـى ذلك ينبغي للإنسان أن لا يغفل عن الاعتماد على الله سبحانه وتعـالى والتوسّـل بـه وصولاً إلى النتيجة المرجوة؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ**﴾[١].

فهذه خمس فضائل: معرفة قيمة الوقت، والتأمّل قبل الكـلام، وتـرويض النفس، والثبات، والاعتماد على الله تعالى، يمكن للإنسان من خلالها الوصول إلى فضيلة الصمت التي إن وُفّقنا لبلوغها فسنشعر حينها كم أهدرنا من وقتنـا وكلامنا بلا نفع لأنفسنا ولا لغيرنا. فلننتهز الفرصة قبل أن يأتي يوم لا نستطيع أن نزيد فيه من حسناتنا ولا أن ننقص من سيّئاتنا.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(١٣)

الترويض والهداية وجمال التعبير

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله عدّة خطَب في استقبال شهر رمضان المبارك، منها الخطبة المعروفة التي مطلعها: «**أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة**»[1].

ويمكن أن يُستظهر من بعض الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يستقبل شهر رمضان من كلّ سنة بخطبة خاصّة، إمّا في أوّل الشهر أو قبل حلوله. فهناك عدّة خطَب مرويّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في استقبال هذا الشهر الفضيل، منها هذه الخطبة التي يرويها الشيخ الصدوق رضوان الله عليه والتي ينتهي بسندها إلى الإمام الرضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليهم، والتي تبدأ بقوله صلى الله عليه وآله: «**أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله...**» ولعلّ العديد منكم يحفظها فأنتم أهل علم ووعظ وإرشاد.

أفضل الأعمال في شهر رمضان

لست الآن بصدد تفسير الخطبة وبيان مفرداتها، فهي خطبة عظيمة وتحتاج إلى بيان وتفسير واسعين، وإن كان يمكن أن يقال بشأنها وحول

---

(١) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق: ص٧٧ رقم ٦١، والأمالي له: ص١٥٣ رقم ٤، المجلس العشرون.

بنودها مطالب وبحوث كثيرة، لكنّي أريد هنا أن أذكر شيئاً واحداً وهو: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر للمؤمنين في هذه الخطبة عشرين بنداً ـ أو ما ينيف ـ وحثّ المؤمنين عليها وشجّعهم على امتثالها، ولكن حينما توجّه إليه أمير المؤمنين سلام الله عليه في نهاية الخطبة بسؤال عن أفضل الأعمال في هذا الشهر ـ علماً أنّ سؤال الإمام ليس لنفسه وإنّما هو لي ولك ولعامّة الناس ـ لم يذكر النبيّ صلى الله عليه وآله في جوابه أيّاً من البنود التي جاء على ذكرها ضمن فقرات خطبته، أي لم يقل له مثلاً: إنّ قراءة القرآن أفضل الأعمال في هذا الشهر أو الإطعام أو أيّ شيء آخر، بل أجابه بأمر آخر لم يكن ضمن بنود الخطبة الشريفة؛ إذ قال له: «**الورع عن محارم الله**».

ما هو الورع؟

والورع أفضل الأعمال في كلّ وقت وزمان وإن خُصّ في هذا الشهر الكريم بالذات. إذاً، فما هو المقصود من الورع؟ وما ينبغي لنا فعله ـ نحن الخطباء والوعّاظ وطلاّب العلوم الدينية خصوصاً ـ صيانة لأنفسنا في هذا الشهر العظيم تحديداً؟

إنّ أوّل مقتضيات الورع أن يجتنب الإنسان عن المحرّمات فلا يقربها.

ولاشكّ أنّ كلّ إنسان تتناسب تكاليفه وواجباته مع مقدار معرفته ومدى فهمه وعلمه، فكلّما ازداد الإنسان علماً ومعرفة تضاعفت مسؤولياته وواجباته.

ولكي يكون الورع حليتنا ـ أعني، أهل العلم والمرشدين المتصدّين لهداية الناس ـ يتحتّم علينا واجبان أساسيان، بدونهما لا يتحقّق الورع عندنا:

الواجب الأول: ترويض النفس

لا يمكن للنفس البشريّة أن تستقيم هكذا بسهولة وبسرعة من دون حاجة إلى ترويض ومقدّمات. بل هي بحاجة إلى رياضة مستمرّة، وكما يقول مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في بعض كلماته:

«وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»[1].

فترويض النفس إذاً من أهمّ الواجبات العينية بالنسبة إلى كلّ فرد، ويتأكّد بالنسبة لنا ـ نحن الوعّاظ والمبلّغين وعلماء الدين ـ لأنّ كلّ واحد منّا يتعلّم منه أفراد وربّما جماعات ويتلقّون منه ويقتبسون ويقتفون أثره، ويتأثّرون بكلامه وتصرّفاته.

فإنّك وإن كنت فرداً في وجودك الخارجي لكنّك لست كذلك في العمل؛ لأنّ هناك مَن يعتبرك مرشداً وهادياً ويقتدي بأفعالك سواء كنت خطيباً أو عالماً.

أنقل لكم قصّة عن أحد العلماء الماضين رضوان الله عليهم، كما رواها لي بنفسه؛ قال:

لما عدت إلى قريتي ومسقط رأسي لزيارة أهلي وذويَّ بعد أن فارقتهم لسنوات عدّة من أجل الدراسة، جاء أهل القرية بدورهم لزيارتي والاحتفاء بي. وفي أحد الأيّام سألني قريب لي قائلاً: هل يستحبّ تقديم الرجل اليمنى إذا أريد الدخول في خزانة الماء في الحمّامات؟

يقول العالم: قلت له: لا. فهذا الحكم ـ أي تقديم اليسرى عند الدخول واليمنى عند الخروج ـ مختصّ ببيت الخلاء، أمّا بالنسبة لغيره كالحمّامات

---

(١) نهج البلاغة: ٣ج ص٧٠ رقم٤٥. من كتاب له سلام الله عليه إلى عثمان بن حنيف.

وأحواض الماء فلم يُروَ مثله.

فقال لي مستغرباً: إنّ فلاناً ينقل عنكم ذلك!

قلت له: أنا لا أعلم هذا الشيء، فكيف يُنقل عنّي؟!

قال: لكنّ فلاناً ملتزم به طول هذه المدّة، وهو ينقله للآخرين حتى صاروا متعبّدين به لأنّه ينقله عنكم!

يقول العالم: عجبتُ من الأمر، لأنّني لم أرَ هذا الحكم طيلة حياتي ولا سمعت به، فكيف ينقله هذا الشخص عنّي وينسبه لي، ولم أكن قد قلته له لعدم علمي به؟

يقول العالم: فطلبت ذلك الشخص، وسألته: أ أنت نقلتَ عنّي استحباب تقديم الرجل اليمنى عند دخول خزانة الحمّام، وتقديم اليسرى عند الخروج؟ قال: نعم.

قلت: متى قلت لك هذا؟

قال: إنّك لم تقله لي مباشرة، ولكنّي نظرت إليك عندما جمعني الحمّام وإيّاك ذات يوم، فلاحظتُك تعمل هكذا ـ أي تقدّم رجلك اليمنى حين الدخول، واليسرى حين الخروج ـ .

قلت: هذا شيء عادي وليس بعنوان كونه مستحبّاً.

والآن أيّها الإخوة، انظروا إلى قصّة هذا العالم واعتبروا! لقد اتّخذوه أسوة حتّى في العمل العادي؛ ممّا يثبت لنا أنّنا لسنا أفراداً في العمل وإن كنّا كذلك في وجوداتنا الخارجية، بل إنّ كلّ واحد منّا هو مرجع تقليد بمستوى تأثيره ونسبة حضوره. لا فرق في ذلك بين طالب العلم والخطيب، وعالم القرية والمدينة، فكلّ على قدره ومستواه؛ ممّا يكشف أنّنا غير مسؤولين عن أنفسنا فحسب، بل حتى عن أولئك الذين يتعلّمون منّا، حين يلاحظوننا في كلّ

شيء، حتّى في أعمالنا وحركاتنا الصغيرة والعفوية.

ما ذكرته لا ينحصر بذلك العالِم ولا بالعلماء والمراجع وحدهم، بل يشمل كلّ من له تأثير في المجتمع وإن كان في مستويات أقلّ.

تغيير النفس بحاجة إلى مقدّمات

فإذا كان تغيير النفس من الواجبات العينية بالنسبة لنا، فهذا يعني أنّ على الإنسان أن يمهّد لها السبل والأساليب التي تجعله لا يعصي الله تعالى، وهذا أمر لا ينبغي الاستهانة به، بل لابدّ له من تهيئة مقدّمات وتمهيدات تساعده على ذلك، وكما قال الإمام سلام الله عليه: «أروضها».

إنّ رياضة النفس أكثر صعوبة في مواجهة النوازع والغرائز الشهوانية التي تعتري الإنسان بحكم تعايشه مع البيئة والمجتمع، وهي موانع قوية جدّاً من قبيل: الأنا والهوى وما يستتبعهما وكما قال الشاعر:

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلّهم أعدائي[1]

هذه الموانع جميعها تواجهنا وبقوّة، ولكي نسيطر عليها ونكبح جماحها يتطلّب الأمر منّا همّة قويّة معاكسة للتغلّب عليها. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً؛ وكما ورد في هذه الخطبة المباركة نفسها من قول المصطفى صلى الله عليه وآله: «**والشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم**» فلنكن حذرين، يقظين، منتبهين جدّاً.

فما من فرصة للرياضة الروحية وترويض النفس أعظم من الصوم؛ فالإنسان الخاوي البطن تقلّ شهواته، وتتقاعس رغبات نفسه الأمّارة بالسوء،

---

(١) من قصيدة للشافعي. راجع كشف الخفاء للعجلوني: ج١ ص٤٠.

كلٌّ حسب استعداده في تقرّبه إلى الله تعالى. وهذه الأجواء الرائعة متوافرة في شهر رمضان أكثر من غيره من الشهور والأيّام، أي: إنّ أجواء هذا الشهر تساعد الإنسان على ترويض نفسه، فلنتّخذ من هذا الشهر الكريم مناسبة لتغيير أنفسنا فيه حقيقة.

وهذا شيء ممكن، وهو في هذا الشهر أسهل؛ لأنّ الإنسان مهما يكن بعيداً ـ والعياذ بالله ـ عن الخير والصلاح والتقوى، يمكنه أن يستفيد من أجواء هذا الشهر لتغيير نفسه، فإنّ الله تعالى قد أودع هذه القدرة في الإنسان، وفرض عليه الصوم في شهر رمضان كي تكون له فرصة مناسبة جدّاً لإتمام هذا الأمر.

من الممكن أن يغيّر الإنسان نفسه ولو خطوة خطوة. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً للتغيير.

لا تقولوا: نحن طلاّب علوم دينية نصلّي ونصوم ونقرأ القرآن وندرس وندرّس ونخطب ونكتب؛ واعلموا أنّ الشيطان يركّز عليكم أكثر، ولا حاجة به إلى غيركم لطمعه فيكم، فأنتم همّه الأوّل والأكبر.

روي عن أبي جعفر سلام الله عليه قال: «**إنّ الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدّد، ثمّ قال: فُزت**»[١].

إنّ الشيطان يحاول أن يؤثّر فينا مهما وسعه، ثمّ يتشجّع للتقدّم أكثر. فلو استطاع أن يؤثّر في مجموعنا بنسبة الواحد في المئة كان ذلك العمل عنده خطوة إلى الأمام، فيطمع بالاثنين في المئة حتّى يصل ـ لا سمح الله ـ إلى

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٤٥، باب ذي اللسانين، ح٦.

التسعة والتسعين في المئة.

إذاً نحن ـ جميعاً ـ بحاجة إلى ترويض وانتباه بحيث إذا دخل أحدنا شهر رمضان وخرج منه يكون قد تغيّر ولو قليلاً، وملاك التغيّر هو العمل بالمستحبّات وترك المكروهات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «**وما منكم أحد إلاّ وله شيطان**». فقيل له: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا، ولكنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم**»[2].

الشقي من حرم رضوان الله

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الخطبة الشريفة: «**فإنّ الشقيّ مَن حُرم رضوان الله**»[3].

إنّ الألف واللام الداخلة على كلمة «شقيّ» في هذه العبارة تدلّ ـ كما تعرفون في علم البلاغة ـ على الحصر، أي: إنّ مَن حُرم غفران الله في هذا الشهر فهو الشقيّ لا غير. إذاً هذا الشهر مناسبة جيّدة للتغيير.

فإذا انتهت هذه المناسبة ومرّت دون أن يحصل الشخص على شيء فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وصفه بالشقيّ؛ لأنّ عشرات الأبواب بل مئات بل ألوف الأبواب فُتحت لصلاح الإنسان في هذا الشهر، لكن هذا الفرد لم يحصل على شيء منها ولا استفاد من أيّ باب، فهو الشقيّ إذاً.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٠ ص٣٢٩، الأخبار الدالّة على وجود الجنّ والشياطين.

(٢) غوالي اللآلي: ج٤ ص٩٧ رقم ١٣٦.

(٣) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق، ص٧٧ رقم٦١ والأمالي له، ص١٥٣ رقم٤ المجلس العشرون.

أنفسنا مرهونة بأعمالنا

إنّ زمام الأمر بأيدينا نحن وليس بأيدي غيرنا، وكلّ واحد منّا زمام نفسه بيده، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله في هذه الخطبة: «**إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم...**».

فكما أنّ أحدكم إذا رهن داره إلى غيره لا يستطيع أن يتصرّف فيها ما لم يفكّ رهنها بالمال، فكذلك أنفسكم رهينة بأعمالكم، أي هي رهينة هذه النظرات والكلمات والأفكار والرواح والمجيء والنوم واليقظة.. إنّ أنفسكم مرهونة بهذه الأشياء، ففكّوها باستغفاركم. أي مع قولكم: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»، ينبغي أن يقترن به ترويض النفس أيضاً، وهو من الواجبات العينية ـ كما قلنا ـ وكلّ ما علينا أن نعزم ونهمّ بالأمر، والتوفيق من الله.

إننا في أيّ مرتبة كنّا من مراتب التقوى والورع والرياضة النفسية فهناك المزيد من المجال للتحوّل والارتقاء. وعلينا أن ننتهز الفرص كشهر رمضان، فهو كما قلنا أحسن فرصة لترويض النفس وتغييرها.

الثواب في رمضان يضاعَف سبعين ضعفاً

أشار رسول الله صلى الله عليه وآله في الخطبة نفسها قائلاً: «**وجعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله، ومن أدّى فيه فريضة من فرائض الله، كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور**». وهذا معناه أنّ كلّ فريضة في شهر رمضان لها ثواب سبعين فريضة في غيره. أي: أنّك لو أمرت بالمعروف في هذا الشهر أو نهيت عن المنكر فثواب عملك سيكون سبعين ضعفاً.

ولو ألّفت كتاباً في شهر رمضان أو خطبت خطبة أو أسّست مكتبة أو هيئة لإرشاد الناس، أو قمت بالتدريس، أو ساعدت المحتاجين في هذا

الشهر، أو سعيت لترويض نفسك وتغييرها، فثوابه عند الله يعادل سبعين مرّة ما لو عملت مثله في غيره من الشهور. فمجلس واحد في شهر رمضان يعادل سبعين مجلساً في غيره وهكذا.

الواجب الثاني: هداية الناس

أنتم طلبة فقه وأصول وتعرفون أنّ الواجب الكفائي قد ينقلب عينياً إذا لم يوجد مَن فيه الكفاية، ومن جملة الواجبات الكفائية هداية الناس وإرشادهم، ولكنّي أسأل: هل يوجد العدد الكافي اليوم لهداية كلّ الناس؟ فهذا الكمّ الهائل من الغافلين والجاهلين بفروع الدين وأصوله من أتباع الدين الإسلامي ـ ناهيك عن الديانات الأخرى ـ هل يوجد مَن فيه الكفاية لهدايتهم وإرشادهم؟ كلاّ. إذاً، التصدّي للإرشاد والهداية واجب عينيّ أيضاً. وله مقدّمتان كلتاهما مهمّتان:

المقدّمة الأولى: تحصيل العلوم الإسلامية

إنّ الناس في هذا الزمان خصوصاً الشباب ولا سيّما طلاّب المدارس العامّة والجامعيين منهم، هم بأمسّ الحاجة لمَن يقول لهم ما هي الواجبات وما هي المحرّمات، فأكثر هؤلاء أذهانهم محشوّة بعشرات، بل مئات الأسئلة حول الإسلام وتشريعه، بانتظار مَن يجيبهم، الأمر الذي يحتاج منّا إلى علم ودراسة عميقين، فلا يتمكّن كلّ شخص أن يجيب عن أسئلتهم بسهولة ويعرّض نفسه للجواب والخطاب والكتاب والنقاش من دون علم، بل إنّ ذلك يحتاج إلى أرضية وتعبئة علمية وافية.

كما لا يخفى أنّ مقدّمة الوجود للواجب المطلق ـ حسب اصطلاح العلماء ـ واجبة أيضاً. فإذا وجب شيء على الإنسان، وتوقّف ذلك الشيء

على شيء آخر، صار ذلك الشيء الآخر واجباً عليه أيضاً.

فمَن وجبَ عليه الحجّ ـ مثلاً ـ لا يُقال له: يجب عليك ركوب الطائرة أو السيّارة أو إعطاء النقود لهذا الغرض، بل هذه الأمور تجب عليه بداهة من باب وجوب الحجّ عليه وتوقّف الحجّ عليها بحسب استطاعته.

وهكذا الأمر بالنسبة لإرشاد الناس وهدايتهم. فهو واجب كفائي، لمَن توجد فيه الكفاءة، ولهذا الواجب مقدّمات قد تصبح واجبة من باب كونها مقدّمات وجود الواجب. فالمهمّ والواجب هو أن يتمّ إرشاد الناس وهدايتهم ليتحقّق انتشالهم من الانحراف والتيه والضلال، فإذا توقّف هذا المهمّ على مقدّماته كالتهيّؤ والاستعداد العلمي، وجبت كذلك من باب الملازمة.

فنحن مهما أوتينا من العلم فهناك آلاف الأسئلة التي لا نعرف لها جواباً يلزم أن نتهيّأ لها. وشهر رمضان مناسبة جيّدة لأن يستثمرها كلّ منّا حسب مقدرته، لأنّ كسب المقدّمات يعدّ من الواجبات المهمّة في هذا المجال وغيره ممّا له صلة بالتقرّب إلى الله سبحانه.

إنّ تهيئة هذه المقدّمات أهمّ من قراءة القرآن في شهر رمضان فيما إذا اقتصر الهدف من القراءة على طلب الثواب والتبرّك، لأنّ قراءة القرآن بهذه الصورة المجرّدة تعتبر مستحبّة لكنّ التهيّؤ العلمي للقيام بدور الإرشاد والتبليغ واجب.

لاشكّ أنّ قراءة القرآن مقدّمة لمعرفته، ومعرفته مقدّمة للعمل به ومقدّمة لتعليمه للآخرين، وهي مقدّمة لإرشاد الناس إلى القرآن، بيد أنّ القراءة بذاتها مستحبّة، وهذا الأمر ـ التحصيل العلمي ـ مقدّم عليها، إلاّ إذا كانت القراءة بتدبّر وتفكّر، حينها ستكون هي الأخرى مقدّمة وتعبئة علمية، ضمن مقدّمات الوجود في مجال ترويض النفس، فإذا روّض الإنسان نفسه بقراءة القرآن والتفكير عميقاً في معانيه والتأمّل في آياته، مهّد لنفسه أساساً متيناً في أساليب

ترويض النفس، يساعده أكثر في بلوغ أهدافه ممّا إذا كانت قراءته للقرآن مجرّد قراءة وإن كانت مستحبّة.

صحيح أنّ كلّ آية يقرأها الإنسان في شهر رمضان ـ كما ورد في الخطبة الشريفة نفسها[١] ـ تعدل قراءة القرآن كلّه في غير شهر رمضان؛ لكنّ الحديث في مقدّمات الواجب. فإذا كانت القراءة من باب المقدّمية للواجب، فهي واجبة بلا شكّ وإلاّ فـ «**لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض**»[٢].

إذاً فإرشاد الناس يعدّ من الفرائض العينية فعلاً، وإن كان من الفرائض الكفائية بذاته؛ لأنّ علماء الإسلام يُجمعون على أنّ الواجب الكفائي ينقلب عينيّاً إن لم يوجد مَن به الكفاية على أدائه، وكلّ على قدر سعته.

أجل: إنّ هداية الناس أفضل من مجرّد القراءة للاستحباب، كما نقول: عليكم أنتم طلاّب العلوم الدينية أن تكونوا مشغولين دائماً بالدراسة والتدريس والكتابة والتأليف، وشهر رمضان أفضل مناسبة لهذه الأمور.

المقدّمة الثانية: جمال التعبير في القلم والكلام

يعتبر القلم والبيان في هداية الناس وإرشادهم بمثابة إناء الإرشاد وظرفه ووعائه.

فالطعام مهما كان لذيذاً وطيّباً إلاّ أنّه قد لا يستساغ فيما لو وُضع في إناء أو وعاء غير نظيف أو غير صحّي، فترى الإنسان لا يفكر أن يمدّ يده نحو مثل هذا الطعام ليرى إن كان لذيذاً أم لا، وذلك لوجوده في وعاء غير مناسب. أمّا إذا جيء بطعام عاديّ ولكن في إناء نظيف وجميل فسوف

---

(١) في قوله صلى الله عليه وآله: «**ومن تلا فيه آية من القرآن، كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور**». راجع الخطبة موضع الاستشهاد.

(٢) وسائل الشيعة: ج٤ ص٢٨٦ ب٦٠ ح٧، من شك قبل خروج الوقت... .

تتناوله الأعين قبل الأيدي بشوق وإن لم يكن بمستوى الطعام الأوّل.

ووعاء الهداية والإرشاد هو القلم والبيان. فكلّما كانت الكتابة أجمل كان التأثير أفضل وأحسن. انظروا إلى القرآن وكلام الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل البيت سلام الله عليهم، أوَليس كلّ ذلك قدوة لنا؟

إنّ القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فلماذا يهتمّ بجمال الأسلوب والتعبير؟ نقول في الجواب: إنّ ذلك جزء من عملية الهداية. وهكذا الحال بالنسبة لكلام المعصومين سلام الله عليهم.

كثير من علماء المشركين والنصارى واليهود، اهتدوا عبر جمال التعبير في القرآن الكريم.

إنّ الجمال مهمّ ومطلوب لهداية الناس، فلا يكفي أن يكون المطلب صحيحاً، بل لابدّ من جمال الأسلوب والتعبير أيضاً.

إذا كان الناس يبحثون عن البروتين في اللحم فلماذا لايكتفون بتناوله وحده هكذا من دون توابل ومرق و... مع أنّه هو الأساس، فنراهم يخلطون معه عشرات الأشياء لا لشيء إلاّ ليصبح لذيذاً ومقبولاً؟ هكذا هو الحال مع المعنى الصحيح، فلابدّ أن تجعلوه في وعاء جميل لكي يتقبّله الناس منكم.

وهذا الأمر بحاجة إلى تعلّم وتمرين، لأنّه لا يأتي هكذا عفواً، بأن ينام الشخص ـ مثلاً ـ في الليل ويستيقظ في اليوم التالي وقد أصبح أديباً.

وشهر رمضان فرصة جيّدة لنا لتطوير قابليّاتنا في هذا المجال أيضاً. فبقدر ما نستفيده في هذا الشهر من فيوض الرحمة وأجواء المغفرة، لنستفد أيضاً من هذين الأمرين المهمّين: ترويض النفس، وإرشاد الناس.

أسأل الله سبحانه أن يوفّقنا في هذا الشهر جميعاً لكلّ الصالحات ولكلّ أمور الخير لاسيّما هذين الأمرين: ترويض النفس، وهداية الناس.

(١٤)

مسؤولية العلماء في عصر الغيبة

من المناسب أن نذكر كلمة نعرب فيها لوليّ الله الأعظم صاحب العصر والزمان الإمام الحجّة المنتظر صلوات الله وسلامه عليه عن حبّنا له، وفي الوقت نفسه تكون تذكيراً لنا جميعاً إن شاء الله.

نعرض موضوعين على نحو الاختصار؛ الأوّل: يتعلّق بالإمام نفسه. والثاني: بنا نحن.

أمّا الموضوع الأوّل فقد روي متواتراً عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات مِيتة جاهلية**»[١] أي مات على الكفر.

فكما أنّ معرفة الله هي شرط الإيمان ولكنها لا تكفي ما لم تقترن بمعرفة النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكذلك معرفة النبيّ لا تفي وحدها من دون معرفة الإمام. أي إنّ معرفة الله والنبي لا تنفع من دون معرفة الإمام، بل ليسا بمعرفة من دونها بالمعنى الدقّي.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٣٣١ ب٨، حكم من حارب علياً عليه السلام.

مقادير الأمور بيد الإمام

لقد جعل الله تبارك وتعالى كلّ قوى الكون تحت تصرّف الإمام المعصوم، وهذا الأمر مستدلّ عليه من كلمات المعصومين سلام الله عليهم أنفسهم. هناك زيارة رواها الشيخ الكليني في الكافي وابن قولويه في كامل الزيارات ولها أسانيد متعددة وهي برواية صحيحة، يقول الإمام الصادق سلام الله عليه: «**إرادة الربّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم، والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد...**»[1].

إنّ أهل العلم الأفاضل يعلمون جيداً أنّ الجمع المضاف يفيد العموم، أي له ظهور في العموم. وكلمة «الأمور» جمع وقد أُضيفت إلى ضمير مرجعه «الربّ».

ما هي أمور الله؟ هل يوجد شيء في الكون ليس من أموره عزّ وجلّ؟

إنّ كلّ ما سوى الله هو مصداق لأمور الله. فخلق الإنسان والحيوان والأفلاك والملائكة والجنّ والحور والجنّة والنار... كلّها من مصاديق «أمور الله سبحانه وتعالى».

أمّا المقادير فهي مصدر ميميّ وهي جمع «مقدار» فيكون معناها: إعطاء كلّ شيء قدره؛ مثلاً: مَن يأتي إلى الدنيا ومتى؟ ما هي الأمور التي تجري عليه؟ وما مصيره؟ متى يموت، ومَن ذرّيته، وإلامَ ستستمرّ؟ وهكذا تقديرات غير الإنسان كالحيوانات والصحاري والبحار والملائكة وجبرئيل وميكائيل وحملة العرش وعزرائيل والجنّ والجنّة والنار ووقت ظهور الإمام نفسه سلام الله عليه و... هذه كلّها مصاديق لمقادير أموره.

---

(١) الكافي: ج٤ ص٥٧٥ ح٢. كامل الزيارات لإبن قولويه: ص٣٦٢ باب٥٤، ثواب من زار الحسين بن علي سلام الله عليهما، ح٢.

ولو كانت العبارة هكذا: (إرادة الربّ في مقادير أمور عباده) لما كان لها هذه العمومية؛ لتقييدها في إطار أمور العباد، ولكن عبارة: «في مقادير أموره» تعني جميع أمور الربّ سبحانه.

أمّا لماذا لم يقل: إرادة الله؟ فتلك تستبطن نكتة ظريفة ليس هنا مجال ذكرها، ولكن لندع الآن البحث الأدبيّ، ولنعد إلى القضية المهمّة، وهي أنّ إرادة الله في كلّ ما هو مصداق لأموره ـ أي كلّ الأمور التي تصدر عنه سبحانه ـ إنّما تهبط إلى الأئمّة سلام الله عليهم وتصدر من بيوتهم. وهذا معناه: أنّ كلّ ما يريده الله تعالى بالنسبة إلى أموره التكوينية والتشريعية لم يجعل له إلاّ طريقاً واحداً، وهو طريق أهل البيت سلام الله عليهم[1].

ولو قلنا إنّ الجملة الأولى تتحدّث عن التكوينيات ظاهراً بقرينة ما بعدها، فإنّ الجملة التالية تمدّدت بشمولها التشريعيات أيضاً، بقرينة قوله سلام الله عليه: «**والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد...**».

فيكون معنى الجملتين إذاً: إنّ كلّ ما يرتبط بالله تعالى من التكوين والتشريع إنّما طريقه المعصومون الأربعة عشر، وامتداد فيضهما ملازم لامتداد وجودهم بدءاً برسول الله صلّى الله عليه وآله وانتهاءً بخاتم الحجج الإمام الحجّة بقيّة الله المنتظر صلوات الله وسلامه عليه[2].

إذاً كلّ ما يتعلّق بمقدّراتنا ـ فرداً فرداً ـ ومدى تبدّلها أو نقصانها وزيادتها

---

(١) يؤيّده قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فنحن صنائع الله، والخلق كلهم صنائع لنا**». انظر اللمعة البيضاء للتبريزي: ص٦٤.

(٢) روى القندوزي بسنده عن الإمام الصادق سلام الله عليه قوله: «**... وبنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا ينزل الله الغيث وتنشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض، ولولا ما على الأرض منّا لساخت بأهلها**». انظر ينابيع المودّة: ج٣ ص٣٦٠ رقم٣.

فيما يخصّ العائلة والمجتمع والأقاليم والقوميات إنّما يشكّل صغرى من صغريات هذا الحديث الصحيح الشريف.

ويتبيّن مما مرّ أنّ كلّ شؤون الكون وقواه قد جعلها الله تعالى بيد الإمام المعصوم سلام الله عليه سواء فيما يتعلّق بالأشخاص أو الأشياء بالنسبة إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وتوجد عندنا روايات متواترة[1] على هذا الأمر، والرواية التي عرضناها آنفاً هي إحدى تلك الروايات الصحيحة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إنّ المعصومين سلام الله عليهم هم أعرف منّا بفضلهم وأنّه لا يقلّ من شأنهم مهما أعطوا . فإذا كان غيرهم يملك مليون دينار وأعطى منه ديناراً واحداً فإن المليون سينقص بمقدار الواحد، ولا يعود مليوناً بتمامه. ولو كان يملك ملياراً وأعطى واحداً نقص المليار وكسر بذلك المقدار، وهكذا حتى لو كان المبلغ ألف مليار فإنّه لابدّ أن ينقص بالعطاء، بل حتى المحيطات والبحار لو أدخلتَ فيها إبرة وأخرجتها فإنّ شيئاً ولو قليلاً من الرطوبة سيعلق بها وينقص ماء المحيط أو البحر بذلك المقدار. صحيح أنّ ذلك لا يصدق ـ بالحمل الشائع ـ لأنّه لا يظهر ولكنّه نقَص حقيقةً. أمّا أهل البيت سلام الله عليهم ـ ومنهم بقيّة الله الأعظم صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه ـ فهم يعلمون بحاجاتك أفضل منك، ولو سألتهم ألف حاجة عظيمة واستجابوا لك فإنّه لا ينقص منهم شيء أبداً، بل لو أنّ كلّ البشر المتجاوز عددهم ستّة مليارات نسمة سألوا الإمام آلاف الحاجات فسيكون سلام الله عليه قادراً على إعطائها لهم دون أن ينقص منه بمقدار الرطوبة العالقة من ماء البحار برأس الإبرة.

---

(١) راجع الكافي: ج١ ص١٦٨ـ ٤٢٨، كتاب الحجة.

ولكن المشكلة فينا نحن. فكلّ منّا فيه ما يمنع المعصوم من أن يفيض عليه، لأنّ الإمام المعصوم حكيم ولا يضع الشيء في غير موضعه. فينبغي إذاً أن يكون إدراكنا ونوع حاجاتنا وأسئلتنا وكيفيتها بنحو بحيث تقتضي الحكمة استجابتها.

هذا مختصر عن الإمام وقطرة من فيض ممّا ينبغي الحديث عنه وعن عظمته صلوات الله عليه.

مهمة رجل الدين

أمّا القضيّة الأخرى المتعلّقة بنا نحن أهل العلم فهي من المسائل المهمّة جدّاً وتستحقّ أن نبذل الوقت والجهد من أجلها لكي نصل إلى النتيجة المرجوّة، وإلاّ فلسنا على شيء، ومهما يكن عندنا فهو مساوق للعدم إن لم يكن أسوأ من العدم؛ فإنّ علماً لا ينتفع به صاحبه لا يزيده إلاّ بعداً عن الله تعالى؛ «**العلم إذا لم يُعمل به لم يزد صاحبه إلاّ كفراً، ولم يزدد من الله إلاّ بعداً**»[1]؛ العياذ بالله تعالى من ذلك.

فطلبة العلوم الدينية على قسمين؛ القسم الأوّل: أولئك الذين ترنو نفوسهم لأن يبلغوا مقام العدالة والاجتهاد والتقوى ولازالوا سائرين لأجل ذلك وقد يبلغونه وقد لا يبلغونه، فهؤلاء مازالوا في مرتبة جنود الإمام. أمّا القسم الآخر: فهم الذين وُفّقوا لبلوغ مقام العدالة والاجتهاد، وهؤلاء هم الوكلاء العامّون للحجّة عجّل الله تعالى فرجه. وتعرفون أنّ الوكيل إذا تصرّف بالنحو اللائق فأهمّيته عند موكّله أكثر من تصرّف الإنسان العادي. وكذا الجندي بالطبع إذا أحسن التصرّف بين يدي قائده ومولاه كان جديراً بالاحترام أكثر

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٤ ح٤.

من غيره من الأشخاص العاديين.

ولكن عكس الحالة صحيح أيضاً، فلو كان تصرّف الوكيل والجندي غير صحيح والعياذ بالله كان استحقاقهما للعقوبة أشدّ وآكد.

من بين الأمثلة الكثيرة أذكر لكم نموذجين فقط؛ الأوّل: الفضل بن شاذان رضوان الله تعالى عليه الذي كان مثالاً للوكيل الجيّد، أمّا النموذج الآخر المضادّ فهو علي بن أبي حمزة البطائني، ومثله الحسين بن منصور الحلاّج ومن على شاكلتهما.

كان الفضل بن شاذان من الوكلاء الجيّدين للأئمّة سلام الله عليهم، فقد روي أنّ الفضل بن شاذان أرسل مبعوثاً إلى الإمام الحسن العسكري سلام الله عليه، وقال مبعوث الفضل بعد ذلك إنّ الإمام العسكري سلام الله عليه قال له: «**أغبطُ أهل خراسان لمكان الفضل بن شاذان بمكانه بين أظهرهم**»[1].

ينبغي القول: إنّ المقصود بالغبطة هنا معناها المجازي وليس الحقيقي؛ لأنّ الغبطة تقابل الحسد، فالحسد هو تمنّي زوال نعمة الغير، وهو من الرذائل، أمّا الغبطة فليس فيها تمنٍّ لزوال نعمة الغير، بل هو تمنّي مثلها للنفس، وهي من الفضائل، وبما أنّ الغبطة بهذا المعنى لا يمكن أن تكون من شأن الإمام المعصوم سلام الله عليه. إذاً فما هو ذلك الشيء الجيّد الذين يتوفّر عند أحد من الناس ولا يوجد مثله أو أحسن منه عند الإمام المعصوم ليكون مثار غبطة المعصوم سلام الله عليه؟ بل أيّ فضيلة حقيقيّة من فضائل المعصومين توجد عند

---

(١) تهذيب الأحكام: ج١٠ ص٤٩. جامع الرواة للأردبيلي: ج٢ ص٥.

أقول: ومزار الفضل بن شاذان في نيسابور، وقد وفّقت مراراً لزيارته. وتقع نيسابور على طريق مشهد، وفحريّ بالذاهبين إلى مشهد لزيارة الإمام الرضا سلام الله عليه أن يعرّجوا على نيسابور لزيارة الفضل. بل إنّه حتى لو كان مزاره في مكان آخر لاستحقّ أن تُشدّ الرحال لزيارته.

غيرهم من الناس؟!

فلاشكّ إذاً أنّ الغبطة هنا غير مقصودة بمعناها الحقيقي بل لابدّ أن تكون بالمعنى المجازي لها، ويُعرف أقرب المجازات عن طريق القرائن الخارجية، فهنا ـ مثلاً ـ يكون معنى قول الإمام سلام الله عليه: «أغبط أهل خراسان» أي أنّ من شأن مَن لم يكن في خراسان أن يغبط أهلها على نعمة الاستفادة من جوار الفضل بن شاذان ـ وكانت خراسان يومذاك تعني معظم بلاد إيران اليوم ـ وهذا يعني أن عمل الوكيل بواجبه جيّداً يوصله إلى هذه الدرجة.

أمّا إذا كان عمل الوكيل سيّئاً ـ والعياذ بالله ـ فستكون عاقبته كعاقبة علي بن أبي حمزة البطائني؛ فرغم أنّه كان وكيلاً لإمامين معصومين وكان هو السبب في هداية بعض عمّال بني أميّة[1]، ولكن انظروا إلى عاقبة أمره كيف صار.

يقول الحسن بن علي الوشا: دعاني سيّدي الرضا بمرو فقال سلام الله عليه:

«يا حسن، مات علي بن أبي حمزة البطائني في هذا اليوم وأُدخل في قبره الساعة ودخلا عليه ملكا القبر فساءلاه مَن ربك؟ فقال: الله. ثم قالا: مَن نبيّك؟ فقال: محمّد. فقالا: مَن وليّك؟ فقال: عليّ بن أبي طالب. قالا:

---

(١) روي: أنّ شخصاً قدم إلى الإمام الصادق سلام الله عليه للتوبة وقال للإمام: «جُعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه. فقال أبو عبد الله سلام الله عليه: «**لولا أنّ بنى أمية وجدوا مَن يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلاّ ما وقع في أيديهم. قال: فقال الفتى: جُعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال: فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم فمَن عرفت منهم رددت عليه ماله ومَن لم تعرف تصدّقت به وأنا أضمن لك على الله الجنة**». فأطرق الفتى طويلا ثمّ قال له: قد فعلت جُعلك فداك» فهذا واحد ممن صار ابن أبي حمزة سبباً في هدايتهم. بحار الأنوار: ج٤٧ ص٣٨٢ ح١٠٥.

ثمّ مَن؟ قال: الحسن. قالا: ثمّ مَن؟ قال: الحسين. قالا: ثم مَن؟ قال عليّ بن الحسين. قالا: ثمّ مَن؟ قال: محمّد بن عليّ. قالا: ثم مَن؟ قال: جعفر بن محمّد. قالا: ثمّ مَن؟ قال: موسى بن جعفر. قالا: ثمّ مَن؟ فلجلج. فزجراه وقالا: ثمّ مَن؟ فسكت. فقالا له: أفموسى بن جعفر أمرك بهذا؟ ثمّ ضرباه بمقعمة من نار فألهبا عليه قبره إلى يوم القيامة»[1]. ومازال عليّ بن أبي حمزة معذّباً إلى الآن؛ بل سيبقى كذلك إلى قيام الساعة؛ فالإمام قال: «إلى يوم القيامة».

لقد كان علي بن حمزة البطائني وكيلاً للإمام الصادق والكاظم سلام الله عليهما ولكنّه انحرف، فضُرب ومازال يُضرب بمقمعة من نار[2].

إنّ العالِم مسؤول مسؤولية مضاعفة وكما في الحديث الشريف: «**لتحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم**»[3]. وليس المراد من العلماء هنا المراجع وحدهم، بل العالِم بالمعنى اللغوي وهو يشمل كلّ مَن يتحمّل مسؤولية هداية الناس.

مسؤوليتنا مضاعفة

فلنشدّ العزم ونحثّ الخطى لنكون ممّن اجتاز المقام الأوّل بعد أن أجهد نفسه ليكون ضمن جنود الإمام سلام الله عليه وحصل على المقام الثاني في الوكالة والنيابة العامّة، التي حثّ الإمام المنتظر عج الله تعالى فرجه عليها شيعته بالرجوع إليها

(١) مناقب آل أبي طالب للمازندراني: ج٣ ص٤٤٩، باب إمامة علي بن موسى الرضا سلام الله عليه.

(٢) المقمعة: وهي سياط تعمل من حديد، رؤوسها معوجّة. لسان العرب لابن منظور، ج٨ ص٣٩٤ «مادّة قمع». ولكن قد يكثّف الله تلك النار حتى يكون لها سمك، والله أعلم، فهذه أيضاً من مقادير أموره.

(٣) مستطرفات السرائر لابن إدريس الحلّي: ص٥٩٨.

في قوله سلام الله عليه: «**وأمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم**»[١]. وإن كان كلا المقامين رفيع فيما إذا تصرّف الإنسان فيهما تصرّفاً صحيحاً، وإلاّ فمشكل جدّاً.

قال الإمام الصادق سلام الله عليه لأحد أصحابه: «**الحسن من كلّ أحد حسن، ومنك أحسن؛ لمكانك منّا. والقبيح من كلّ أحد قبيح، ومنك أقبح؛ لمكانك منّا**»[٢].

فلنحسن التصرّف، فإنّ الإمام عالِم بأعمالنا ونيّاتنا. ففي الكافي وغيره أنّه في كلّ يوم تُعرض قائمّة أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا على الله تعالى وعلى النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وعلى الإمام المعصوم سلام الله عليه بل في بعض الروايات أنّها تُعرض عليه كلّ صباح[٣] فلا تسوءوه.

إنّ ارتقاء المدارج العالية يشبه تسلّق الجبل. فلو أنّ شخصاً سقط من ارتفاع متر جرح جرحاً بسيطاً ولكن كلّما كان سقوطه من مكان أعلى كانت إصابته أشدّ ونتائجها أسوأ. فمَن سقط من ارتفاع ٢٠٠م ليس كمن سقط من ارتفاع مترين ـ مثلاً ـ فكيف بمن يسقط من قمّة الجبل؟!

صحيح أنّ مَن بلغ القمّة يشار إليه بالبنان، لكن السقوط منها قد يقضي عليه تماماً. وكذلك الأمر لمن يسقط من المقامات العالية كما سقط الحلاّج[٤]

---

(١) الغيبة للطوسي: ص٢٩٠ رقم ٢٤٧.

(٢) الأنوار البهية للقمي: ص١٥٩، فصل في مكارم أخلاقه ـ أي، الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه ـ .

(٣) راجع الكافي: ج١ ص٢١٩، باب عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة سلام الله عليهم.

(٤) هو: أبو معتب الحسين بن منصور البيضاوي، المعروف بـ «الحلاّج». له دعاوى باطلة، ومقالات مشهورة. كان يعدّ نفسه أحد الأبواب للناحية المقدّسة في الغيبة الصغرى، وصدر توقيع من الناحية المقدّسة في تكذيبه. روضات الجنّات للخوانساري: ص٢٢٥.

والهلالي[١] والشريعي[٢] والبطائني[٣] وغيرهم ممّن خرجت اللعنة عليهم.[٤]

فما أسوأ حال من تناله اللعنة من صاحب أرأف قلب في الوجود! حتماً ستكون أشدّ لعنة في الوجود.

ختاماً، لنسعَ في هذه المناسبة لتحصيل رضا الإمام، فإنّه لاشكّ يستتبع رضا الله ورسوله صلّى الله عليه وآله. ورضا الإمام يتحدّد في كيفيّة العمل وفق الشريعة. فنحن ـ ولله الحمد ـ نعرف وظائفنا ولو سألَنا شخص لأجبناه ولكن علينا أن نُقرن إجابتنا بالعمل أيضاً.

نسأل الله تعالى ببركة المولى صاحب العصر عجّل الله فرجه الشريف وصلوات الله وسلامه عليه أن يزيد في توفيق العاملين، ويوفّق الباقين، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

---

(١) هو: أحمد بن هلال، المعروف بـ «الهلالي» وفيه خرج توقيع الإمام عليه السلام من الناحية المقدّسة، يقول فيه إلى قوّامه بالعراق، قائلاً: «احذروا الصوفي المتصنّع». انظر اختيار معرفة الرجال للطوسي: ج٢ ص٨١٦ رقم ١٠٢٠.

(٢) ويكنّى بـ «أبي محمد». وهو أوّل من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه. انظر الغيبة للطوسي: ص٣٩٧ رقم ٣٦٨.

(٣) تقدّم شيء عنه تحت عنوان: مهمّات رجل الدين.

(٤) راجع كتاب الغيبة للطوسي: ص٦٣ـ٦٧.

(١٥)

الإخلاص شرط القبول

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ: اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد بها**»[1].

القصد والنيّة أو ما يُطلق عليه العلماء: العمل الجوانحي ـ أي الذي يكون محلّه القلب ـ يكون إطاراً وحافظاً للعمل الذي يصدر بفعل الجوارح أو ما يسمّى «العمل الجوارحي». فالعمل الجوانحي هو الذي يقوّم العمل الجوارحي، وهذه قاعدة مطّردة عند العقلاء، ويكون الحساب عند الله تعالى على أساسها.

بعض الأعمال قوامها النية

لا شكّ أنّ بعض الأعمال لا مدخلية لنوع النيّة فيها، بل المطلوب أن تقع كيفما وقعت. ومثالها أن تستدعي بنّاءً لبناء دارك، فالمطلوب أن يؤدّي عمله بإتقان لقاء الأجر الذي يتقاضاه، ولا تهمّك نيّته وراء قيامه بهذا العمل ـ سواء أراد بها الشهرة مثلاً أو الحصول على المال ـ بل المهمّ عندك أن يكون العمل نفسه ـ وهو البناء ـ صحيحاً.

ولكن ثمة أعمال أخرى لا يكفي أن تقع مجرّدةً عن النية والقصد الخاصّ،

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٩٤، باب الرياء، ح٧.

ومثالها أن تدخل مجلساً وتلاحظ أنّ شخصاً قام عند دخولك، فإن كان لأجلك فهو ذو قيمة بالنسبة لك ويستحقّ عليه أجراً معنوياً وهو الاحترام، أمّا لو كان قيامه لسبب آخر أو دونما سبب واتّفق مع دخولك، فلا يستحقّ عليك شيئاً؛ لأنّ المهمّ ليس أصل القيام، وإنّما القصد والنيّة والباعث من ورائه، فمثل هذا العمل هو الذي يكون للنية ـ أو نوع النيّة ـ دخل فيه وفي قيمته.

والحال نفسه يصدق على الأعمال التي يريد الله تعالى منّا القيام بها، فثمّة أعمال لا يشترط في صحتها نيّة القربة كالأعمال غير العبادية، وإن كان يمكن التقرّب بها إلى الله إذا نوى المرء امتثالها كذلك.

ومثال آخر للأمور التي قوامها القصد والنية هي المسائل الإنشائية، أي القضايا التي فيها قصد الإنشاء ـ حسب الاصطلاح العلمي ـ فما لم يقع هذا القصد لا ينشأ في الخارج، ومثاله العقود كعقد البيع والنكاح وسائر العقود. فالمطلوب أن يقع فيها القصد الخاصّ والنيّة. فالمدرّس ـ مثلاً ـ عندما يدرّس الطلاب ويمثّل لهم عقد البيع بقوله: «بعتك هذا الكتاب» فهذا المثال لا يتحقق فيه بيع واقعاً رغم إجراء الصيغة بصورة صحيحة، لأنّ القصد هنا ليس الإنشاء. وهذا جارٍ في سائر الشؤون عند العقلاء.

ومثال آخر أكثر توضيحاً: يذكر الفقهاء شروطاً عديدة لصحّة عقد النكاح؛ منها: تقدّم الإيجاب على القبول، وأن يكون اللفظ بالعربية، وأن يكون بصيغة الماضي مثل "زوّجتك نفسي" وما أشبه، وأن لا يقع فصل بين القبول والإيجاب، وأن يكون القبول بمادّته مثل «قبلتُ» إلى آخره. والآن لو سألنا: ما حكم ألوف الألفاظ التي تقع بها صيغة عقد النكاح ـ الحائزة على سائر الشروط أعلاه ـ في قاعات الدرس عندما يريد الأساتذة أن يمثّلوا لتلامذتهم كيفية وقوع عقد النكاح بها؟ فالجواب: إنّ هذه الألفاظ والصيغ وإن كانت حائزة على سائر الشروط إلاّ أنّها تفتقد إلى الشرط الأساسي وهو القصد،

ولذلك لا يقع بها نكاح، وهذا أمر مفهوم عند العقلاء؛ لأنّهم يدركون أنّ الأعمال التي تتقوّم بالنية والقصد لا قيمة لها إن افتقرت لهما.

ولا يكفي القصد المطلق، أي مجرّد القصد أيّ قصد كان، بل لابدّ من حصول القصد الخاصّ، فلو قال شخص «بعتُ» وقصد النكاح، فلا البيع يقع ولا النكاح، بل لابدّ أن يريد من قوله «بعتُ» البيعَ ومن قوله «أنكحتُ» النكاح.

العبادات شرطها النية

كلّ ما تقدّم في معاملات العقلاء يصدق في العلاقة مع الله تعالى، ومن ثمّ قالوا: إنّ العبادة لا تقع صحيحة إلاّ مقيّدة بالقصد الخاصّ، وهو قصد التقرّب إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[١]، أي لا ينبغي وجود قصد آخر غير الله يختفي وراء عمل المرء ليكون هو الدافع.

بيد أنّ هناك بحثاً فقهياً حول العبادات غير الواجبة والتوصّليات؛ فإنّ الأمور التي أرادها الله سبحانه وتعالى منّا على قسمين: عباديات وتوصّليات. أمّا التوصّليات فهي التي لا يشترط فيها نيّة القربة رغم أنّ الله أراد منّا القيام بها، سواء ما كان منها على نحو الوجوب كطاعة الوالدين والتطهّر من النجاسات كشرط لبعض العبادات، أو على نحو الاستحباب كصلة الرحم والتصدّق على الفقراء.

ولا خلاف في أنّ التوصّليات إذا وقعت فهي صحيحة ولا علاقة للصحّة بالحليّة والحرمة فيها فضلاً عن النيّة. فإنّ الثوب النجس يطهر إن غُسل بماء طاهر وإن كان الماء مغصوباً، وأثم المكلّف على غصبه. ولا خلاف في أنّ

---

(١) سورة البيّنة، الآية: ٥.

العباديات ـ وهي التي يشترط فيها النية ـ لا تقع صحيحة من دون النية والقصد الخاص وإن كانت من المستحبّات.

ولا خلاف في أنّ مَن أتى بالواجب العبادي رياءً ـ أي لم يكن قصده القربة والنية الخالصة لله ـ فإنّه يحاسَب؛ لأنّ التكليف الذي كان في عهدته لم يسقط، حيث إنّ العبادة لم تقع صحيحة لكونها وقعت رياءً وافتقدت مقوّمها الأساسي وهو قصد القربة.

ولكن هناك كلام في المستحبّات العبادية (كصلاة الغفيلة أو صوم شهر شعبان) والتوصّليات عامّة (كالصدقة والإنفاق المستحبّ والواجب وطاعة الوالدين وصلة الرحم) إن وقعت رياء، أيكون المكلّف قد ارتكب عملاً محرماً بذلك أم لا؛ لعدم اشتراطه النيّة فيها؟

هنا يختلف الفقهاء حيث ذهب بعضهم إلى الحرمة، وبخاصّة في العباديات المستحبة ـ حيث إنّ القائلين بحرمة العمل المستحبّ رياء أكثر ـ فمَن صلّى صلاة الليل رياءً ـ مثلاً ـ فإنّما يكون قد ارتكب فعلاً محرّماً. والذاهبون إلى هذا الرأي يتمسّكون بإطلاق أدلّة الرياء، رغم أنّ المسألة شائكة وبحاجة إلى جهد متميّز لاستنباط الموقف الصحيح. ولكن سواء قلنا بحرمة الرياء في العبادات فقط أو بحرمتها في التوصّليات أيضاً، أو اقتصرنا على القدر المتيقّن وهو الحرمة في الواجبات العبادية واكتفينا في غيرها بالبطلان وعدم القبول، فإنّ الأمر الذي لا شكّ فيه أنّ مَن لم يأت بالمستحبّ كصلاة الليل ويبيت نائماً أفضل كثيراً ممّن يقوم ويصليها رياءً؛ ولعلّ هذا يتّفق مع ما ورد في الحديث الشريف: «**حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم**»[1].

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص٣٥ رقم ١٤٥.

ما خفي على الملائكة لا يخفى على الله

في الحديث الذي صدّرنا به البحث من قوله صلّى الله عليه وآله: أنّ «**الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به**» يتبيّن أنّ ذلك العمل لم يكن جديراً بأن يبتهج به لانعدام قيمته لأنّه لم يكن خالصاً لله تعالى، فأمر أن تجعل في سجّين؛ علماً أنّ الملك لا يبتهج بعمل لا قيمة له، وإنّ ابتهاجه بذلك العمل كان من جهة تصوّره أنّه لله، ولكن تبيّن خلافه[١].

النقطة الأخرى: ينبغي التوقّف ملياً عند لفظ الحديث، فهو مليء بالإشارات والمعاني العميقة، فكما يمكن أن تكون هناك قرائن لفظية تدلّ على التوكيد كالجُمل، كذلك يمكن أن تكون القرائن اللفظية حروفاً كما في المقام، فكان يمكن أن يقال «إنّ الملَك يصعد» إلاّ أنّ اللام هنا جيء بها للتوكيد وليس لمجرّد جمال التعبير، فقد تدلّ الحالة التي تلفظ بها الجملة على التوكيد كالمولى يصرخ بعبده أو يطلب منه بقوّة أن يأتيه بالماء، ولابدّ أن يكون المقام مقتضياً للتوكيد هنا لأهميّته؛ فإنّ الإنسان قد يتصوّر أنّ مجرّد كون أعماله حسنات ـ في ظاهرها ـ يكفي، ولكنّ الحديث يقول: «**إنّ الملَك ليصعد**» بهذه الأعمال التي لا يُشكّ في كونها حسنات كما هو الحال في الصلاة أو الصوم أو التدريس أو الخطابة أو المطالعة أو التأليف ـ وذكرتُ هذه الأمثلة لأنّها محلّ ابتلاء طلبة العلوم الدينية في الغالب ـ ولكن عندما يصعد بها الملك يقول الله عزّ وجلّ: «اجعَلوها في سِجّين» أي موضع أعمال

---

(١) إنّ عمل الملائكة حفظ ما يكون من أعمال حسنة أو سيئة فقط، لا مراقبتها من حيث النيّة والقصد؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ سورة الانفطار، الآية: ١٠ ـ ١١ وعن النبي صلى الله عليه وآله: «... **فيقول الله تعالى: أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه...**» مستند الشيعة للنراقي: ج٢، ص٤٦، اعتبار قصد القربة.

الكفّار والمنافقين والظالمين! لماذا؟ أليست صلاة وصياماً وما أشبه؟! أكان فيها خداع أم شيء لا يعلَم به قائله وأطلقه جزافاً؟ أم ثَمّ مانع من قبولها؟

الجواب: كلا فالموانع كلّها منتفية والشرائط كلّها موجودة باستثناء أمر واحد. يقول الله عزّ وجلّ: «**إنّه ليس إياي أراد بها**». وهذا قاصم الظهر حقيقة. هذا الذي لا أعرفه منك ولا تعرفه مني لأنّنا نتصوّر أنّنا أذكياء نستطيع إخفاءها. ولكنّها حتى لو خفيت على الملَك؛ فإنّها لا تخفى على الله تعالى.

أين الله؟!

كان أحد الكسبة القرويين في العراق قد بلغ درجة عظيمة من التقوى. ولما سُئل عن سرّ بلوغه هذه الدرجة أجاب: يعود الفضل في ذلك إلى عالِم في قريتنا. يتبيّن من قصّته أنّه كان يجيد فنّ هداية الناس. وتفصيل القصّة:

سأل هذا الكاسب عالم قريته سؤالاً؛ قائلا له: أين الله؟ ولو سُئل أحدنا لقال في جوابه: إنّه موجود في كلّ مكان ولا يخلو منه مكان. ولكن العالِم الذي كان يعرف هداية الناس، أجابه سائلاً: ما شغلك؟ قال: صفّار[1].

ولما قال الرجل إنّه صفّار، قال له العالِم: إذا وضعت قطعة أصغر من

(١) كان الصفّارون في تلك الأيّام أكثر ما يستعملون المطرقة والمقصّ، فإذا ما ثقبت الأوعية النحاسية كالقدور والطسوت والأواني جيء بها إلى الصفّار، فيقصّ قطعة من الصفر بمقدار فتحة الثقب ثم يلحم أطرافها بمحيط الفتحة. وكان يتّفق أحياناً أنّ الصفّار عنده قطعة أصغر من الفتحة بقليل، فكان يستكثر أن يقصّ قطعة بحجم الفتحة بحيث لا تسدّها جميعاً، بل يستعمل قطعة صغيرة للترقيع وإن كانت أقلّ من الفتحة بحيث لا تسدّها تماماً ثم يسدّ الثقب المتبقّي بالطَّرق على القطعة وأطرافها لكي تتمدّد وتتّصل بأطراف الفتحة، حتى إذا طلاها لا يكاد يبين الخلل وتبدو القطعة متّصلة بالكامل. ولكن اللحام كان ينفتح بسرعة حالما يعرض على النار؛ بسبب رقّة أطراف القطعة الملتحمة، فضلاً عن كونها أصغر من المطلوب.

المطلوب لسدّ ثغرة في قدر أو ما أشبه، فستبقى فتحة صغيرة، أليس كذلك؟ قال: بلى. قال: أرأيت تلك الفتحة الصغيرة في الوعاء، التي قد تفكّر بتلاشيها عن طريق التمدّد الحاصل من الطَّرق المتكرر والطلاء، فهناك يوجد الله وهو يراك ويراقب عملك.

وهكذا أصبحت هذه المسألة سبباً لمحاسبة الرجل نفسه يومياً، وربما أكثر من مرّة في اليوم الواحد، لأنّه كان يرى الله مشرفاً عليه في عمله دوماً.

الحالة نفسها يمكن أن تصدق مع المهن الأخرى، كالبنّاء الذي يرمّم جداراً ـ مثلاً ـ بحيث يبدو لصاحب الدار أنّه لم يعُد معيباً، ولكن الوضع لا يدوم طويلاً، إذ سرعان ما تعود الحالة الأولى ويظهر الخلل ويحتاج الجدار إلى الترميم مجدّداً، وذلك لأنّ البنّاء لم يكن دقيقاً في عمله أو لاستعماله الموادّ الرخيصة وغير المناسبة.

فلو أنّ البنّاء رأى الله مطّلعاً عليه حين يمارس عمله، لما غشّ الناس بعد ذلك وكان ذلك باعثاً على استقامته وتكامله.

ونحن ـ طلبة العلوم الدينية ـ غير مستثنين من هذه القاعدة، فإنّ عملنا سيكون ناجحاً ويعطي أفضل الثمار إذا لم يغب عن أذهاننا ـ حين أداء دورنا ـ أنّ الله هو الرقيب علينا، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حاضر يرى أعمالنا.

يشكو لله غربة دينه

كان السيد أحمد القمّي الروحاني عالماً مجتهداً وواعظاً مؤثّراً، لأنّه كان متَّعظاً ـ أدركتُه وحضرتُ مجلسه ليلة النِصف من شعبان حيث كان يصادف زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه وحضور الزوّار من كلّ المحافظات وعلى اختلاف الأطياف إلى كربلاء المقدّسة ـ وكان يرتقي المنبر في المدرسة الهندية ـ وهي مدرسة علمية دينية ـ فتمتلئ المدرسة بالعلماء والمدرّسين

والخطباء والطلبة، وكان الحاضرون كلهم آذاناً صاغية له، وكأنّ على رؤوسهم الطير، لصدق كلامه، وبلاغة بيانه.

حكي أنّ هذا العالِم الواعظ كان قد حضر مجلساً خاصّاً عُقد في طهران وحضره جمهرة من الخطباء المشهورين في إيران يومذاك. فقال الخطيب ـ الذي دُعي ليرتقي المنبر في ذلك المجلس ـ لزملائه الخطباء: إنّي مدعوّ لارتقاء المنبر في مجلس يحضره أناس من مختلف الطبقات، وربما يحضره أشخاص لم يحضروا مجلساً طيلة عمرهم أو لم يحضروا إلاّ مجلساً واحداً في السنة كيوم عاشوراء ـ مثلاً ـ لذا أطلب منكم أن تشيروا عليّ في الموضوع الذي يتناسب طرحه في مجلسٍ كهذا.

فاقترح بعضهم أن يتناول أصول الدين، واقترح آخرون أن يتحدّث عن الأخلاق، واقترح غيرهم أن يعلّمهم أحكام الصلاة ويرشدهم لوجوبها ومدى أهميّتها ـ فمن المفترض أن يوجد في مجلس عامّ كهذا أناس لا يصلّون ـ فعسى أن يهديهم الله ليصبحوا من المصلّين.

تكلّم الجميع وكلٌّ أدلى بدلوه إلاّ السيّد أحمد القمّي فقد بقي صامتاً. وعندما انتهوا أجمعهم، التفت الخطيب إلى السيد أحمد القمّي وقال له: أحب أن أسمع رأيك. قال: السادة أعاظم أهل الفنّ قد أشاروا عليك. قال الخطيب: هذا صحيح ولكنّي أريد أن أعرف رأيك. قال السيّد القمّي: كلّ الذي قالوه جيّد، ثم إنّك لا تريد أن ترتقي أكثر من منبر، ففيما اقترحوه الكفاية إذاً، فما الداعي للإضافة؟ ولكنّ الخطيب أصرّ على السيد طالباً رأيه ـ ولم يشتهر السيد يومذاك بكونه خطيباً من الدرجة الأولى، لكنّ إجابته كانت تكشف عن كونه كذلك ـ فقد قال له: في الواقع، ليس لديّ موضوع خاصّ أقترحه عليك أكثر ممّا اقترحه عليك الإخوة، فقد اقترح كلٌّ موضوعاً واستوعبه ذهنك وبحمد الله، ولكن أسألك أسئلة أوّلاً ثم أتقدّم إليك باقتراحي ـ وكان بإمكانه

أن يطرح اقتراحه دون الحاجة إلى هذه الأسئلة ولكن أراد أن يهيّئه للموضوع ويجعل إجاباته من باب المقدّمات والإعداد النفسي ـ .

فسأله ـ من باب سؤال العارف ـ عن المكان الذي يقام فيه المجلس ثم عن مساحة الأرض التي يقوم عليها، وكميّة الحضور ـ مثلاً ـ ثم طلب منه أن يصف له مكان المنبر والزاوية التي يوضع فيها... وكان يريد بذلك أن ترتسم صورة المجلس في ذهنه.

وهنا قال له: عندما ترتقي المنبر وتبدأ بقراءة المقدّمة وتفكّر في ترتيب الموضوع الذي وقع عليه اختيارك، تصوّر وأنت في تلك الحالة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جالس أمامك آخذاً لحيته بيده ويشكو لله غربة دينه. ثم انظر وأنت في تلك الحالة، ماذا ستقول، وكيف ستتكلم؟

قال ذلك الخطيب: عندما صعدت المنبر تراءى لي ذلك المنظر حقّاً، فقد امتلكني وهيمن عليَّ شعور بحضور الرسول صلى الله عليه وآله وأنّه يراني ويسمع ما أقول وكيف أخدم دينه؛ ثم انتخبت موضوعاً وبدأت أتكلّم فيه، وكان لكلماتي تأثير معنويّ عظيم في الناس، وأنا أجزم أنّه لم يكن ليحصل لولا تأثير تلك الالتفاتة المعنوية والإحساس بمراقبة النبي صلى الله عليه وآله.

الشيطان يأتي كلّ إنسان من نقطة ضعفه

إذاً يجب علينا أن نوجد هذا الشعور بأنفسنا، فإنّه وإن كان صعباً إلاّ أنّه ممكن لأنّ الشيطان لا يأتي إلينا من الطرق التي أشربت بها نفوسنا، فهو لا يدعونا لترك الصلاة لأنّنا قد تعوّدنا عليها منذ نعومة أظفارنا، بل فتحنا أعيننا عليها واعتقدناها، فكان آباؤنا وأقرباؤنا وأصدقاؤنا يصلّون. ولكنّه يأتي كلَّ إنسان من نقطة ضعفه. فهو يأتي مَن يحبّ المال من جهة المال، ومَن يغضب بسرعة من جهة الغضب، والمحبّ للشهوات من جهة الشهوات.

وهكذا فكلّ يأتيه من الجهة التي تتناسب مع طبيعة عمله. فإن لم نكن متنبهين، كنّا ـ والعياذ بالله ـ من الذين ﴿**وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1]، وهذه قاصمة الظهر، وسببها التقصير في المقدمات. فمَن لا يعتني بالمقدّمات استرسل ثم تعوّد شيئاً فشيئاً، وإذا به يفتح عينيه فجأة ليرى نفسه أنّه ذهب إلى الآخرة خالي اليدين ـ والعياذ بالله ـ حيث لا ينفعه الندم والجزع؛ فقد ورد في الحديث: «**فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين مَن مات منكم، لجزعتم ووهلتم، وسمعتم وأطعتم. ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريباً ما يُطرح الحجاب**»[2].

والجزع لا يكون من العذاب فقط، بل كثيراً ما يكون نتيجة التقصير، بل القصور أيضاً، فيقول الإنسان: وا أسفاً؛ لماذا فعلت كذا ـ تقصيراً ـ ؟ أو لماذا فهمت الشيء الفلاني هكذا ـ قصوراً ـ ؟

ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً في الحياة الدنيا بشخص يدعو أناساً محترمين لوليمة مهمّة ويرتّب لها كلّ شيء. وعندما يُهيّأ لصبّ الطعام في الصحون والأواني يكتشف أنّ في الطعام عيباً وأنّه لا يمكن تقديمه إلى الضيوف هكذا، ولا يوجد عنده المال أو الوقت الكافي لتوفير البديل؛ فإنّ هذا الشخص لا ينسى هذا الإحراج الذي حصل له طيلة عمره، مع أنّه ربما لم يكن مقصّراً، فإنّ التألم والجزع قد يكون بسبب القصور أيضاً.

في السابق، عندما كان يدور الحديث عن القاصر والمقصّر، كان يُضرب مَثل للقاصر بالشخص الأمّي الذي يعيش في قرية لا يوجد فيها أحد من أهل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص٥٧ رقم ٢٠.

العلم ليسأله، أمّا في المدن فلا يوجد قاصر. وجرى هذا الحديث مرّة فذكر أحد العلماء المعاصرين أنّه حتى في القرى لا يوجد اليوم قاصرون.

وبغضّ النظر عن المناقشة في ذلك ولكن المسلَّم أنّ أحداً لا يعدّ أهل العلم من القاصرين.

لذا لا ينبغي أن تكون دراستنا لغرض التدريس والتبليغ والموعظة وإرشاد الآخرين والإجابة عن أسئلتهم فقط، بل يجب أن ندرس ونواصل البحث لأنفسنا أيضاً، لأنّ تهذيب النفس وإصلاحها واجب كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان. ولو بحثنا لوجدنا أشياء كثيرة لم نكن نعرفها، ولاكتشفنا مطالب جمّة لم نكن نتصوّرها على تلك الكيفية، أي نكتشف أنّا كنّا نجهل أموراً كثيرة. ولا نعذر في جهلنا هذا مادمنا نرى وجوده محتملاً لأن العلماء يقولون: إنّ دفع الضرر المحتمل واجب.

أمّا حديث: «**رفع عن أمّتي تسعة ... وما لا يعلمون**»[١] فلا يمكن أن يقصد به الجاهل المقصّر، لأنّ هذا معناه أنّه لا يجب على أحد أن يتعلّم، ويصبح الكلّ معذورين، ولا يتصوّر وجود شخص غير معذور بعد ذلك.

حذار من الشرك الخفي

إذاً من الأمور الأكثر أهمّية بالنسبة لنا أن لا يكون طلبنا العلم لغرض رفع جهل غيرنا فقط بل لنزيل الغموض عن أنفسنا أيضاً، وأهمّ المسائل التي ينبغي أن نكون واعين لها ونبدأ بمعالجتها هي مسألة الإخلاص والتخلّص من الرياء. فلنراجع أنفسنا في كلّ موقف بدقّة وننظر كم كان منه لله وكم لأنفسنا، فلينظر الخطيب ـ مثلاً ـ إلى حديثه عندما يجهد نفسه لكي يجذب

---

(١) التوحيد للصدوق: ص٣٥٣، باب الإستطاعة، ح٢٤.

الآخرين، هل أتعب نفسه وعني بعباراته ونمّق أسلوبه لكي يقال عنه إنّه خطيب ناجح، أم كان كلّه لله، أم بعضه لله وبعضه لنفسه؟ وهكذا الكاتب والمدرّس والمجتهد و...[١].

وهذه العملية تتطلّب وعياً مستمرّاً؛ وذلك لأنّ الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم في عروقه[٢]، فلا نغفلْ ولا نخضع لوساوسه وتسويلاته. فإنّ كثيراً من الناس يرتكبون الخطأ ويتصوّرونه صحيحاً، وقد يعملون ما يضرّهم ويعلمون بذلك، ولكنّهم مع ذلك لا يتناهون عنه!

وكذلك الأمر بالنسبة لطالب العلم فربّما أتاه الشيطان عن طريق علمه وزيّن له عمله؛ فيرتكب ما نُهي عنه ثم يقول متذرّعاً إنّ هذا العمل منهيٌّ عنه إلاّ ما خرج بالدليل، وشيئاً فشيئاً تصبح «إلاّ» هذه تخصيصاً للأكثر!

ولذلك ورد في الحديث: «**دبيب الشرك في أمتي كدبيب النملة**

---

(١) كان الشيخ جعفر الشوشتري رحمه الله من كبار مراجع التقليد، وكان أعاظم الفقهاء أمثال السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي ـ صاحب العروة الوثقى ـ أصدروا تعليقات على رسالته العملية، الأمر الذي يكشف أنّه كان له قطاع واسع من المقلّدين بعد الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه فهو كان من المعاصرين للشيخ الأنصاري وعاش بعده.

نقل عن الشيخ جعفر الشوشتري رحمه الله أنّه قال للناس ذات مرّة من على المنبر: أيها الناس لقد بُعث الأنبياء كلّهم ليأمروا الناس بالتوحيد وأن يجعلوا أعمالهم خالصة له ولا يشركوا فيها أحداً غيره. أما أنتم فأعمالكم كلّها لغير الله، فهل أطلب منكم أن تشركوا الله على الأقلّ، وذلك بأن تجعلوا لله نصيباً من أعمالكم فإنّكم لم تعملوها لله أبداً ولم تشركوه حتى بنسبة من نواياكم!

ولا شكّ أنّه كان يمزح معهم ويستعمل الأسلوب الساخر لتقريب المعنى إلى الأذهان وللتأثير عليهم وحثّهم على الإخلاص، لا أنّه كان يريد الشرك حقيقة؛ بل كان المعنى الكنائي والمجازي هو المقصود، وهو أن يراجعوا أنفسهم وهم مسلمون مؤمنون بالله، ليقلّلوا من نسبة الشرك ويزيدوا في إخلاصهم.

(٢) انظر الكافي للكليني: ج٢ ص٤٤٠ ح١.

السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء»[١].

إشارة إلى اجتماع السواد الحاصل بالنملة والصخرة العظيمة في رأس الجبل[٢] مع الليل الأسود، بحيث يستحيل معها تمييز وجود النملة فضلاً عن دبيبها. وهكذا يكون الشرك أحياناً. وهذا هو المأزق!

داؤك منك ودواؤك فيك

إذاً، ما هو طريق الخروج من هذا المأزق؟ هل هو الدرس أم التدريس وما أشبه؟ نقول في الجواب: لا هذا ولا ذاك. وإنّما الدواء في داخلنا.

هناك حديث مقتضب العبارة بليغ المعنى عزيز المنال، إلاّ على من نظر إلى نفسه من خارجها وحاسبها وكأنّها نفس غيره، حينها يتّضح له معنى هذا الحديث، حيث يروى عن أمير المؤمنين سلام الله عليه قوله: **إذا صعدت روح المؤمن إلى السماء تعجبت الملائكة. وقالت: عجباً! كيف نجا من دار فسد فيها خيارنا**[٣]. ومفهومه أنّ المؤمنين قليلون جداً، فإنّه يموت الألوف من الناس يومياً ولا يثير ذلك عجب الملائكة، ولكن حيث إنّ المؤمنين قليلون فموت مؤمن اليوم لا يتكرر حتى تمرّ أيام أو أسابيع وربما أشهر حتى يتّفق أن يموت مؤمن آخر.

أمّا عجب الملائكة فهو للمؤمن كيف استطاع أن يفلت من كلّ تلك الفتن الشائكة ولم يقع في حبائل مضلاّتها وبقي مؤمناً حتى الممات.

ولكن مَن يسلك الطريق ويسير فيه قليلاً قليلاً، يصل. ومَن صدق مع

---

(١) منتخب الأنوار للنجفي: ص١٦.

(٢) انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي: ج٢ ص١٠٨.

(٣) عيون الحكم والمواعظ للواسطي: ص١٣٦، الفصل ١١.

نفسه، وفّقه الله. ولا ينبغي اليأس بل المطلوب اليقظة والحذر. إنّ الأمل برحمة الله كبير جداً. وإنّ من أرجى آيات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[1]، فصريح القرآن أنّ الله تعالى خلقنا ليرحمنا، أي إنّ رحمة الله هي الهدف والعلّة الغائية لخلقنا ـ حسب الاصطلاح الفلسفي ـ .

فإن نحن صدَقنا مع أنفسنا فحاشا لله أن لا يأخذ بأيدينا ويوفّقنا. وهذا لا يعني أنّ الطريق سهل فهو صعب وصعب جداً ولكنه ممكن.

قد يظهر أحدنا أمام الآخرين بمظهر لا ينمّ عن نيّته الحقيقية، لعلمه بعجز الناس عن القدرة في معرفتها، بينما الأمر يختلف تماماً مع الله سبحانه الذي يعلم السرّ وأخفى، وبرحمته ستر علينا ولم يفضحنا.

أجل، هنا مكمن الصعوبة، ومع ذلك فتربية النفوس والإخلاص في النوايا يبقى أمراً ممكناً؛ لأنّ الله سبحانه وعد بالتوفيق، وما على الإنسان إلاّ أن يسعى والتوفيق من الله ﴿**وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾[2]، فمع السعي والدعاء يوفّق الله عباده.

وإذا برزت عند الإنسان نقاط ضعفه وأرادت أن توقفه فليتذكّر أنّ الله موجود هناك ـ عند تلك النقاط ـ وليركّز على هذا الأمر، وبتكرار هذا التذكّر مع نفسه سيصلح ما قد فسد من نفسه شيئاً فشيئاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(١٦)

الاخلاص وآثاره

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

الفرق بين المخلِص والمخلَص

هناك فرق بين المخلِص والمخلَص.

فالمخلِص ـ بكسر اللام ـ مَن كانت أعماله خالصةً لله، أي يقوم بها لله فقط، وقد وردت في هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]. فالمخلصين هم الذين أخلصوا دينهم لله. أمّا المخلَص ـ بالفتح ـ فهو من أخلصه الله لطاعته.

وفي هذا المعنى أيضاً وردت آيات عديدة، منها الآية التي ذكرناها، والتي ورد فيها أنّ الشيطان أقسم بعزّة الله تعالى ـ بعد أن طرده الله من الجنّة لمّا رفض السجود لآدم عليه السلام ـ أنّه سيقوم بإغواء بني آدم ولكنّه استثنى منهم عباد الله المخلَصين. فإنّ مَن استخلصهم الله تعالى ووقّع على إخلاصهم، لن يقدر إبليس على إغوائهم، ولم يستثنِ غيرهم حتى المخلِصين.

---

(١) سورة ص، الآية: ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

الإخلاص من الأمور الواقعية

هناك في الحياة أمور واقعيّة أعمّ من أن تكون مادّية أو معنوية. فمن الأمور الواقعية في الحياة ـ مثلاً ـ أنّ الإنسان الذي يستطيع أن يسيطر على أعصابه ويملك نفسه تجاه السفهاء من الناس لا يفقد صحته ولا دينه ولا كرامته في المجتمع، خلافاً لمَن يثور بسرعة فيفقد السيطرة على أعصابه وربما ردّ الكيل بكيلين والصاع بصاعين، فينقلب ظالماً بعد أن كان مظلوماً فيفقد دينه، كما يخسر صحّته بسبب غيظه، وتتزلزل مكانته الاجتماعية لتعرّضه للنقد من قِبل الآخرين. فالشخص الأوّل في المثال تصرّف بصورة ربح فيها الموقف بينما فرّط به الشخص الآخر.

والإنسان مفطور على حب الكمال، فحتى الذي ليس عنده علم يحبّ أن يقال عنه عالِم، ويفرح بذلك. كما أنّ الجاهل لا يرضى أن يقال عنه جاهل وإن كان كذلك حقيقة. وهذا إنّما يدلّ على أنّ العلم له واقعية والجهل كذلك.

وكون الإخلاص أمراً حسناً وممدوحاً فهو من الأمور الواقعية؛ فالإنسان عادة تجده ينزعج ويتأثّر لو قيل أنّه غير مخلص في عمله، كما أنّه حتى غير المخلص يفرح لو قيل عنه أنّه مخلص وإن لم يكن كذلك واقعاً. وهكذا حال سائر الواقعيّات كالصدق والشجاعة والكرم.

آثار الإخلاص في الواقع العملي

وللأمور الواقعية آثار عملية تترتّب عليها، وتلك الآثار تتناسب مع درجة الواقعية، فكلّما زادت واقعيّة الشيء زادت آثاره.

نقل في أحوال أحد العلماء الماضين ـ رحمه الله ـ أنّه كان إذا دُعي للصلاة على ميّت، يحضر الجنازة فيصلّي عليها ولا يتأخّر بعد ذلك بل ينصرف إلى

أعماله وشؤونه الاخرى ـ فقد كان مرجعاً صاحب رسالة عملية يرجع إليه الناس في أمور دينهم ـ واتّفق في يوم من الأيّام أن توفّي أحد القصّابين في ذلك البلد، فأُخبر العالِم، فحضر للصلاة عليه، ولكنّه ـ وعلى خلاف عادته ـ تأخّر هذه المرّة حتّى دفنوا الميت، ثم جلس على قبره وقرأ له جملة من الأدعية وبعض السور من القرآن الكريم.

فأثار هذا الأمر استغراب البعض، لأنّ القصّاب الميّت لم يكن من أقرباء العالِم ولم يكن من العلماء أو الزهّاد! وعندما أراد الانصراف توجّه إليه أحدهم بالسؤال عن وجه اهتمامه بهذا الميّت، والإكثار من الترحّم عليه، فقال: إنّ هذا القصّاب ساعدني في أيّام عسيرة، فكان يقرضني وهو لا يعرفني ـ في وقت كنت محتاجاً ـ دون أن يرجو قدرتي على إرجاع المال إليه. فيوم قدمتُ إلى هذا البلد كنت معيلاً فقيراً ولم يكن أحد يعرفني بمن فيهم هذا القصّاب، غير أنّي كنت أشتري منه اللحم، وفي إحدى المرّات لم يكن عندي مال لأدفع الثمن، فقال لي: لا بأس أنا مستعدّ لأن أبيعك اللحم دَيناً، وتكرّرت الحالة في اليوم الآخر، ولعدّة أيام، وهو يقرضني برحابة صدر دون أن يعرفني أو يعلم أنّي قادر على تسديد الديون، فقد كنت طالباً ولا أملك مورداً آمل أن يأتيني منه المال، فسألته يوماً: هل أوصاك أحد بي؟ قال: لا. قلت: تعرفني؟ قال: لا. قلت: لماذا إذاً تقرضني؟ قال: رأيتك مؤمناً بادي الصلاح ومعيلاً؛ فأقرضتك في سبيل الله، فإن حصلتَ على المال رددته إليّ، وإن لم تحصل فلا بأس عليك ولا أخسر في صفقتي مع الله.

يقول العالِم: أُعجبتُ بإخلاص هذا الرجل الذي ساعدني قربة إلى الله تعالى دون أن يعرفني.

فإذا كنّا ـ نحن البشر ـ لا ننسى المساعدة المخلصة، ونستطيع أن نميّزها من دون آلاف المساعدات الأخرى، ونقدّرها، وإذا كنا ندرك هذه الحقيقة ولا

نختلف فيها ـ وهذه الحقيقة من الواقعيات، وللواقعيات آثارها كما قلنا ـ فكيف بالله تعالى وهو العليم الحكيم.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لنا محبين لو قطّعنا الواحد منهم إرباً إرباً ما زادوا إلاّ حبّاً، ولنا مبغضين لو ألعقناهم العسل ما ازدادوا إلاّ بغضاً»[١].

فهل يُعقل أن يُقطَّع أحدٌ بالسيف ومع ذلك يحب مَن بسببه قُطِّع؟! إلاّ إذا كان حبّه لله تعالى.

الإخلاص ونتائجه المستقبلية

جاء في الرواية: «لما أُهبط آدم عليه السلام إلى الأرض جاءته وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره، فكان يدعو لكل جنس بما يليق به، فجاءته طائفة من الظباء فدعا لهن ومسح على ظهورهن فظهر منهنّ نوافج المسك، فلما رأى ما فيها من ذلك غزلان أُخر قالوا: من أين هذا لكنّ؟ فقلن: زرنا صفيّ الله آدم فدعا لنا ومسح على ظهورنا، فمضى البواقي إليه فدعا لهنّ ومسح على ظهورهنّ فلم يظهر لهن من ذلك شيء، فقالوا: قد سلّمنا كما فعلتم فلم نرَ شيئاً ممّا حصل لكم. فقالوا: أنتم كان عملكم لتنالوا كما نال إخوانكم وأولئك كان عملهم لله من غير شيء فظهر ذلك في نسلهم وعقبهم إلى يوم القيامة»[٢].

حكي أنّ رجلاً من الأعراب زار قبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ونظم عنده بيتاً واحداً من الشعر مختلّ الوزن وعارياً من البداعة ونحوها، فانحلّت

---

(١) نوادر المعجزات للطبري: ص٦٠ رقم٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٢ ص٨٩، أبواب الصيد والذباحة.

عروة قنديل من الذهب كان معلّقاً في سقف الحرم، وسقط القنديل أمامه على الأرض، فقيل للأعرابي: إنّ هذا القنديل سقط إكراماً وهدية لك من الإمام؛ وذلك لأنّ الأمر كان خلاف العادة، فالقناديل كانت محكمة الربط بسلاسل حديدية، الأمر الذي فُسّر على أنّه كرامة من الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه لهذا الأعرابي.

فسمع أحد شعراء النجف في تلك الأيام بالقصّة، فنظم قصيدة عصماء وقرّر أن يلقيها عند ضريح الإمام، ليحصل على قنديل من ذهب ـ إن لم يكن أكثر ـ وسمعة طيبة، واجتمع مع أصدقائه عند حرم الامام عليه السلام في اليوم المقرّر الذي أخبرهم به، وشرع بقراءة البيت الأوّل ولم يسقط شيء، واستمرّ فقرأ البيت الثاني ثم الثالث والرابع حتى نيّف على العشرين إلى أن أكمل القصيدة، ولكن دون جدوى. حينها تألّم الشاعر كثيراً وتقدّم نحو الضريح المقدّس وخاطب الإمام قائلاً: أنشدك ذاك الأعرابي بيتاً واحداً من الشعر الذي لا يُعرف أوّله من آخره، فضلاً عن خلوّه من المعاني البديعة، فأعطيته جائزة، وأنا أتيتك بهذه القصيدة العصماء التي أتعبتُ نفسي فيها، ولم تكافئني عليها! ثم انصرف متألّماً.

فرأى الإمام عليه السلام في عالَم الرؤيا يقول له: لماذا عتبتَ عليَّ هذا اليوم؟ فقال: إذا كانت القضية قضية شعر، فشعري أجمل وأبلغ، فلماذا أعطيته وحرمتني؟ قال له الإمام: إنّ ذلك الأعرابي قال الشعر لي، وأنت قلته للقنديل! صحيح أنّك مدحتني لكن لأجل القنديل والكرامة الاجتماعية.

مسؤولية رجال الدين

إنّ طلاب العلوم الدينية مبتلون في مسألة الإخلاص أكثر من غيرهم، لأنّهم قد يصلون ـ نتيجة دراستهم ـ إلى مكانة في المجتمع يطمع الشيطان

بسببها في إغرائهم، لأنّ أحدهم لو زلّ ـ لا سمح الله ـ فسيزلّ ويضلّ بسببه خلق كثير؛ كما لو بلغ أحد مقام المرجعية حيث تُجبى إليه الأموال ويحظى باحترام الناس وتقديرهم وحبّهم، وكذا لو كان وكيلاً للمرجع أو خطيباً أو أيّ مركز اجتماعيّ مرموق. فإنّ مثل هذه الأمور مغريات وكثيراً ما تتطلّب اليقظة بدءاً واستمراراً. فإذا كان نظر الإنسان إلى هذه اللوازم ـ التي تنشأ من التصدّي للمسؤولية ـ كالهيبة والتقدير والوجاهة أو الأموال والمكاسب المادّية الأخرى، حينها يقال للإنسان بعد تعب مرير وعناء كثير: لقد فعلت ما فعلت من أجل هذه الأمور، وقد حصلت عليها، إذاً فلا شيء لك عندنا بعد. لقد عملتَ للشهرة والسمعة ليقال عنك ـ مثلاً ـ: كاتب جيّد أو خطيب مصقع أو عالم عامل أو ما أشبه، وقد نلت مرامك. فيكون حينها كمَن نظم القصيدة للقنديل، أو كالغزلان التي ذهبت للقاء آدم من أجل نوافج المسك وليس من أجل الله تعالى، أمّا مَن عمل هذه الأمور ولم يكن يرجو من ورائها مالاً ولا جاهاً ولا أموراً دنيوية أخرى، بل عمل لله خالصاً فإنّ الله سوف يقدّر له عمله ويجازيه أحسن الجزاء.

فلنعتبر قبل فوات الأوان وقبل أن نكتشف الأمر، ولات حين عبرة، ولنأخذ الدروس من قصص الآخرين. فإذا كان الإنسان بفطرته يدرك أنّ المخلص هو الحريّ بالثواب دون غيره ـ كما تبيّن لنا ذلك في قصّة العالِم الذي كرّم القصّاب بعد وفاته بسبب إخلاصه ـ وأنّ للإخلاص آثاراً وضعية وتكوينية بل تبقى حتى في أعقاب الشخص إلى يوم القيامة، فليراجع نفسه إذاً وينظر أيقوم بأعماله ودراسته وجهاده لله حقّاً، أم هناك ضمائم يشركها مع الله سبحانه؟ وليعرف أهل العلم خاصّة أنّ بلاءهم أعظم لأنّ الشيطان يستهدفهم أكثر من غيرهم، والمغريات أمامهم قد تكون أكثر يشهد لذلك قلّة المخلصين.

الإخلاص المزيف وانعكاسه

والإخلاص مرتبة صعبة البلوغ، وبالنسبة إلى أهل العلم أصعب؛ لمعرفتهم ـ بعض الشيء ـ أن يكيّفوا أعمالهم بنحو بحيث يتصوّر مَن يلاحظهم أنّهم مخلصون حقّاً. حتى إذا شعر من يصاحبهم بعد فترة أنّهم كانوا يتصنّعون الإخلاص ولم يكونوا مخلصين حقاً، سرى في نفسه الشك في المخلصين من أهل العلم كلّهم، مخاطَباً نفسه: إنّ هذا الذي عاشرته كلّ هذه المدّة ـ متصوّراً أنّه مخلص ـ تبيّن لي زيفه، فلا بدّ أن يكون الآخرون كذلك.

وهكذا يكون لمن تظاهر من أهل العلم بالإخلاص تأثيراً سيّئاً على المخلصين الحقيقيين من العلماء؛ إذاً من الأسس التي يجب على الإنسان أن يسأل الله التوفيق فيها والاستمرار عليها هي أن تكون أعماله لله حقيقة.

لا بأس أن يدرس الإنسان لكي يكون مرجعاً ينفع الناس أو مبلّغاً أو خطيباً أو عالماً في بلدة ما، ولكن ليكن كلّ ذلك لثواب الله وأجره. ومَن كان هذا هدفه لا يهمه ما يقوله في حقّه زيد أو عمرو، سواء كان سلباً أو إيجاباً. صحيح أنّ التشجيع والتثبيط لهما أثر في نفس الإنسان، ولكن مَن بلغ درجة الإخلاص لاتؤثّر هذه الأمور فيه كثيراً.

لا ضير فيما لو شجّعنا أحد بشيء. أمّا لو كنّا ـ فقط ـ ننتظر أن يقول لنا الآخرون ذلك من باب الإطراء والاحتفاء، فلنعلم أنّ هذا الأمر الذي أدركته عقولنا القاصرة لا يخفى على الله تعالى، وكلّ شيء عنده بمقدار.

إنّ الشيطان الغويّ قادر على أن يفرّق بين المخلِص والمخلَص، وعندما يقسم بالله يعرف كيف سيكون العمل مع كلّ منهما. فهو يستثني المخلَصين من دائرة إغوائه، مركّزاً على من سواهم ابتداءً بالمخلِصين فمن دونهم.

ثم إنّ الله سبحانه يعرف كلّ ذلك ويكيل لنا بنفس المكاييل ويعرّفنا بها حتى تنقطع حجّتنا ﴿**فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾[1].

لننظر إلى أنفسنا، كم يؤثّر فينا التشجيع والتثبيط؟ فإن كان التثبيط يؤثّر فينا مئة في المئة، فذلك دليل على أنّ الإخلاص غير موجود فينا، حتى ولو بنسبة الواحد في المئة. وذلك كما لو أردت أن تقوم بعمل ـ مثلاً تأليف كتاب ـ ثم لاحظت أنّ هناك مَن يتكلّم ضدّك في حضورك أو غيابك ويصفك بالمراء أو كذا وكذا. فإن قلت: لا فائدة في هذا العمل! أنا أعمل والناس يتكلّمون ضدّي، فلأتركه إذاً! فهذا دليل على أنّه لا وجود للإخلاص في عملك؛ إلاّ إذا كان هناك مصلحة دينية في ترك العمل، أي كان الترك أيضاً لله وليس بسبب تأثّرك لنفسك.

أو مثلاً: لو لم تكن تفكّر في القيام بعمل ما ولكن شجّعك الآخرون ورأيت بأنّه توجد رغبة عند الناس في هذا الأمر، فقمت به من أجل رغبة الناس وليس لأنّ الله أمرك به أو أحبّه، فهذا أيضاً يعني غياب الإخلاص.

فهذان مثالان على عدم وجود الإخلاص حتى بنسبة واحد في المئة.

ولكن لو كان العمل لله وكان التشجيع وراء العمل، أو كان الترك لله وكان التثبيط وراء العمل، وكان لكليهما مصلحة دينية، فهذا يعني وجود الإخلاص.

فعلينا أن نربّي أنفسنا على الإخلاص، ويكون كلّ عملنا لله تعالى، لنكون قد أرغمنا أيضاً أنف الشيطان، فإنّ الإمام عليه الصلاة والسلام يقول: «**لابن آدم لمّتان؛ لمّة من الملك ولمّة من الشيطان**»[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢) اللمعة البيضاء للتبريزي: ٣٣١. واللمّة: الهمّة والخطرة تقع في القلب.

والإمام المعصوم هو خير مَن يعرف الشيطان ولذلك يجتنبه، لكنّا لا نعرفه كما يعرفه الإمام وإلاّ لكان ابتعادنا عنه كابتعاد الإمام. أرأيت كيف يفرّ أحدنا من الظالم أو من الحيوان المفترس؟! إنّ ذلك لمعرفتنا بهما. فلو كنت في غرفة ليلاً وأردت النوم وقيل لك إنّ في الغرفة أفعى مختبئة فهل يغمض لك جفن أم تبقى حذراً حتى الصباح؟!

إنّ الشيطان أخطر من الأفعى وهو عدوّنا الذي حذّرنا الله منه، فلنحذره ولا ننخدع به قبل أن يفوتنا الأوان وينتصر علينا ـ لا سمح الله ـ ويسخر منّا ونندم عند ذلك ولا يفيدنا الندم. ورد في الحديث: «**إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يغلب خيره شرّه قبّل الشيطان بين عينيه، وقال: هذا وجه لا يفلح**»[1].

لاشكّ أنّه لا يأس من رحمة الله لمَن بلغ الأربعين أو أكثر ولكن التحوّل عند ذلك استثناء ﴿**إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ**﴾[2] وفيه صعوبة بالغة.

فالشباب أقدر على أن يسحقوا جبين الشيطان ويرغموا أنفه، فليبادروا قبل أن يتمكّن الشيطان منهم؛ فإنّ الخلاص من ربقته في المستقبل أصعب. والشيطان يعرف ذلك، ويعرف أنّ الإنسان إذا بلغ الأربعين ضعفت قواه وإرادته على محاربة الشيطان إلاّ مَن رحم الله.

فإذا كان الأمر كذلك فلنبدأ من الآن في مراجعة أنفسنا كلّ يوم، كلّ في مجال عمله، ولنزنها قبل أن يصعب الأمر علينا أكثر، وقبل أن تصيبنا الغشاوة التي تكون مانعاً من نفاذ نور اليقين والعلم إلى أعماقنا، لكي نتمكّن أن نميّز أصلاً ما هو الشيطان، وما هو الإخلاص!

---

(١) مشكاة الأنوار للطبرسي: ص١٦٩.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٣.

انظروا الآن إلى مدى اهتمامنا بهذا الواقع الذي نعتقد به ونعتقد أنّه أساسي وأنّ كلّ الأمور الأخرى مبنيّة عليه.

إذاً علينا ـ نحن طلبة العلم ـ أن ننتبه إلى خطر عدم الإخلاص في أوساطنا أكثر من غيرنا؛ لأنّ عدم إخلاصنا سيكون له ـ والعياذ بالله ـ أسوأ الآثار، وربّما تبقى على مرّ التاريخ، ويسلك الطريق المعوّج كثيرون بسببنا نحن، أو نتيجة لما استنبطوه من سلوكنا؛ ولهذا يجب علينا الاهتمام بموضوع الإخلاص أكثر من غيرنا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ الشيطان ينشط في أوساط المتديّنين أكثر، ويدلّيهم على الطرق التي يمكن أن يظهروا فيها بصورة المخلِصين وإن كانوا ليسوا كذلك.

نعوذ بالله من الشيطان ونسأل الله التوفيق لأن يجعلنا من المخلصين إن شاء الله تعالى.

(١٧)

ثمن الجنة

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**ثلاث من أتى الله بواحدة منهنّ أوجب الله له الجنّة: الإنفاق من إقتار، والبِشر لجميع العالَم، والإنصاف من نفسه**»[١].

الحديث يقول أنّ مَن كانت فيه واحدة من هذه الصفات وبها خُتمت حياته فهو يستحقّ الجنّة، وهذا لا يعني أن يكون الشخص مستحقّاً للنار ومع ذلك يجعله الله من أهل الجنّة، بل يعني أنّ مَن توجد فيه هذه الصفات أو واحدة منها فإنّه يكون مؤهّلاً للجنّة.

إنّ أعمال الإنسان وتصرّفاته إنّما تنبعث عن نفسه؛ فالأعمال الصالحة والخصال الحميدة تصدر عن نفسٍ قد ملكَ صاحبها زمامها كنفوس المعصومين عليهم الصلاة والسلام وأولياء الله تعالى، كما أنّ المعاصي لا تصدر إلاّ عن نفس غير مسيطَر عليها. ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الإنسان لا يتمكّن من الاتّصاف بالصفات التي من شأنها أن تورده الجنّة. أمّا الإنسان المالك لزمام نفسه فسينتقل من خير إلى خير حتى يكون من أهل الجنّة. وهذه الخصال التي ذكرها الإمام عليه السلام لا تتوافر إلاّ عند ذوي النفوس العالية.

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٠٣، باب حسن البشر، ح٢.

الخصلة الأولى: الإنفاق من إقتار

عن مروان بن أبي حفصة قال: «كان المنصور قد طلب معن بن زائدة الشيباني طلباً شديداً وجعل لمن يأتي به مالاً، فحدّثني معن باليمن أنّه اضطرّ لشدّة الطلب إلى أن نام في الشمس حتى لوّحت وجهه، وخفّف عارضيه، ولبس جبّة صوف غليظة وركب جملاً من الجمال الثقالة، وخرج عليه ليمضي إلى البادية، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن عمرو بن هبيرة بلاءً حسناً، فخاف فاغتاظ المنصور وجدّ في طلبه.

قال معن: فلما خرجتُ من باب حرب تبعني عبد أسود متقلّداً سيفاً حتّى إذا غبتُ عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض عليّ.

فقلت: ما لك؟

قال: طلبة أمير المؤمنين.

قلت: ومَن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟

قال: أنت معن بن زائدة.

فقلت: يا هذا اتّق الله، وأين أنا من معن؟

قال: دع هذا عنك، فأنا والله، أعرَف بك منك.

فقلت: فإن كانت القصّة كما تقول، فهذا جوهر حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي، فخذه ولا تسفك دمي.

فقال: هاته. فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدّقتني أطلقتك.

فقلت: قل.

فقال: إنّ الناس يصفونك بالجود، فأخبرني هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه؟

قلت: لا.

قال: فنصفه؟

قلت: لا.

قال: فثلثه؟ حتى بلغ إلى عشره. فاستحيت وقلت: أظنّ أني فعلت هذا.

فقال: ما أراك فعلته، وأنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك وجودك المأثور بين الناس، لتعلم أنّ في الدنيا من هو أجود منك، فلا تُعجبك نفسك، ولتحتقر بعد هذا كلّ شيء فعلته، ولا تتوقّف عن مكرمة.

ثم رمى بالجوهر في حجري وخلّى خطام البعير وانصرف.

فقلت: خذ ما وهبته إليك فإنّي عنه غنيّ.

فضحك وقال: أردتَ أن تكذّبني في مقالي هذا، والله لا آخذه ولا آخذ للمعروف ثمناً أبداً!

ومضى. فوالله، لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء، فما عرفت له خبراً وكأنّ الأرض ابتلعته»[1].

فمَن كان يحمل بين جوانحه نفساً كنفس هذا الرجل فهو مُرشَّح لأن يتحوّل ويكون إنساناً صالحاً.

الإنفاق من إقتار أفضل من الإيثار

إن الإنفاق من إقتار أعلى درجة من الإيثار، ومثاله الإنفاق الذي قام به الإمام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء وابناهما عليهم السلام حين قدّموا إفطارهم إلى المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليال متواليات وبقوا جائعين. أمّا الإيثار فقد لا يكون مع شدّة حاجة المؤثر إلى ما يؤثر به غيره، ومثاله أن يؤثر المرء

---

(١) الفرج بعد الشدّة للقاضي التنوخي: ج٢ ص٣٧٢.

بعباءة لا يملك غيرها ولكنه قد لا يحتاجها الآن أو أنّه يستطيع شراء غيرها، أمّا الإنفاق من إقتار فهو كما لو أنفق المرء عباءته مع أنّه لا يملك غيرها ولا يستطيع شراء غيرها، وحاجته فعليّة وشديدة إليها، كما لو كان الفصل شتاءً وهو يدفع بها البرد عن نفسه.

الخصلة الثانية: البِشر لجميع العالم

ومعناه أن يكون الإنسان طلق الوجه مع كلّ مَن يلقاه، سواء كان قريباً أوبعيداً، مسلماً أو كافراً، تربطه به علاقة ما أو لا تربطه. وهذا أيضاً أمرٌ صعب جداً. ولو قرّر أحد أن يجرّب هذا الأمر لَلمسَ صعوبته. فأنّى للمرء أن لا يضجر ولا يتبرّم ولا تظهر عليه آثار الاستياء مع أنّ في مجتمعه وبيئته الأذواق المختلفة والسلوكيات المتباينة، ناهيك عن الأحقاد والعداوات والمشاحنات والمشاكسات، فهذا يحسدك، وذاك يعاديك، والآخر لا يتّفق مع ذوقك في الطعام والشراب أو الدرس أو غير ذلك. فربّما ظهرت من صديق فلتة لا ينساها من كانت بحقّه ولو مضى عليها خمسون سنة، بل سيظلّ يتألّم منها كلّما تذكّرها.. فما أعظم الشخص الذي ينكر نفسه ويقاومها رغم كلّ ذلك ويظلّ منطلق الوجه مع الكُلّ.

إنّ الضحك ـ بصوت عال، أو القهقهة ـ مكروه خلافاً للتبسّم، لذلك عبّر عليه السلام بالبشر ليميّز به التبسّم عن الضحك.

والأمر يعود إلى نفس الإنسان وإمكانية السيطرة عليها في مواجهة كلّ الحالات بصدر رحب ووجه طلق وبِشر وبشاشة؛ فإنّ ضبط النفس يحتاج إلى همّة عالية وتمرين ورياضة مستمرّين.

الاستقامة شرط أساسي

• كان أحد العلماء يذكر عن نفسه أنّه كان زميلاً لأحد المراجع المعروفين، وقد قطعا معاً جميع الأشواط الدراسية والعلمية، وأنّه لا يقلّ ذكاءً وعلمية عنه، ولكن عيبه الوحيد الذي حال دون بلوغه مقام زميله هو أنّه كان ينطوي على طبيعة ساخرة لا يستطيع معها أن يضبط نفسه فيما إذا رأى أدنى ما يثير انتباهه، بل كان يسخر ويستهزئ بكلّ مَن يلقاه.

يقول الرجل: آلمني وضعي ذات مرّة فقرّرت مع نفسي أن أضع حدّاً لحالتي هذه التي جعلتني متأخّراً، فيما تقدّم غيري. فعزمت على أن لا أُظهِر استهزاءً أو سخرية بعد اليوم لأحد، وبالفعل واجهتني بعد ذلك عدّة حالات، فضبطت نفسي إزاءها واستطعت بمشقّة بالغة تجاوزها الواحدة تلو الأخرى، ولكني بعد فترة وجدت أن نفسي في ضيق شديد، فقلت: لا جدوى من صلاحها بعد الآن فلأنطلق وأدعها على سجيّتها تاركاً لها العنان لما تشتهي، وفعلاً تمّ لها ما أرادت، وعدتُ إلى شخصيتي السابقة. وها أنا اليوم لم أجد إلاّ التكسّب من صلاة الاستئجار التي أقبض ثمنها من ذلك المرجع الذي كان زميلي في الدراسة.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ السيطرة على النفس أمر صعب إلاّ أنّه وفي الوقت نفسه لاينبغي التراجع عن ترويضها.

• كانت الوالدة رحمها الله توصينا دائماً بأن نبتلع الكلمة ـ على حدّ تعبيرها ــ سبع مرّات قبل أن ننطق بها، أي لا نستعجل في إطلاقها بل نفكّر فيها سبع مرّات لئلا نندم بعد ذلك. وهذه الوصيّة إنّما تعبّر عن حكمة استُلهمت من حكم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق**

وراء **لسانه**»[١]. أي أنّ العاقل يفكّر أوّلاً ثم يتكلّم. أمّا الأحمق فيتكلّم ثم يفكّر في الكلمة التي قالها وفي أضرارها، وفوائدها، ولماذا قالها؟ أمّا العاقل فلا يعرّض نفسه للاستجواب بعد صدور القول منه، لأنّه فكّر في الأمر قبل ذلك عدّة مرّات.

• لا شكّ أنّ مَن يفكّر في عواقب أموره عدّة مرّات يتمكّن من إتقان مقدّماتها ولا يخطئ فيها غالباً. كما أنّ مَن يكرّر مطلباً يتقنه ويتفوّق فيه.

يقول الشهيد الثاني فيما يوصي به طالب العلم في حفظه لدرسه: «ثم يحفظه حفظاً محكماً، ثم يكرّره بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقات يقرّرها لمواظبته، ليرسخ رسوخاً متأكّداً، ويراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيّداً»[٢].

وهكذا الحال بالنسبة لتعويد النفس على الخصال الحسنة كما في البِشر مع كلّ العالَم؛ فإنّ للناس أذواقاً مختلفة، وقد يواجه المرء يومياً عشرات الأشخاص والحالات، فربّما يتألّم من بعضهم، ولكي يحافظ على خصلة البشر مع الناس ينبغي له أن يضغط على نفسه لكي لا يظهر التأثّر على وجهه وسلوكه، فإن نجح في تكييف حياته بهذه الصورة فهذا معناه أنّه مسيطر على نفسه.

• قال أحد العلماء: إنّ أحد أساتذتي كان يتبرّم بسرعة وربّما أغلظ مع الطلاّب. فناقشته يوماً في مسألة وبقيت ألفّ معه وأدور، وكلّما أجابني رددت عليه وناقشته حتى تأثّر كثيراً، فضربني بقوّة على صدري بظهر كفّه ضربة بقيت أعاني منها لمدّة ثلاثة أيام حتى أنّني استعملت اللصقة الطبّية من شدّة الألم.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص١١ رقم ٤٠.

(٢) منية المريد للشهيد الثاني: ص٢٦٤.

يبدو أنّ الأستاذ لم يملك نفسه فتصرّف هكذا، مع أنّ النقاش المثمر هو الطريق الأمثل لتنمية الطلاّب علمياً، ولا ينبغي للأستاذ أن يتصرّف بغير الكياسة وسعة الصدر. ربّما يتألّم الأستاذ من تلميذه لأنّه لم يفهم الدرس بسرعة أو لأنّه فهمه ولكنّه يراه مشاكساً، ولكن تبقى النقطة المهمّة في الأمر هي أن يسيطر الإنسان على نفسه ويتمالك أعصابه، ويلقى الجميعَ بالبِشر ورحابة الصدر.

المؤمن هش بش

ورد في الأثر أنّ: «**المؤمن هشّ بشّ**»[1]. فالمؤمن ينبغي أن يكون بشّ الوجه والمحيّا وإن كان متألّماً، وهذا يتطلّب إرادة قويّة ونفساً متربيّة، لأنّ النفس بطبيعتها لا تترك الإنسان هكذا، بل تدعوه للعبوس في وجه الآخرين بسبب أزمات الحياة والحالات المختلفة التي لا ترتاح لها إلاّ إذا كان الإنسان مؤمناً كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**حزنه في قلبه وبشره في وجهه**»[2].

ولا عجب إن كان التحلّي بهذه الخصال أمراً صعباً لأنّها ثمن الجنّة، والجنّة لا تثمّن، فاللحظة الواحدة فيها لا يعدلها ملايين ولا المليارات من كنوز الدنيا؛ خصوصاً بعد اقترانها بالخلود.

فالحديث الذي صدّرنا به الكلام وهو أنّ صاحب النفس التي تتمتع بإحدى الخصال التي ذكرها الإمام عليه السلام يستوجب الجنّة، وقلنا إنّ ذلك بحاجة إلى تمرين وترويض مستمرّين للنفس، وأضيف: إنّ مَن تحلّى

---

(١) راجع كتاب التمحيص للإسكافي ص٧٤ رقم ١٧١.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٧٣ باب ١٦ـ جمع من جوامع كلمه عليه السلام، ح ٤١.

بإحدى هذه الخصال جاءته البقية تباعاً؛ لأنّها صفات متلازمة.

الخصلة الثالثة: إنصاف الناس من النفس

يجدر بالمؤمن فيما لو اكتشف أنّ الحقّ ليس معه بل مع مقابله ـ سواء كان أستاذه أو تلميذه أو صديقه أو قريبه أو زميله أو أيّ شخص آخر يتعامل معه ـ أن يقرّ له ويتراجع، وهذه الخصلة لا يمكن أن تكون إلاّ في نفس خاضعة للإيمان وللعقل.

يقول الله تعالى في وصف النفس الخاضعة لغير الحقّ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ**﴾[1]، وقد يكون هذا حال معظم الناس إلاّ مَن روّض نفسه على خلاف أهوائها وغرائزها. فلو قيل للمؤمن ﴿**اتّق الله**﴾ فإنّه سيشعر بذلّ المعصية، أمّا إذا لم يكن الشخص مؤمناً حقّاً أخذته العزة بالإثم وكابر.

كنت في بعض الأيّام أتمشّى مع أحد الإخوان، في مكان، فرأينا شخصاً يسبّ الله ـ والعياذ بالله ـ فنهره ذلك الأخ وردعه. ولكنّ ذلك الشخص التفت إلينا قائلاً: أنا أشعر وأعني ما أقول ولست جاهلاً أو غافلاً! وهكذا أخذته العزّة بالإثم.

من النادر أن تلقى أحداً يتقبّل النصيحة من أعماقه ـ ولا أعني بالنصيحة الموعظة العامّة كالحديث الذي يلقيه الخطيب أو المحاضر، بل المقصود بها النصيحة المباشرة في موقعها المناسب وإن كانت بالأسلوب الصحيح وباللطف واللين ـ فإنّ النفوس في الغالب لا تخضع للحقّ ولا تذعن له وإن لم يكن موقفها صحيحاً، بل كلٌّ يحاول أن يُظهر لنفسه وللآخرين أنّ موقفه كان صحيحاً وأنّه لم يكن جاهلاً بحقيقة الأمر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

وهذه الخصلة كالخصلتين السابقتين تماماً، وهي كلّها أمامكم وبأيـديكم. وبإمكانكم أن تجرّبوا أنفسكم فيها لتروا بأُمّ أعينكم إن كانت سهلة أم صـعبة، وإن كانت النفوس مختلفة فيمـا بينهـا إزاء كـلّ مـن هـذه الخـصال حـسب المحيط والتربية والأجواء التي عاشتها والمراحل التـي قطعتهـا، إلاّ أنّـه تبقـى الصعوبة موجودة عند كلّ النفوس ولكن بدرجات مختلفـة، فبعـضها أصـعب لدى بعض وبعضها أقلّ صعوبة وهكذا.

مزيداً من التفكير في الجنة

نحن ـ طلاّب العلوم الدينية ـ حريّ بنا أكثر من غيرنا أن نفكّر في الجنّـة والشوق لنيلها؛ ذلك لأنّ المفترض أنّ سبب توجّهنا إلى هذا السبيل هو طلب رضى الله سبحانه وتعالى، وبسبب زيادة معرفتنا عموماً بهذه الأمور.

فينبغي لطالب العلم أن يفكّر أكثر من غيره في الجنّة، ولـيُعن نفـسه فـي الثبات على ما أخلص فيه، فهو أَولى من الجميع بذلك؛ لأنه ترك الدنيا ـ وإن كانت مقبلة عليه ـ من أجل الله سبحانه.

ولا شكّ أنّ كثيراً منا لو لم يكن من طلاّب العلوم الدينيـة لكـان وضـعه المالي والاقتصادي أحسن. إذاً مادمنا قد تخلّينا عن الدنيا وبعناها ـ ولـو إلـى حدّ ما ـ فلنركّز قليلاً ونهتمّ ليكون المثمن هو الجنّة؛ فإنّ الله تعالى قـد خلـق الجنّة للمؤمنين المخلَصين والخيّرين المخلصين، وأنتم ـ الطلبة ـ قـد قطعـتم مسافةً باختياركم، فأكملوا الطريق. وكما تحِملتم عناء الابتداء فتحمّلوا لتكملـوا المسيرة.

فلنجرّب من الآن ولنبدأ بأسهل الخصال ثم نرتقي، فنبدأ بالبِـشر للعـالم، فهو أسهل نسبياً من الإنفاق عن إقتار، ومن إنصاف الناس.

وأكرّر أنّ ذلك لا يعني الضحك دائماً؛ فإنّ الله تعالى قد ذمّ الضحك بقوله

عزّ من قائل: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾[١]. بل المقصود بشر الوجه بحيث لو رآه المهموم زالت همومه؛ علماً أنّ هذا التصرّف يؤثّر في الناس أكثر من القول. فقد تحاول أن تزيح الهمّ عن صدر أخيك من خلال كلامك معه لمدّة نصف ساعة أو أكثر ولا ترى استجابة، بينما يمكن أن يكون لمقابلتك الطيّبة معه ولقائك إيّاه بالبِشر الأثر في تحسّن حالته، مع أنّ هذا الموقف قد لا يستغرق دقيقة واحدة، ولهذا ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم**»[٢].

فلنجرّب أن نكون منبسطي الوجوه مع مَن نلقى، ولا نيأس؛ فإنّه وإن كان أمراً صعباً في الجملة إلا أنّه ممكن التحقق بالممارسة والمواظبة.

• كان اثنان من أقربائنا بينهما مشكلة، فذهب إليهما قريب لهما ـ توفّي هو الآخر ـ ونصحهما بطريقة لطيفة، فقال: إنّكما لا ينقصكما شيء إلاّ إزالة التخاصم الموجود بينكما، فأنتما بحمد الله مسلمان مواليان لأهل البيت سلام الله عليهم ومن المصلّين الصائمين القارئين للقرآن والعاملين للخيرات والعارفين لأحكام الدين، فلماذا تحتفظان بـ «بعرة الفأر» هذه في صحيفة أعمالكما؟!

وأنتم ـ طلاب العلوم الدينية ـ الذين تركتم في الغالب معظم اللذات الدنيوية من أجل الله سبحانه، لماذا لا تكملون صحيفة أعمالكم بجعلها خالصة كلّها لله تعالى؟ فما على المرء إلاّ أن يحاول ويبدأ، والله تعالى هو الذي يعينه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ المقصود.

أمّا الصعوبة في ذلك فشيء طبيعي ويحتاج إلى تمرين وممارسة واستمرار واستعانة بالله تعالى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٢.

(٢) الكافي: ج٢ ص٧٨ ح١٤.

(١٨)

حبّ الذمّ وكراهة المدح

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ويل للصائم وويلٌ للقائم وويل لصاحب الصوف إلاّ من...**». ويظهر من الرواية أنّه صلى الله عليه وآله سكت هنا، فقيل: يا رسول الله إلاّ من؟ فقال: «**إلاّ من تنزّهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحبّ المذمّة**»[1].

يستفاد من هذا الحديث الشريف وأحاديث أخرى أيضاً أنّ من أسس تربية الإنسان لنفسه أن يكون بحيث لا يتأثّر ويتغيّر بمدح أو ذمّ فضلاً عن ظهور آثارهما على أعماله وأفعاله.

إنّ الإنسان بطبعه الأوّلي يحبّ المدح ويكره الذمّ، ولكي يصل إلى مرحلة يبغض فيها المدح ويحبّ الذمّ يحتاج إلى ملكة لا يمكن تحصيلها إلاّ بعد أن ينزّه نفسه عن الدنيا وملذّاتها.

ربّما يكون تحصيل هذه الملكة أصعب من الحصول على ملكة العدالة، ولكنّ الآثار المترتّبة على هذه الملكة هي الأخرى أكثر من الآثار المترتّبة على ملكة العدالة.

---

(١) التحفة السنيّة للجزائري: ص٥١.

وليس المقصود ممّا ورد في هذا الحديث بغض المدحة لأنها مدحة، ولا حبّ المذمّة لأنّها مذمّة، بل لأنّ المدح والثناء يقلّلان من قيمة الإنسان غالباً إذا عمل لأجلهما؛ إمّا بخيلاء أو تفاخر أو تكبّر أو غير ذلك، بينما المذمّة على العكس؛ فهي مدعاة لأن تحثّ الإنسان على تصحيح أحواله وأفعاله.

وبعبارة أخرى: ينبغي للإنسان أن يبغض المدح لأنّ الآثار المترتّبة عليه تضرّه، وكذا الحال بالنسبة لحبّ المذمّة، فهو يحبّها لا لكونها حسنة وإنّما لأنّه إذا ما ذُمّ فإنّه سيلتفت غالباً إلى عيوبه ويسعى لتصحيحها، فتكون نتيجة الذمّ لصالحه.

لكي يصل الإنسان إلى مرحلة بغض المدحة وحبّ المذمّة، يحتاج إلى جهد كبير في المراقبة والتركيز، وإذا وفّق إلى تحصيل هذه الملكة سيكون من أعظم الناس راحة، بل حتّى الذين لم يصلوا إلى هذه الملكة سيشعرون بأنّه أكثر منهم راحة واستقراراً.

وفي خبر عن النبي صلى الله عليه وآله أيضاً أنّه قال: «**إنّما هلك الناس باتّباع الهوى وحبّ الثناء**»[1] لأنّ حبّ الثناء ربّما يهلك الإنسان، وكلّما زاد مدح الإنسان تعرّض للمحرّمات أكثر، إلاّ من ربّى نفسه.

بغض المدح رأس التواضع

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**رأس التواضع أن تكره أن تُذكر بالبرّ والتقوى**»[2].

فمن الجدير بالإنسان ـ وإن كان برّاً ـ أن يكره أن يقال عنه أنّه برّ؛ لأنّ

---

(١) جامع السعادات للنراقي: ج٢ ص٢٨٤.

(٢) التحفة السنيّة: ص٥١.

مدح الناس للبرّ لا يزيد في الأمر شيئاً إن لم يفسد؛ لذلك ترى البَرّ الحقيقي يكره أن يقال عنه بَرّ، وهذا يعدّ قمّةً في التواضع الذي هو من قمم الأخلاق.

قد تكون للمدح آثار سيّئة ربما تترتّب عليه، فالإنسان ـ الكاره للمدح ـ يتصوّر نفسه كمن يرى ثقباً في جدار بيت قديم مشرف على السقوط فلا يُدخل يده فيه خشية أن تكون ثمة حشرة مؤذية أو أفعى سامّة أو غيرهما.

فمن طبيعة الإنسان أنه إذا احتمل المضرّة يفرّ، وليست المضرّة في المدح مجرد احتمال وإنّما هي غالبة، إلاّ إذا ربّى الإنسان نفسه تربية حسنة وحاز على ملكة تحصّنه من آثارها السيّئة.

الآثار السيئة للمدح

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال لرجل أثنى على آخر بحضرته: «**لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالذي قلت فمات على ذلك، دخل النار**»[١].

فما أكثر ضرر المدح بالإنسان إذاً؟ لربما كان المدح كذباً فتترتّب على الرضا به آثار تسوق الممدوح إلى النار. ويشهد لذلك أنّ بعض النوايا تقود الإنسان إلى النار؛ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّما خلد أهل النار في النار لأن نيّاتهم في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً**»[٢].

قد لا يكون المدح بنفسه موجباً لدخول النار، إلاّ أنّه يفتح باباً يجرّ إلى جهنّم؛ ومن هنا حسن بغض المدحة وحبّ المذمّة.

ولو قيل لإنسان فقير: كلّما مُدحت نأخذ منك ديناراً، وكلّما ذُممت نعطيك ديناراً، أفتراه بعد ذلك يحبّ المدح أم الذمّ؟

---

(١) جامع السعادات: ج٢ ص٢٨٤.

(٢) الكافي: ج٢ ص٨٥ ح٥.

بالطبع سيحبّ الذمّ لأنّه لو ذُمّ في كلّ يوم عشر مرّات فسيحصل على عشرة دنانير بينما إذا مُدح عشر مرّات أُخذ منه عشرة دنانير. وهكذا يكون حال الإنسان المؤمن؛ لعلمه بأنّه سيثاب على حبّه للذمّ وبغضه للمدح.

فعندما يقارن الإنسان الأمور المعنوية بالأمور الماديّة تتجلّى له تلك الحقائق بكلّ وضوح، وبقدر ما يفرح الإنسان المحتاج للدينار بحصوله على عشرة دنانير عندما يُذمّ في اليوم عشر مرّات، فكذلك يكثر فرحه في المعنويات. وبالتأكيد إنّ الفوز بالجنّة أفضل من الدنيا وما فيها مهما طالت أيّامها وكثر متاعها، فهي لا تعدّ شيئاً مقابل خلود الآخرة وعظيم نعمها ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾[1].

حقيقة التأثر وعدمه

لا يخفى أنّ عدم تأثّر الإنسان بالمدح أو الذمّ لا يعني سلب شعوره بمرارة الذمّ أو حلاوة المدح، بقدر ما يعني أن يجعل غضبه وسروره تحت إرادة عقله؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أشدّكم من ملك نفسه عند الغضب**»[2].

فالإنسان إذا ذُمّ أو شُتم يتأذّى، وقد يغضب ولكن عليه أن لا يتعامل مع غضبه بصورة سلبية. وقد دلّت الروايات على ذلك فضلاً عن سيرة أهل البيت عليهم السلام.

يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما أدرك عمرو بن عبد ود، لم يضربه! فوقعوا في عليّ عليه السلام، فردّ عنه حذيفة، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: مه يا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

(٢) تحف العقول للحرّاني، ص٤٥.

حذيفة، فإنّ عليّاً سيذكر سبب وقفته. ثمّ إنّه ضربه، فلمّا جاء سأله النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك. فقال: قد كان شتم أمّي، وتفل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظّ نفسي، فتركته حتى سكن ما بي ثمّ قتلته في الله[١].

إنّ المدح والذمّ إمّا أن يكونا صادقين فيوقفان الإنسان على حقيقة أمره، أو يكونا كاذبين فيطلعانه على انطباع المجتمع عنه. فكراهة المدح الكاذب تزيده معرفة وتعينه على هداية الناس وموعظتهم، ومحبة الذمّ الصادق تزيده معونة في تغيير سلوكه نحو الأفضل لكي يتعامل بصدق مع المجتمع، فيوفَّق لموعظتهم وإرشادهم؛ فإنّ الأخلاق الفردية الصالحة لها تأثير قويّ على هداية الناس.

وإذا روّض الإنسان نفسه بالرياضات الشرعيّة، عن علمٍ ودراية، وضمّ إليها الدعاء والاستعانة بالله سبحانه، فإنّه يوفّق حتماً.

التخبط في الشبهات

ذُكر في أحوال البسطامي[٢] ـ الذي عدّه المتصوّفة صوفياً، واعتبره العرفاء عارفاً ـ أنّه قال: دعوتُ نفسي إلى طاعة الله، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة[٣].

السؤال الذي يُطرح في المقام: هل هذه الرياضة يقبلها الشرع؟

ألا ينبغي للإنسان أن يكون متشرّعاً في تحصيل المقدّمات التي توصل إلى النتائج ولا يقتصر على النتائج فقط؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج١ ص٣٨١.

(٢) أبو يزيد، طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي، من مشايخ الصوفية، توفّي سنة ٢٦١ هـ ذهب بعض الشيعة والسنّة إلى أنّه شيعي، وآخرون إلى أنّه سنّي، كان معاصراً للإمامين العسكريين عليهما السلام.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير: ج١١ ص٤١، ترجمة أبو زيد البسطامي.

حتى العرف يقرّ ذلك، فعندما يدعو الإنسان ضيفاً إلى داره، ويحبّ مجيئه، فهذا لا يعني أنّه يرضى بأن يدخل داره من أيّ مكان، كما لو يتسلّق الجدار ويدخل عليه، وإنّما يريد مجيئه عن طريق خاصّ وهو الباب.

وكما يكره الإنسان قدوم الضيف إذا تسلّق عليه داره بغتة، كذلك الشرع، الذي جعل لكلّ شيء حكماً.

ومع كثرة الأحاديث والروايات التي بين أيدينا، فهل من مسوّغ لأن نلجأ إلى طرق لا يُعلم مدى صحّتها من بطلانها؟ ثم ما الداعي لأن يخترع الإنسان طرقاً لرياضة النفس مع وجود الطرق الشرعيّة؟! هذا إن لم نقل بحرمة أو كراهة بعض هذه الطرق المخترعة.

وعلى أيّ حال: إنّ ترويض النفس بهذه الصفة (كراهة المدح وحبّ الذّم) يستغرق زمناً طويلاً، إلاّ إذا حظي الإنسان بهمّة عالية.

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام تصدّوا في أحاديثهم وسيرتهم إلى بيان طرق تربية النفس، وإنّ آثارهم سلام الله عليهم موجودة بين أيدينا، فلا حاجة لأن نسلك معها سُبلاً مخترعة قد تقود المرء إلى المكروهات فالمحرّمات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا للسير على خطى أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

(١٩)

النظر إلى ملكوت الله

إنّ التخلّي عن الرذائل طريق إلى التحلّي بالفضائل، والتحلّي بالفضائل طريق إلى الإمدادات والفيوضات الإلهية.

قد يحمل الإنسان نفسه قسراً على تقمّص الفضائل، لكنّه في الوقت نفسه تجده قد احتوشته الرذائل، حتى لا تجد تلكم الفضائل لها مكاناً في القلب إلا لوقت محدود وسرعان ما تزول.

يقول علماء الأخلاق: إنّ على الإنسان أن يصلح نفسه أوّلاً باقتلاع جذور السيئات والرذائل المتعلّقة بقلبه لتحلّ بعد ذلك محلّها الحسنات والصالحات.

وهناك العديد من الأحاديث التي تشير إلى هذا المعنى إجمالاً؛ منها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم، لنظر الى الملكوت**»[١].

حام: أي دار و طاف، والملكوت ـ كما جاء في التفاسير المعتبرة ـ يعني الأمور الماورائيّة والأشياء التي لا تُدرَك بالحواسّ العامّة كالسمع والبصر و... فالإنسان لا يرى الملائكة ـ مثلاً ـ ولا يسمع أصواتها، كما لا يرى كلّ آثار

---

(١) غوالي اللآلي للأحسائي: ج٤ ص١١٣ رقم ١٧٤.

رضى الله وغضبه، شأنه في ذلك شأن عجزه عن الإحساس بحدوث مقدّمات الزلزلة قبل وقوعها، في حين إنّ الله تعالى قد زوّد بعض الحيوانات قابلية الإحساس بقرب وقوع الزلزلة، بحيث تراها تصرخ قبل وقوعها، وتسعى لمغادرة المكان، بل لعلّها تهجره قبل يوم أو يومين من حدوث الزلزال، فهي إذاً تدرك أمراً يعجز الإنسان ـ رغم فكره وعقله ـ عن توقّعه أو تحسّسه.

فمن كانت الشياطين تحوم حول قلبه لتغمره بالأمراض الروحيّة والمساوئ النفسية، يعجز عن النظر إلى ملكوت السماوات والأرض، و عن معرفة الحكمة، ولا يعي أهميّة العقل والفضيلة، وبالتالي ينجرّ إلى حيث تسوقه شياطينه المحيطة بقلبه.

القلب أولاً

لكلّ شيء في الحياة آثار يدركها الإنسان إذا توفّر شرط الإيمان وشرط العلم، فالنظر ـ مثلاً ـ إلى ملكوت السماوات والأرض، ليس بحاجة إلى معجزة ليتحقّق، بل أمره متوقّف على توفّر جملة من العوامل، في مقدّمتها إصلاح القلب.

ومَثل الناظر إلى ملكوت السماوات والأرض مثل المهندس المعماريّ الذي يحدّد عمر هذه البناية أو تلك من أوّل نظرة إليها، ومثل الطبيب الحاذق الذي يستطيع تشخيص المرض بمجرّد أن يلقي نظرة على المريض؛ لما يراه من آثار في وجهه وغير ذلك، ومثل الخبير في علم اللغة والخطابة الذي يستطيع معرفة الخطيب المفوّه من أوّل جملة يتفوّه بها هذا الخطيب أو ذاك.

إذا فما حازه أولئك من علوم وفنون حتى صاروا يعرفون ضمن إطار تخصصهم، إنّما حصل بفعل إعمالهم العقل والعناية، فهكذا الحال لمن يريد الوصول إلى معرفة الملكوت يجب عليه إعمال القلب وتهيئته للتوسّم بآيات

الله؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾[١].

ومن هذا الحديث الشريف وأمثاله قال علماء النفس والأخلاق أنّ على الإنسان لكي ينظر إلى الملكوت أن يصلح قلبه أوّلاً، وذلك عبر انتزاع الرذائل منه، ثمّ بعد ذلك يحاول زرع الفضائل مكانها.

وهذا يلزم قلع جذور السوء من قلبه أوّلاً، فإن استطاع، فبمقدار ما استطاع وبنفس النسبة يكون تسديد الله سبحانه، إليه وشمول رحمته له.

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**إنّ من أحبّ عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه**»[٢].

و(فاء) التفريع المتكرّرة في هذا الحديث تدلّ على ترتّبٍ يكون في مقام حصول النور في القلب. فابتداءً لابدّ من عزيمة وإرادة حقيقية ليتمكّن الإنسان من السيطرة على شهواته وأهوائه.

وممّا ينبغي الإشارة إليه أنّ الحواسّ الظاهرة أسهل في الامتلاك من القلب. فلعلّ من السهل على الفرد أن يحاول امتلاك لسانه إذا تعرّض للسبّ والإهانة، أو أن يسيطر على يده إذا تعرّض للضرب، فيشبك أصابعه لئلاّ ينفلت منه زمامها ولكن من الصعب أن يملك المرء قلبه. فالجبان ـ مثلاً ـ حتى إذا خاض بجسمه في الأمر المهول، إلاّ أنّه يعجز عن امتلاك قلبه وأن يتحكّم بدقّات القلب فيحول دون اشتدادها.

فامتلاك الجوارح أسهل على الإنسان بكثير من امتلاكه قلبه وباطنه،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧٥.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص١٥١ رقم٨٧.

لاسيّما في اللحظات الحرجة والحسّاسة، كلحظات الغضب والطمع والحسد. وهذه حالة موجودة في القلب ولكن إذا غذّاها الإنسان اشتدّت وزادت، أما إذا أنّبها وحاول إزالتها تقلّ الحالة وتضعف.

وما ورد في هذه الرواية من قوله عليه السلام: «فاستشعر الحزن» يفيد أنّ الحزن لا يكون إلاّ من النفس؛ فيصيب قلب الإنسان فتور في الانقباض والانبساط فتظهر آثاره على البدن والوجه، والمراد هنا الحزن على ما فرّط وارتكب من الذنوب وعلى ما قد ينتظره من مستقبل غير معلوم من هذه الجهات. لذا فإنّ من أعانه الله على نفسه لابدّ أن يكون كثير التأكيد والتركيز على نقاط الضعف الكثيرة والمتأصّلة في قلبه والتي عادة ما يكون استسلام الإنسان لشهواته مسبّباً عنها.

آثار حزن القلب

ثمّ إن استشعار الحزن يتبعه تجلبب الخوف واتّخاذه لباساً، أي يكون الخوف بادياً عليه كلّه، ولذلك فإنّك لا ترى المؤمن يمتلئ ضحكاً ـ كما في بعض الأحاديث[1] ـ وإذا ضحك لم يتعمّق في الضحك، لأنّه يعرف ويدرك مَن الناظر إليه، وما الذي يمكن أن ينتظره إن زاغ قلبه عن الجادّة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كثرة الضحك تمحو الإيمان**»[2]. ولذلك، فالمؤمن في حزن دائم، وقد ورد في الأحاديث والروايات ضرورة أن يسعى العابد لأن تظهر آثار العبودية على جوارحه وأعضائه.

---

(١) مثل قول أمير المؤمنين سلام الله عليه في صفة المؤمن: «**إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق، ضحكه تبسّم**». الكافي للكليني: ج٢ ص٢٢٦، باب المؤمن علاماته وصفاته، رقم١.

(٢) روضة الواعظين للنيسابوري: ص٤١٩.

ثمّ يقول عليه السلام: «**فزهر مصباح الهدى في قلبه**»، تفريعاً على ماسبق، فأصبح يرى بعين الله ما وراء الأشياء، فلا يؤخذ من حيث يجهل، فيتجنّب بذلك كثيراً من المهاوي؛ فيكون قلبه نورانيّاً، لأنّ فيه مصباح الهدى.

وعلماء الأخلاق يقولون بأنّ هذه الحالة تدرك ولا توصف كما هو حقّها؛ إذ يضاعف الله من نعمه على الإنسان، فيقذف في قلبه نور العلم، فبدلاً عن الرذائل تكون المحاسن، وعوضاً عن الجهل تكون المعرفة، أي يتحوّل القلب إلى وعاء نورانيّ بفضل الله تعالى ـ بعد قيام إرادة الإنسان ونيّته الصالحة ـ فتنبعث في داخل الفرد حالة من السكينة والاطمئنان، يتمكّن بسببها من مواجهة الصعاب واقتحام العقبات.

فالحاجة ملحّة إلى إصلاح القلب قبل إصلاح الجوارح، وليس الإصلاح بكثرة الصلاة والصيام رغم مطلوبيتهما، ولكن الإنسان مدعوّ إلى التركيز على اقتلاع جذور الفساد والاستعانة بأفضل العبادات. وقد أشارت الآيات والروايات إلى فضل التفكّر في أمر الله على كل عبادة[1]، فالإنسان إذا لم يهتمّ بإصلاح قلبه، لا تؤثّر العبادات الظاهرية في حاله[2].

(١) كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

وروي عن الإمام الرضا سلام الله عليه أنّه قال: «**ليست العبادة كثرة الصلاة الصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ**». الكافي: ج٢ ص٥٥ ح٥.

(٢) وقلب الإنسان بمثابة بيته، ولا بدّ من اقتلاع جذور النتن من البيت، لتسهل فيما بعدُ عمليةُ الإصلاح والتحلّي بالجمال والفضيلة والطهارة.

فالفرد الحسود لن ينفعه ندمه على مراقبة هذا وذاك، ولن ينفعه استغفاره ربّه مادام لم يقتلع جذور الحسد من قلبه، كذلك الحال بالنسبة للمتكبّر والفاسد والمجرم؛ مالم يقتلعوا جذور الفساد والشرّ والرذائل من قلوبهم، وإن كانت للأعمال الظاهرة أثراً على القلب ولكنّه أثر قليل. =

وسائل التطهير

للتطهير والإصلاح وسائل، منها: الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والذي يتأتّى بالإرادة والممارسة. ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**من أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[١].

فالقلب كالمرآة، كما أنّ الإنسان لا يستطيع أن يرى نفسه جيّداً في المرآة التي تراكم الغبار عليها، كذلك إذا علا قلبه رين الرذائل، لا يستطيع أن ينظر إلى ملكوت الله؛ قال عزّ وجلّ: ﴿**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[٢].

فلِمَ توجل قلوب هؤلاء عند ذكر الله تعالى؟ الجواب: لأنّ قلوبهم عامرة في الأساس، فعندما يسمعون اسم الله تعالى، يستذكرون أشواط حياتهم ويستعيدونها ويتوقّفون عند مساوئهم ويستغفرون الله من المعاصي.

والإخلاص ـ لا ريب ـ مهمّة صعبة إلاّ أنّها ممكنة.

ويتلو الإخلاص لله تعالى، مهمّة الاستمرار في محاسبة النفس.

كما يعتبر التوكّل على الله سبحانه وتعالى وطلب المعونة منه من وسائل الإمدادات الإلهيّة في تطهير القلب من الرذائل، وتعويضها بالفضائل.

وهذه الوسائل سلسلة متّصلة الحلقات، لا تنفكّ. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنّ علينا بتسهيل الطريق لنتحلّى بالفضائل ونتجنّب الرذائل.

= فالمطلوب الإلفات المباشر إلى القلب ليستطيع أن ينظر الى ملكوت السماوات والأرض. فبإصلاح القلب واستشعار الحزن وتجليب الخوف يزهر مصباح الهدى في قلب الإنسان.

(١) التحفة السنيّة للجزائري، ص٨٨، باب تطهير السرّ عمّا سوى الله.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢٠)

الابتعاد عن هوى النفس

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى۝فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

التلازم بين الخوف واجتناب الهوى

إنّ الخوف من مقام الله ونهي النفس عن الهوى وجهان لشيءٍ واحد قوامه الورع والتقوى في الذين آمنوا. فمتى نهى المؤمن نفسه عمّا تهواه يكون قد خاف مقام ربّه، ومتى خاف مقام ربّه فقد نهى النفس عن الهوى. فالعطف هنا شبه تفسيريّ.

ولعلّ الحكمة في ذكر الجانبين في سياق واحد هوظهور أحدهما لبعض الناس أسرع من الآخر، فقسمٌ من المؤمنين يخاف أوّلاً مقام الربّ فينهي نفسه عن هواها وبعضهم بالعكس، ينهى نفسه عن هواها فيخاف مقام ربّه.

وقد ورد هذا الأصل الأصيل في أحاديث عديدة تشير إلى أنّ الميزان الإلهي في الجزاء للخلق وأعمالهم هو كونها منبعثة عن هذين الأمرين: خوف مقام الله، ونهي النفس عن الهوى. فإن كانت الطاعات والعبادات منبعثه عن

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

خوف الله ونهي النفس عن الهوى، فهي المقبولة.

ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو صُمْتَ الدهر كُلَّه، وقمت الليل كُلَّه، ثم قُتلت بين الصفا والمروة** ـ أو قال: بين الركن والمقام ـ **لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ، إن في جنّة ففي جنّة، وإن في نار ففي نار**»[١].

فمن يقضي كلّ أيامه بالصوم وكلّ لياليه بالسهر والعبادة، وختمت حياته بالشهادة بين الصفا والمروة أو بين الركن والمقام ـ وهو البقعة التي تتساقط فيها ذنوب العباد؛ لما لها عند الله من الحرمة والقداسة ـ فإنّه مع كلّ ذلك لن يتعدّى طبيعة هواه. فإذا كان يهوى الدنيا وكانت أعماله وعباداته مجرّدة عن خوف الله تعالى ومقامه، فإنّه سيُحشر مع طبيعة هذا الهوى وحسب نسبتها، والعكس بالعكس.

الهوى أعدى أعداء الإنسان

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيءٌ أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم**»[٢].

فإذا كان للإنسان عدوّ خطير، وأراد أن يتجنّب شرّه، فإنّه يحذره في مجلسه، فتراه يجمع كلّ انتباهه، وينظر إليه بعين الحذر وإن كان منشغلاً بالتحدّث إلى غيره أو يقرأ كتاباً، وربّما يتساءل في نفسه عن سبب مجيئه إلى المجلس، أيريد به سوءاً، أم كان مجيئه صدفةً؟ كذلك يحذره أينما يراه، وإذا ما قدّم له طعاماً، فإنّه يتأنّى ويتوجّس، وإذا دعاه إلى مكان، يتثبّت ويوجل، وهكذا. فكذلك ينبغي أن يكون الأمر مع الهوى الذي هو أعدى أعداء

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج٤ ص١٠٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٣٥، باب اتباع الهوى، ح١.

الإنسان، بمعنى ضرورة التثبّت منه واليقظة لدى أيّ عمل يقوم به الإنسان أو كلمة يتفوّهها، لئلاّ تكون مشوبة بالهوى.

يُنقل أنّ خطيباً كان مريضاً طريح الفراش، في ساعاته الأخيرة، وصفه أحد زائريه، قائلاً: رأيت عينيه تفيضان بالدموع، مع أنّه ينبغي أن يتوقّع الأجر الجزيل من الله تعالى لما بذله من جهود في خدمة أبي عبد الله عليه السلام فسألته عن السبب!؟ فازداد بكاؤه وأشار إلى حوض ماء كان قريباً منه، قائلاً: لقد أخذتُ من أعين الناس دموعاً بمقدار ماء هذا الحوض، ولكنّ جهودي لم تكن خالصة لله سبحانه وتعالى بقدر ما كانت لشخصي، لأزيد من شهرتي، وأرضي نفسي.

فأيّ عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله يعلم بنيّة نفسه، ويعلم ما إذا كان قلبه وفكره متوجّهاً إلى الله تعالى، أم متعلّقاً بغرض آخر.

ومن ناحية أخرى؛ فإنّ أسوأ ما يتعرّض له الإنسان من أعدائه أنّ العدوّ يقضي على جزء من حياته، فيُحرمه ـ مثلاً ـ سنين معدودة من عمره، بينما الهوى ـ وهو أعدى الأعداء ـ في حال استرسل الإنسان معه، تاركاً له العنان، يحطّم كلّ حياته، حتى يأخذ بآخرته مع دنياه.

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**»[1].

ولكن كيف يمكن للإنسان الحصول على ملكة نهي النفس عن الهوى؟ لاسيّما طلاب العلوم الدينية الذين آثروا حرمان أنفسهم عن جملة من

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٩٢ رقم٤٢.

الزخارف لأنّهم إذا اتّبعوا الهوى تركوا آثاراً سلبيةً أكثر على من يعيشون معهم؛ نظراً لما يتوقّعونه منهم.

إنّ خسارة أهل العلم ـ والعياذ بالله ـ فيما إذا اتّبعوا الهوى كالخسارة المادّية للشخص الذي تقرّب من ملك أو رئيس أو تاجر ليستفيد منه ومع ذلك لم يستفد من مقامه أو أمواله، حينها سيكون أكثر حسرة وخسارة من الإنسان البعيد عنه كليّاً، وعليه؛ فإنّ خسارة من سلك هذا الطريق متزلّفاً ولم يظفر بجملة من المظاهر الدّنيويّة ستكون أكبر.

بين الخسارة الدنيوية والربح الأخروي

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه كان له خادم أوصاه بأن يمسك زمام فرسه حالما يزور قبر جدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وحينما دخل الحرم الشريف جاء رجل من تجّار خراسان إلى الخادم وعرض عليه أن يهبه كل أمواله بإزاء تفويض خدمة المسكة بزمام الفرس إليه، ففكّر الخادم هنيئة ثمّ قال له: سأذهب لمولاي وأستأذنه في الأمر، ثمّ سلّمه زمام الفرس وذهب إلى الإمام وقال له: يابن رسول الله، هل رأيت منّي سوءاً طيلة خدمتي، فنفى الإمام أن يكون رأى منه ذلك. فسأله مرّة أخرى: إذا كان هناك خيرٌ يصلني فهل تمنعني عن نيله، فأجابه الإمام بالنفي أيضاً. فقال له الخادم أنّ تاجراً خراسانيّاً عرض عليه ما عرض، وطلب منه الإذن في الانصراف عن الخدمة ليزاول عمل التجارة فيما سيمنحه الرجل الخراساني، فوافق الإمام على ذلك، ولكنّه حينما همّ بمغادرة الحرم سمع نداء الإمام يطلبه، فعاد إليه، فقال له الإمام: حيث خدمتنا فترة فإنّ لك عليّ النصيحة، وأخذ يذكّره بما لشيعة أهل البيت عليهم السلام وملازميهم من درجات عند الله ومنازل قريبة منهم في الدار الآخرة، وأنّ الخير كلّ الخير في الدنيا والآخرة من نصيب مَن يلازمهم.

فتغيّرت حالة الخادم لكلام الإمام وقرّر البقاء في خدمته عليه السلام. وحينما خرج من الحرم رآه التاجر، فقال له: جئتني بغير ما ذهبت ولا أرى على وجهك علامة الشوق لعقد الصفقة، فأعلمه الخادم بأنّه لن يتبادل المواقع معه.

إنّنا لم نعرف ذلك التاجر كما لا نعرف من كان ذلك الخادم، ولكن هذه القصّة تدلّ على عظمة شخصيّة التاجر والخادم معاً، حيث كان الأوّل على استعداد للتخلّي عن كلّ أمواله في مقابل خدمة الإمام عليه السلام، فيما وعى الخادم من رحلة قصيرة عميقة الأثر وأعرض عن المال الكثير لأجل الله سبحانه والدار الآخرة.

من يتق الله يرزق

وروي أنّه: كان رجل من العبّاد في بني اسرائيل يصنع السلال ويعيش هو وعياله من ذلك، وذات يوم مرّ على باب دار أحد السلاطين، وكان الرجل جميل السيماء، فبصرت به زوجة السلطان، فأرسلت عليه ليقتادوه إلى داخل القصر، وحينما جاءها راودته عن نفسه، فاستعصم، فأبت عليه إلا ارتكاب الإثم، فارتأى لنفسه حيلة يتخلّص منها، فطلب من زوجة السلطان أن يتنظّف على سطح القصر، فأوعزت إلى الخدم أن يصحبوه إلى السطح، فقال الرجل في نفسه: لقد قضيت عمري بالعبادة ولن أفسد عبادتي الطويلة بساعة، ثم قرّر أن يلقي بنفسه من على سطح القصر ـ لعلّ الانتحار للتخلّص من الذنب كان جائزاً في بعض الأمم السابقة، أو كان هذا عابداً غير متفقّه، أمّا في الإسلام فذلك ممّا لا يجوز. فمن أجبر على الحرام في مثل هذه المواقع فعليه أن يتخلّص منه بالحلال أو بحرام آخر أقلّ خطراً، لا أن يقتل نفسه ـ.

ولكن ما تدلّ عليه هذه القصّة تفاني هذا الرجل في الخوف من مقام الربّ وقدرته على مصارعة هواه.

فصمّم على إلقاء نفسه من فوق القصر، ولكن الله تبارك وتعالى أمر جبرئيل بأن يتلقّفه ويهبط به إلى الأرض، ففعل جبرئيل ذلك ولم يلحق به ضرر، وهرب من زوجة السلطان.

وحيث كان الرجل قد ترك سلاله في قصر السلطان، فإنّه عاد إلى زوجته بلا سلال أو ثمن مال يشتري به لعياله شيئاً يأكلونه كما هي عادته، فسألته زوجته شيئاً يشتريه، فقال لها بأنّه لا يملك شيئاً أبداً، ثمّ أمرها بإشعال التنور لئلاّ يتصوّر الجيران بأنّهم جياع، فامتثلت المرأة أمر زوجها. وصادف أن جاءت إحدى الجيران تطلب منهم ناراً، فقالوا لها: أمامك التنّور وخذي منه. وحينما أخذت ناراً عادت إليهم لتقول: إن خبزكم يكاد يحترق: فلمَ لا تخرجونه، فجاءوا إلى التنّور، فرأوا الخبز فيه بالفعل، فتناولوه وأكلوه، وعلموا أنّ الله هو الذي رزقهم به، وما كان ذلك إلا نتيجة نهي النفس عن الهوى والخوف من مقام الرب، ومصداقاً لتحقّق الربح في الدنيا والآخرة.

الفصل الثاني:

الوصايا

(١)

الاقتداء والاعتبار*

١ـ الاقتداء بالعلماء الربانيين

لا ريب أننا وإيّاكم ـ وسائر علماء الدين وطلاّب العلوم الدينية ـ ورثة حوزات يمتدّ تاريخها لقرون، وورثة الألوف من طلاب العلوم الدينية والأساتذة وأئمّة الجمعة والجماعة والعلماء. فلسنا الرعيل الأوّل ولسنا الجيل الأخير، وينبغي لنا جميعاً أن نهتدي بهدي القرآن الكريم وهدي رسول الله وفاطمة الزهراء والأئمّة الاثني عشر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأن نتعلّم ونقتبس من حياة العلماء الماضين حتى نكون صالحين وحتى تتعلّم منّا الأجيال القادمة إن شاء الله تعالى.

أذكر لكم قصّة من تاريخ الحوزة العلمية في مدينة النجف الأشرف عن أحد العلماء الماضين والذي كان بدوره في يوم من الأيام شابّاً متعلّماً ثم أصبح أستاذاً ثم عالماً ومرجعاً للتقليد، وهو المرحوم الشيخ محسن خنفر.

عاش الشيخ خنفر في زمان الشيخ الجواهريّ ـ صاحب كتاب الجواهر ـ

---

* حديث السيد المرجع حفظه الله في وفد مكتب أئمة الجمعة والجماعة في العراق من النجف الأشرف الذي زار سماحته في ٢٣ جمادى الأولى عام ١٤٢٧هـ.

و(ربما) كان متقدّماً في مرجعيته على صاحب الجواهر كما يستفاد من تاريخه، وقد تتلمذ على يديه المئات، صار العشرات منهم فقهاء ومراجع تقليد، أحدهم المرحوم الشيخ محمد طه نجف.

يذكر أنّ الشيخ محسن خنفر مرض في أخريات حياته مرضاً أجلسه في البيت وألزمه الفراش، بحيث لم يستطع مزاولة شؤون المرجعية من قبيل التدريس وتحقيق المسائل والإجابة على الأسئلة الشرعية...، وطال به المرض إلى أن توفّي رضوان الله تعالى عليه عام ١٢٧٠ هـ ـ وتوفّي الشيخ صاحب الجواهر قبله بأربع سنوات أي عام ١٢٦٦ هـ ــ وفي الفترة ما بين وفاة صاحب الجواهر إلى وفاة الشيخ خنفر صارت المرجعية للمرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري رضوان الله تعالى عليه.

وحيث إنّ من طبع الناس غالباً أنهم لا يسألون عن الشخص إذا مرض أو غاب لسبب ما، وإن كان شخصاً مهمّاً، بل ينسونه بسرعة، لا يزورونه ولا يسألون عنه! فأصبح الشيخ خنفر ـ هذا المرجع الكبير والمربّي لعشرات الفقهاء ـ لا يمتلك ما يسدّ به حتى قوت عائلته.

وفي هذا الوقت جيء للشيخ الأنصاري رضوان الله تعالى عليه بكيس كبير مملوءاً بالليرات الذهبية، وبدون أن يفتحه الشيخ الأنصاري قال: احملوه إلى الشيخ محسن خنفر. فأتوا به إلى الشيخ خنفر فقال: ما هذا؟ قالوا: الشيخ الأنصاري يبلّغك السلام ويقول هذا لك. فسأل عما فيه؟ قالوا: ليرات ذهبية. فجلس الشيخ خنفر وفتح الكيس وأخذ ليرة واحدة وكسر منها كسرة وأخذها وأرجع المتبقّي منها في الكيس وقال: عودوا به إلى الشيخ الأنصاري، فهذا المقدار الذي أخذته يكفيني حالياً.

وعندما أرجعوا الكيس إلى الشيخ الأنصاري قام بتوزيع ما فيه على

الفقراء والأيتام وعلى المساجد والحسينيات ومجالس أهل البيت سلام الله عليهم وعلى المشاريع الخيرية الأخرى.

وبعد أيام تُوفّي الشيخ خنفر وتبيّن أنّ المقدار الذي أخذه من الليرة سدّ حاجته وحاجة عائلته للأيام المتبقّية من حياته.

أجل لقد رحل الشيخ محسن خنفر وبعده بزهاء عشر سنوات توفّي الشيخ الأنصاري[١] ومرّ على وفاتهما زهاء ١٥٠ سنة لكن آثارهما وقصصهما لن تموت إلى قيام الساعة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة**»[٢].

لقد كانت هذه القصّة في الحقيقة امتحاناً كبيراً للشيخ محسن خنفر، حيث استطاع بتحمّله للمرض والفقر والألم وعدم اغتراره بمال الدنيا أن يخرج من الدنيا مرفوع الرأس.

إنّ أهل العلم يواجهون ظروفاً صعبة، وفي أكثر الأحيان ابتلاءات كثيرة، فيجب عليهم أن يقوا أنفسهم من الانجرار وراء شهوات النفس ورغباتها. جاء في الروايات الشريفة: «إنّ الإمام عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه سمع رجلاً يقول: اللهم إنّي أعوذ بك من الفتنة. فقال: **أراك تتعوّذ من مالك وولدك، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ولكن قل: اللهم إنّي أعوذ بك من مُضلاّت الفتن**»[٣].

---

(١) وهما مدفونان في النجف الأشرف، في الروضة الحيدرية المقدّسة قرب باب القبلة.

(٢) خصائص الأئمة للسيد الرضي: ص١٠٥، من كلامه سلام الله عليه القصير في فنون البلاغة.

(٣) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٣٧ باب٥٩، أنه يكره أن يقال اللهم إني أعوذ، ح٨٩٣٩.

إنّ منشأ سعادة الماضين وسرّ التوفيق الإلهي الذي حظوا به هو تحمّلهم لمصاعب الدنيا ومشاكلها ومشاقّها، وعدم اغترارهم بزخرفها وملذّاتها، وبذلك خلّدهم التاريخ علماء عظاماً.

لذا ينبغي أن تكونوا على وتيرة العلماء الماضين وفي طريقهم. إقرؤوا تاريخهم وتعلّموا منهم حتى يتعلّم الأجيال منكم، فعلماؤنا رضوان الله تعالى عليهم ورّثونا تراثاً ثميناً، وعلينا أن نورّث الأجيال القادمة ما ورثنا. فلا ينبغي لأحدكم أن يفكّر في المشرب الأهنأ أو المطعم الألذّ أو الثياب الأنعم أو البيت الأجمل والأرفه وما شابه ذلك من المادّيات وأمور الدنيا الفانية. فلم يكن بيت النبي صلى الله عليه وآله أفخم بيت في المدينة، ولا كان بيت الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أفخم بيت في الكوفة.

فهذه الأمور ليست مفخرة للعلماء، بل المهمّ والمدعاة للفخر هو أن تكونوا الأحسن علماً وتقوى وزهداً.

٢ـ الاعتبار بعاقبة الظالمين

في أطراف مدينة سامراء منطقة تسمّى بـ (الخلفاء) تقع بالقرب من المأذنة المعروفة بـ (الملويّة) التي تبعد عن الروضة العسكرية الطاهرة حوالي كيلومترين، هذه المنطقة فيها قبور سلاطين بني العباس ومنهم الطاغية المجرم المتوكّل الذي ظلم وطغى زهاء عشرين سنة وذبح الآلاف من محبّي أهل البيت سلام الله عليهم وشرّد الآلاف منهم، وسجن الألوف. ولكن لو ذهب اليوم أحدكم إلى هذه المنطقة لما وجد أيّ أثر لقبور العباسيين حتى ولو بمقدار آجرة واحدة.

ومن نوادر ما جاء في كتاب (مآثر الكبراء في تاريخ سامراء) أنّه ذهب ذات مرّة أحد أحفاد طغاة بني العباس مع مجموعة من أصدقائه إلى سامراء،

حيث مرقد الإمامين العسكريين سلام الله عليهما[1] وقرأوا الفاتحة ثم ذهبوا إلى قبور العباسيين. فقال أحدهم للحفيد العباسي: لقد كان آباؤك خلفاء وملوكاً وقد حكموا نصف المعمورة، وكان عندهم الحول والطول والمال والجيش والرجال والسلاح وكلّ شيء، وهؤلاء ـ وأشار إلى مرقدي الإمامين العسكريين سلام الله عليهما ـ كانوا أسراء بيد آبائك، فما بال قبورهم مشيّدة وتزورها الناس بينما لا نجد أثراً لقبور آبائك؟ فقال العباسي: لأنّ هؤلاء ـ وأشار إلى ضريحي الإمامين الهاديين سلام الله عليهما ـ كانوا مع الحقّ، وآبائي كانوا على باطل.

---

(١) وكان مرقد الإمامين العسكريين سلام الله عليهما آنذاك في حجرة صغيرة وكان شيعة أهل البيت ومحبّوهم يأتون لزيارتهما، أمّا عامّة الناس فكانوا يأتون ويقرؤون الفاتحة.

(٢)

تعلّم محاربة «الأنا» من العلماء*

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ﴾[١].

نقل أنّ الشيخ البهائي رحمه الله ذهب ذات مرّة ـ في زمن مرجعيّته وزعامته للشيعة ـ إلى زيارة العتبات المقدّسة في العراق، والتقى بالمقدّس الأردبيلي في مدينة النجف الأشرف وكان حينها من أكبر الشخصيات العلمية. فتباحثا حول مسألة ما في مجلس كان غاصّاً بالعلماء والشخصيات الدينية. وبعد مناقشات كثيرة وردّ وإثبات استطاع الشيخ البهائي أن يثبت رأيه ويكسب جولة النقاش.

ثم بعد عدّة أيام ذهب هذان العالمان الجليلان إلى مقبرة وادي السلام. وبعد أن قرآ الفاتحة جلسا جانباً وطرح المقدّس الأردبيلي المسألة نفسها وناقشها مع الشيخ البهائي واستطاع أن يقنع الأخير برأيه بأدلّة محكمة وقويّة. فقال الشيخ البهائي: أكنت تعلم بهذه الأدلّة في بحثنا ذلك اليوم، أم علمت بها بعد ذلك؟ قال الأردبيلي: نعم، كنت عالماً بها ذلك اليوم، لكنني لم أطرحها

* حديث السيد المرجع حفظه الله في جمع من الفضلاء أئمة الجمعة والجماعة من مدينة النجف الأشرف الذين زاروا سماحته في ٢٤ من ربيع الثاني عام ١٤٢٧ هـ.

(١) سورة النحل: الآية ٩٦.

خشية أن أخدش شأنكم العلمي، وتصغر شخصيّتكم في عيون الحاضرين وأنتم في مقام الزعامة المطلقة للمذهب.

يمرّ اليوم على هذه الحادثة زهاء أربعمئة سنة تخرّج خلالها الألوف من الطلاب في حوزة النجف الأشرف، ولكن كثيراً منهم لم يبق له حتى الاسم، فيما بقي اسم المقدّس الأردبيلي وأمثاله؛ لأنّ ما كان لله تعالى ينمو، وما كان لغيره فهو فانٍ وزائل. لقد بقي ذكر المقدّس الأردبيلي وسيبقى اسمه مخلّداً، لأنّه كان يعملُ لله تعالى فقط.

نعم، لقد عاصر المقدّسَ الأردبيلي كثير من العلماء ولكن لو راجعتم كتب التراجم والتاريخ لما وجدتم لأكثرهم أيّ ذكر. فالعمل الخالد هو ما كانت صبغته إلهية، أما الأهواء النفسية ففانية وزائلة.

أيّها الأعزّة، بما أنّكم الآن تسلكون طريق العلم، فعليكم أن تختاروا بين أن تعملوا بنحو تكونون معه مخلّدي الذكر كالمقدّس الأردبيلي والشيخ البهائي وغيرهما، أو تكونوا ممّن لم يبق منهم أيّ ذكر، وهذا تابع لنواياكم وأعمالكم، فإن كانت لله سبحانه فسيخلّد ذكراكم، أما إذا كانت لغير الله تعالى فلا خلود ولا ذكر.

ثمّ إنّ حبّ الظهور هو من صفات النفس الأمّارة بالسوء ومن شهوات النفس الموجودة في باطن كلّ إنسان، وكلّ واحد يحبّ أن يتظاهر بقدراته وإيجابياته.

إذاً من يبغي التوفيق الكثير، عليه أن يعزم لوقاية نفسه من هذه الخصلة السيّئة، وذلك بالسيطرة على شهوات نفسه.

(٣)
العلماء وإقامة الدين*

قال الله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[2].

من خلال إجراء مقارنة بين هاتين الآيتين المباركتين نستنتج أنّ الله تعالى أمرنا أن نفعل ما من شأنه إقامة الإسلام وإعلاء كلمته. ومن الواضح أنّ إقامة الإسلام تشبه إقامة عمارة أو بنيان؛ لأنّ الإسلام عنوان عام لمجموعة من الأخلاق، والعقائد، والقيم، والأحكام، والآداب المختلفة في حياة الإنسان، تحدّدها طائفة من الأحكام الشرعية.

والمقصود من إقامة الدين أن يلتزم به جميع الناس كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً وأن يعملوا بأحكامه. فإقامة الدين أعمّ من فهمه، وهي تتطلّب الإيمان والالتزام بقوانين الدين وتطبيق أحكامه جميعاً.

مقدمات إقامة الدين

إنّ إقامة الدين تتطلب مقدّمات عدّة، أحدها تعلّم العلوم الإسلامية،

---

* حديث السيد المرجع حفظه الله في وفد حوزة الزهراء سلام الله عليها العلمية وجمع من طالباتها في الخامس من صفر عام ١٤٢٧ هـ.

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

والعلوم المتعلّقة بها كالعربية والبلاغة. وبعبارة أخرى: العلوم المعروفة بالعلوم الدينية أو الحوزوية. فالمتظلّع بالعلوم الإسلامية يمكنه أن يقيم مناظرة مع أصحاب الديانات الأخرى وخاصّة علمائهم، فيثبت بطلان عقائدهم ويُتمّ الحجّة عليهم ويهديهم إلى مذهب أهل البيت سلام الله عليهم.

لقد شاء الله تعالى أن يختار أهل الحقّ والهدى طريقهم في الهداية والصلاح عن علم ووعي، وأن يعي أهل الباطل أيضاً بطلان عقائدهم، كما اختاروا طريقهم عن علم أو بعد إتمام الحجّة عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾[1].

سألت أحد الفضلاء الذين يعيشون في إحدى الدول عمّا يقال من أن تلك الدولة قد أعدّت مليون ومئتي ألف كادر متعلّم لتبليغ مذهبهم الباطل؟ فقال: هذه الإحصائية تعود إلى ما قبل عدّة سنوات سابقة من الآن. أما الآن فقد بلغ عددهم مليون وخمسمئة ألف تشكّل النساء أكثر من مئة ألف منهم، وكلّهم منحرفون عن مذهب أهل البيت سلام الله عليهم!

ولكي ننجح في مواجهة هذا المدّ السلبيّ فلاشك أنه يجب أن يكون لنا أيضاً طاقات متعلّمة وكفوءة. ومقدّمة ذلك هو تعلّم العلوم الإسلامية.

واقعية التشيع

إنّ هناك الآلاف من علماء المذاهب الأخرى وبعد عمرٍ من الاتّكاء على مسند التدريس والفتيا، قد استبصروا وتحوّلوا إلى مذهب التشيّع. وبعضهم حدث عنده هذا التحوّل الروحيّ المبارك بعد أن ناهز السبعين أو الثمانين من العمر.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

من المسلّم أنّ الإنسان ما لم يكن عالماً لا يمكنه أن يناظر عالماً من مذهب آخر وأن يهديه إلى الصراط المستقيم.

فمن يدقق في بعض مناظرات علماء الشيعة مع علماء الأديان والمذاهب الأخرى، يجد روائع العلوم والآثار؛ خذ منها ـ مثلاً ـ مناظرة السيّد محمد باقر القزويني مع علماء اليهود في مدينة ذي الكفل ـ في العراق ـ قبل حوالي مئة وخمسين سنة والتي انتهت إلى اهتداء جملة منهم إلى نور الإسلام والتشيّع.

الخبرة في سوق العلم

ههنا أودّ أن ألفت نظركم إلى مسألة وهي كما توجد في عالم البضائع والاقتصاد والتعاملات التجارية ظاهرة باسم «الغش»، والتي تعرض فيها سلع مزوّرة بدل السلع الأصليّة، فكذلك الحال في سوق العلم أيضاً، وما أكثر الحالات التي تزيّف فيها الحقائق ويلبس فيها الباطل لبوس الحق، وتحلّ المغالطة ـ وهي الاستدلال الباطل الذي يظهر بمظهر الحق ـ محلّ البرهان والاستدلال الحقيقي.

وكما أنّ أهل الخبرة فقط هم الذين يستطيعون تمييز العقيق والياقوت وسائر الأحجار الكريمة عن غيرها من الأحجار العادية، فكذلك العلماء الدارسون والضالعون هُم فقط يمكنهم أن يفرّقوا في سوق العلم بين الحق والباطل، ويميّزوا الخبيث من الطيب، والمغشوش المزيّف من النقي الأصيل.

ثمّ إنّ الخسارة والغشّ في سوق العلم أعظم بكثير من الخسارة في الأمور المادّية؛ فلو أنّ أحداً اشترى ـ بدل العقيق ـ حجرة لا قيمة لها بثمن غال جداً من دون استشارة أهل الخبرة بالأحجار فإنّه سيخسر مبلغاً كبيراً من أمواله فقط، أما من ابتلي بالمغالطات المضلّلة فإنّه سيخسر دنياه وآخرته.

وصاحب العلم النزيه لا يقتصر ربحه على نفسه، بل يحول دون ضلال

الآخرين أيضاً.

كما أودّ لفت انتباهكم إلى كثرة الخرافات الموجودة في الأديان غير السماوية، لذا يجب عليكم أن تطلبوا العلم عدّة سنين، وتتباحثوا فيما بينكم، وتعزّزوا من قدراتكم العلمية لئلا تشعروا بالعجز إزاء أية مغالطة قد تواجهكم ولكي تجيبوا على الشبهات بأسلوب علميّ صحيح. ففي هذه الصورة وحدها توفّقون في نشر الإسلام وإقامة الدين.

إقامة الدين مسؤولية عامة

إنّ قوله تعالى ﴿**أقيمُوا الدين**﴾ أمر، والأمر يفيد الوجوب، أي يجب إقامة الدين. كما أنّ الله تعالى لم يقيّد إقامة الدين في الحجاز أو ايران أو في مكان آخر؛ أي إنّ في الآية إطلاقاً، وهذا يعني: وجوب إقامة الدين في كلّ مكان من العالم.

من هنا يجب على كلّ إنسان أن يعمل حسب طاقته من أجل إقامة الدين في كلّ مكان. وهذا الواجب لا يقتصر على الرجال وحدهم، فالرجال والنساء فيه سواء، والمسؤولية مشتركة، فإنّ الأمر القرآنيّ يشمل الرجال والنساء معاً. وما أكثر النساء اللواتي وقفن ـ عبر التاريخ ـ في وجه الشبهات والمغالطات ودافعن عن مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم وصنّ المبادئ والمقدّسات.

(٤)

لنتعلم من ورع العلماء *

قبل زهاء أكثر من قرن كان الشيخ الآخوند الخراساني قدس سره يدرّس بحث الخارج في حوزة النجف، فعزم يوماً ما اثنان من تلامذته أن يحصوا عدد الحاضرين في الدرس، فوقف أحدهما على باب الدخول إلى قاعة الدرس والآخر على باب الخروج، وأمسك كلّ منهما بمسبحة للعدّ، فكان مجموع ما أحصوه (١٢٠٠) طالب.

ولكن كم من هؤلاء بقي اسمهم في التاريخ؟ ربما مئة أو ـ على أكثر التقادير ـ مئتان.

لذا أوصي جميع طلاب العلوم الدينية خصوصاً، والمسلمين عموماً بوصيّتين هامّتين:

١. التعبئة العلمية، باغتنام الفرص وعدم تضييع الوقت بل استغلاله للعلم والتعلّم.

٢. التقوى الحقيقية «الاحتياط في الدين».

لقد كان للشيخ مرتضى الأنصاري قدس سره زميل أيّام دراسته، يدرسان معاً،

---

* حديث سماحته في جمع من طلبة العلوم الدينية من النجف الأشرف وفدوا لزيارته في بيته المكرم بمدينة قم المقدسة.

واتّفق في أحد الأيّام أنّ هذين الشخصين (الشيخ الأنصاري وزميله) لم يكونا يملكان أكثر من فلس واحد، فالتفت ذلك الزميل للشيخ الأنصاري وقال له: هل توافق على أن نشتري بهذا الفلس رغيفاً من الخبز نصفه لك ونصفه لي؟ فوافق الشيخ الأنصاري وذهب ذلك الزميل إلى السوق ليأتي بالرغيف ولكنّه في طريق عودته صادف بائع دبس فقال له: هل تعطيني من الدبس ما قيمته فلساً واحداً قرضاً؟

فوافق البائع وأعطاه الدبس، فوضعه الشخص وسط الرغيف وعاد إلى الشيخ.

وعندما رأى الشيخ الأنصاري الدبس في الخبز سأله مستغرباً: من أين لك بثمن الدبس ولم يكن عندنا سوى فلس واحد؟ فقال: أقرضَنيه بائع الدبس.

وهنا التفت الشيخ الأنصاري إلى زميله وقال: وهل تضمن بقاءك حياً لتفي له؟ وما كان ينبغي لك أن تفعل هذا؛ لأنّ رغيف الخبز وحده كان سيشبعنا أيضاً. أما إني فسآكل من أطراف الخبز التي لم يمسّها الدبس وأترك لك الباقي.

ومضت الأيام وانقضت على هذه الحادثة ثلاثون سنة. وعاد زميل الشيخ الأنصاري من إيران إلى النجف الأشرف وكان الشيخ الأنصاري يومذاك مرجعاً كبيراً يدرّس في الروضة العلوية المباركة. وعندما وصل الزميل كان الشيخ قد أتمّ الدرس توّاً والطلبة في حال الخروج من الروضة، وعندما ولج الزميل القديم الصحن الحيدري التقى الشيخ الأنصاري وهو في حال الخروج فسلّم عليه وخاطبه بلهجة الصديق القديم: ما ضرّ لو استمرّت رفقتنا؟ كيف بلغت أنت هذا المقام السامي في حين إني لم أبلغ شيئاً؟

فالتفت إليه الشيخ الأنصاري وأجابه بلهجة الصديق القديم والممازح:

ربما لأني تخلّيت عن ذلك الدبس ولم تستطع أنت التخلّي عنه.

صحيح أنّ كلام الشيخ الأنصاري رحمه الله كـان مزاحـاً، ولكنـه فـي الوقـت نفسه لم يخل من الصدق، وإن لم يكن أيّ إشكال في الدَّين ولم يَقُـلْ أحـد بحرمته، إلاّ أنّ شدّة احتياط الشيخ الأنصاري لم تسمح له بذلك. وفي النتيجـة كانت شدّة الورع لدى الشيخ هي السبب وراء خلود اسمه.

وعليه، فليفكّر كلّ منكم من الآن مع نفسه وليقرر أيريد أن يكون ضـمن الألف المنسيّين أم القليلين الذين بقيت ذكراهم؟ فمـن كـان يحـبّ أن يبقـى اسمه حتى بعد مرور ألف سنة، فليعمل بهاتين الوصيتين على أفضل وجه.

(٥)

التأسي برسول الله في صموده وأخلاقه*

قال الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[1] .

لا ريب أنّ المعنى المستفاد من هذه الآية الشريفة هو أنّ القرآن يأمرنا أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ شيء، حيث قال علماء البلاغة: «حذف المتعلّق يفيد العموم». فاقرأوا تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله واستثنوا ما كان من مختصّاته صلى الله عليه وآله كصلاة الليل التي كانت واجبة عليه، وزواجه من تسع بالعقد الدائم، ودخوله مكّة المكرمة بالسلاح حيث أبيح له ذلك ولمرّة واحدة فقط، وهذا الأمر لا يجوز لغيره مطلقاً. فاقرأوا وانظروا كيف كان يتعامل مع الأسرى والعبيد والأطفال والمؤمنين والعاصين والمنافقين. وكيف كان يعاشر زوجاته وأصحابه وأقرباءه، وكيف يتعامل مع أعدائه، وكيف كان يفصل بين ماله الشخصي ومال الأمّة، وكيف كان يعبد الله سبحانه. انظروا إلى سيرته بتمعّن ثم تأسّوا به، فالتأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله واجب لمن يريد

---

* حديث السيد المرجع حفظه الله في جمع من طلاب العلوم الدينية من إفريقيا زاروه في ليلة السابع عشر من ربيع الأول عام ١٤٢٧ هـ ذكرى ميلاد سيد الكائنات رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

الفوز والنجاة في الآخرة، كما قال عزّ من قائل: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ .

أذكر لكم بالمناسبة نقطتين عن حياة وسيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأكتفي بذكر مثال واحد عن كل نقطة، لأنّ الحديث عن سيرته صلى الله عليه وآله يتطلّب المئات والمئات من الليالي والأيام.

١. صموده

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله صامداً في الحقّ صموداً لا نظير له في تاريخ الإنسانية، فضلاً عن صمود الأنبياء والرسل عليهم السلام[1]. وهناك العشرات من الأمثلة على ذلك؛ منها: عندما بعثه الله تعالى كانت الكلمة الأولى له صلى الله عليه وآله مع المشركين هي: «**قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا**»[2]. وبما أنّ المشركين كانوا يعبدون آلهة متعدّدة ومتنوّعة حيث كان لهم إله من خشب ومن قطن وحديد، وإله من حجر وطين، وإله من ذهب وفضّة ونحاس، وكان لكلّ قرية صنم، ولكل عشيرة صنم، بل لكل عائلة صنم، وأحياناً لكلّ فرد صنم،

وبما أنّهم نشأوا على عبادة الأصنام، فكان لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقع كبير عليهم. فشقّ عليهم ذلك وجاءوا إلى أبي طالب سلام الله عليهم ـ عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ـ وقالوا له: إنّ ابن أخيك سفّه أحلامنا وأفسد شبابنا و...، فقل له إن كان يشكو العُدم، فسنجمع له من المال ما يكون به أغنى العرب ونملّكه علينا. وذكروا كثيراً من هذه المغريات.

---

(١) يؤيّده قوله صلّى الله عليه وآله: «**ما أوذي نبيّ مثلما أوذيت**». الصحيح من السيرة، للعاملي: ج٣ ص٣٣.

(٢) انظر مناقب آل أبي طالب للمازندراني: ج١ ص٥١، فصل فيما لاقى من الكفار.

فنقل أبو طالب سلام الله عليه كلامهم إلى النبيّ وكان بإمكانه صلى الله عليه وآله أن يقول: هذا اعتقادي، ولي أدلّة عقلية تثبت ذلك، وأستطيع إقناع من يناقشني بأنّه لا إله إلا الله وأنّي رسول الله إلى الناس كافّة. لكنّه صلى الله عليه وآله أجابهم بكلام قطع به الطريق عليهم أن يأتوا له ثانية حيث قال:

«لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما أردته»[1] .

هذا صمود رسول الله صلى الله عليه وآله. وعليه، ينبغي لكلّ من يعرف الحقّ ويقتنع به، أن يستقيم، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2] وليصمد، ولكن بأخلاق حسنة، لا بعنف أو بإرهاب أو بشدّة.

لنتعلّم الصمود من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن نعزم في نفوسنا وقلوبنا بأن نعاهده على الصمود، لكي نحظى بدعائه صلى الله عليه وآله. فكلّ إنسان مسؤول أمام الله سبحانه عمّا يعتنق ويعتقد، ومسؤول في الدنيا أمام مجتمعه، وأمام من يبلغهم خبره، وأمام التاريخ عندما يطّلع عليه الأجيال في المستقبل. فالذي يعتقد برسول الله صلى الله عليه وآله عليه أن يصمد في سبيله، والذي يعتقد بأمير المؤمنين عليه أن يصمد في سبيله سلام الله عليه، والذي يعتقد بفاطمة الزهراء فعليه أن يصمد من أجلها وفي طريقها سلام الله عليها، والذي يعتقد بالحسن والحسين عليه أن يصمد في سبيلهما سلام الله عليهما، والذي يعتقد بباقي الأئمّة من أهل البيت عليه أن يصمد في سبيلهم سلام الله عليهم، والذي يعتقد بوليّ الله الأعظم صاحب العصر والزمان فليصمد معه عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

---

(١) تفسير القمّي: ج٢ ص٢٢٨، مورد تفسير سورة ص، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٣.

٢. أخلاقه

عندما تتصفحون تاريخ رسول الله صلّى الله عليه وآله وتقرأونه بتمعّن، تعرفون أخلاقه العظيمة، وسجاياه الكريمة. والشواهد عليها كثر؛ منها: عندما كان صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة ـ وكان يومها حاكماً ورئيساً للدولة الإسلامية وكان كلّ شيء تحت أمره ونهيه ـ جاءه «**أعرابي فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة حتى نظرتُ** ـ كما يصفه أنس بن مالك ـ **إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أثّرت به حاشية الرداء من شدّة جبذته ثم قال له: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله متبسماً وأمر له بعطاء**»[1] أي أنّه صلى الله عليه وآله عفا عنه ولم يقابله بالمثل. وكان بإمكانه صلى الله عليه وآله أن يصفع الأعرابي، أو أن يترك ذلك لأصحابه، أو أن يقتصّ منه، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[2] لكنه صلى الله عليه وآله لم يقابله بالسيّئة بل عامله بالفضل. فهل في دنيا اليوم يوجد رئيس حكومة يمكن الاقتراب منه فضلاً عن جذب ردائه؟!

كذلك كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله زوجات وكان بعضهنّ يُسئن الأدب معه صلى الله عليه وآله وقد عاتبهنّ القرآن بل هدّدهن كما في قوله تعالى: ﴿**إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[3]. بل وصل الأمر بإحداهنّ أن شكّكت في نبوّته صلى الله عليه وآله، فقد ذكرت الروايات أنّها قالت لرسول الله صلى

---

(١) انظر مكارم الأخلاق: ص١٧، في تواضعه وحيائه صلى الله عليه وآله.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٤.

الله عليه وآله: أنت الذي تزعم أنّك نبيّ الله؟[1] ولم ينقل أحد أنها تيقّنت بعد ذلك. ونقل أيضاً: أنّه كان بينها وبينه صلى الله عليه وآله كلام فأدخل أباها حاكماً فقالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: قل، ولا تقل إلاّ حقّاً. فلطمها أبوها وقال: يا عدوّة الله! النبيّ يقول غير الحقّ[2]؟!

فلم نجد ولو مرّة واحدة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قابل إساءة إحداهن بالمثل، سواء كانت إساءة بالكلام أو بالفعل.

كما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أصحاب كثيرون وكان فيهم الجيّد والجيّد جداً، والسيّئ والسيّئ جداً، بل بعضهم كان من المنافقين بصريح القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾[3]. فابحثوا في التاريخ وانظروا كيف تعامل معهم صلى الله عليه وآله.

يجب إذاً أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الأخلاق ونقتدي به ونصنع كما كان يصنع، ونقابل إساءة الأصدقاء والجار والأقارب وغيرهم كما كان يصنع مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله. ولا يكون هذا إلاّ بعد عزم، ومن يعزم يوفّقه الله تعالى ليكون في رضوانه سبحانه ضمن الذين اقتدوا برسول الله وتأسّوا به صلى الله عليه وآله، وممّن عمل بالآية الشريفة ـ في صدر البحث ـ. فالتوفيق لا يحصل دون عزم وتصميم.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: ج٢ ص٤٢، الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح.

(٢) انظر إحياء علوم الدين: ج٢ ص٤٣، كتاب آداب النكاح. وفي كنز العمّال للهندي: ج١٣ ص٦٩٦ رقم ٣٧٧٨٢، قالت: أقصدا!

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠١.

واعلموا أنّ وراءكم مئات الملايين في العالم، في آسيا وأوربا وأمريكا وغيرها وكذلك في القارة الأفريقية التي هي الآن معظمها حرّة أو مقبلة على الحريّة، فحاولوا الاستفادة من أجواء الحريّة بإيصال تاريخ وسيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم إلى كل هذه الملايين. فإن تسعين بالمئة من الشعب الأفريقي ـ مثلاً ـ ليسوا مسلمين أو لا يعرفون أهل البيت سلام الله عليهم لكنهم في الوقت نفسه ليسوا معاندين، بل حتى المتعصّبين الذين خضعوا لغسيل الدماغ، إذا ما عرفوا الصورة الحقيقة للرسول الأكرم وأهل البيت صلوات الله وسلامه عليه وعليهم سيتبدّلون ويتغيّرون.

فلعلّ كلمة واحدة، أو قصّة واحدة، أو سطراً واحداً من عبارة حق وصدق تغيّر تاريخ الإنسان وحياته، كما حصل لعالمٍ لم يكن يعرف أهل البيت سلام الله عليهم واستوقفه حرف الجرّ (من) في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[1].

هذا العالِم تأمّل في هذه الآية الشريفة وتدبّر فيها، وفكّر وبحث في الكتب والأحاديث والتاريخ فوجد الحقّ وصمد في سبيله، حيث استنتج أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ليسوا كلّهم على صواب أو مغفوراً لهم، ولا يؤجرون جميعاً على صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وعلى ما أدّوه من صلاة وصيام وحجّ و... .

لذا عليكم الاقتداء برسول الله وآله صلوات الله وسلامه عليهم في القول والعمل، وأن تطبّقوا في حياتكم أسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله، وتتعلّموا منه الصمود

---

(١) وهو المقطع الأخير من الآية ٢٩ في سورة الفتح التي ذكرت صفات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

والأخلاق الحسنة. فالملايين في العالم ينتظرون هدي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بسببكم وبواسطتكم، وهدي القرآن الحكيم عبركم، وهدي أهل البيت سلام الله عليهم بقلمكم ولسانكم وأسلوبكم، فلا تحرموهم، وهذا بحاجة إلى خدمة وتعلّم كبيرين ومعمّقين، وعمل واسع حتى توفّقوا.

(٦)

طلب العلم فريضة*

قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله: «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة**»[١]. فكما أنّ الصلاة والصيام والحجّ والزكاة واجبة بشرائطها، كذلك طلب العلم واجب على الرجال والنساء.

إنّ علوم الإسلام الحقيقية ثلاثة، وهي:

١. أُصول الدين.

٢. فروع الدين.

٣. الأخلاق والآداب.

والمقصود من أصول الدين هو معرفة تفاصيل وأدلّة التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد. ومعرفة أصول الدين تبعث على الاعتقاد بالله تعالى والإيمان به وبملائكته وأنبيائه ورسله وأوصيائه، والتصديق بكتبه ورسالاته وصحفه. كما يمكن أن يُستدلّ من أُصول الدين على أنّ أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله هم اثنا عشر أوّلهم أمير المؤمنين الإمام علي سلام الله عليه وآخرهم

---

* حديث السيّد المرجع حفظه الله في جمع من طلاب العلوم الدينية من إفريقيا زاروه في ليلة السابع عشر من ربيع الأول عام ١٤٢٧ هـ ذكرى ميلاد سيد الكائنات رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٢٤٩ باب٤، عدم جواز القضاء والافتاء بغير علم و...، ح١٧.

الإمام المهديّ الموعود عجّل الله تعالى فرجه الشريف. وقد استشهد منهم أحد عشر، أمّا الإمام المنتظر فهو حيّ لكنه غائب وسيظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. هؤلاء الاثنا عشر مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومولاتنا فاطمة الزهراء سلام الله عليها هم المعصومون الأربعة عشر، الذين عُصموا من السهو والنسيان، وهم أهل الكمال، وطاعتهم واجبة على الجميع.

وفروع الدين يمكن أن تجدوا تفاصيلها في الرسائل العملية. أما الأخلاق والآداب فهي ترتبط بسلوك الفرد والمجتمع وتعامل الإنسان مع نظرائه كالزوجة، والأولاد، والأقارب، والأصدقاء، والجار، وزملاء العمل و... الخ.

وكما أنّ معرفة أصول الدين قدر الحاجة واجبة على الجميع، ويمكن التعرّف عليها عبر مظانّها، فكذلك الأمر بالنسبة إلى فروع الدين، حيث يمكن الرجوع فيها إلى العالم الفقيه. كما يجب على كلّ فرد أن يعرف الواجب والحرام من الأخلاق والآداب وتتّبع موارد الابتلاء فيهما من خلال دراسة سيرة النبي صلّى الله عليه وآله وسيرة آل بيته عليهم السلام. ومن الجدير تعليم هذه العلوم للآخرين بعد تعلّمها.

ولا بأس أن نذكر بعض الأمثلة التي لها ارتباط بالأخلاق والآداب حيث ذكر لنا التاريخ نساء كثيرات قمن بهداية الآخرين، منهن ديلم بنت عمرو، زوجة زهير بن القين أحد أصحاب الإمام الحسين سلام الله عليه.

فقد كان زهير عثمانيّ الهوى، وكان في طريقه إلى العراق من مكّة المكرّمة، فعلم أنّ الامام الحسين سلام الله عليه أيضاً في المسير نفسه، فكان زهير وكما نقل جماعته من فزارة ومن بجيلة، قالوا: كنّا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكّة، فكنا نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن ننازله في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام ونزل منزلاً لم نجد بدّاً من

أن ننازله، فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب، فبينما نحن جلوس نتغذّى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتى سلّم ثم دخل فقال: يا زهير بن القين! إنّ أبا عبد الله الحسين بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان منّا ما في يده حتى كأنّ على رؤسنا الطير. فقالت له امرأته: سبحان الله أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟! لو أتيته فسمعت من كلامه، ثم انصرفت. فأتاه زهير بن القين. فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ورحله ومتاعه فقوّض، وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثم قال لامرأته: أنت طالق، إلحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خير، ثم قال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتبعني وإلاّ فهو آخر العهد»[١].

فالمرأة المؤمنة تستطيع أن تبدّل وتغيّر حياة إنسان من عدوّ لأمير المؤمنين إلى محبّ وتابع له سلام الله عليه. وقد صار زهير ـ بفضل إرشاد وتذكير زوجته ـ ممن يخاطبهم يوماً الآلاف من الناس: بأبي أنت وأمّي.

ومن هذه النساء أم الأسود بنت أعين بن سنسن التي استطاعت أن تهدي إخوتها العشرة إلى طريق أهل البيت سلام الله عليهم، منهم الراوية زرارة بن أعين الذي خرج من نسله كبار المحدّثين الذين قدّموا خدمات جليلة للتشيع، منهم أبو غالب الرازي.

وهكذا بوسع المسلمين والمسلمات ممارسة ذات الدور في الأخلاق والآداب روماً في الوصول الى مرضاة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وآل بيت رسوله صلوات الله عليهم.

---

(١) الإرشاد للمفيد: ج٢ ص٧٢، ملاقاة الحسين سلام الله عليه لزهير بن القين.

(٧)

كيف نحظى برعاية صاحب الزمان؟*

كان المرحوم السيّد مهدي بحر العلوم رضوان الله تعالى عليه قد حظي بشرف اللقاء مع مولانا المفدّى الإمام المهدي الموعود عجّل الله تعالى فرجه الشريف مرّات عديدة. ونقلوا عنه ـ عندما كان مرجعاً للتقليد ـ أنّه سافر ذات مرّة من مدينة النجف الأشرف إلى مدينة الحلّة. وحين وصوله للحلّة استقبله الناس وكان كلّ واحد منهم يرجو السيّد أن ينزل في بيته. إلا أنّ السيّد سألهم عن عنوان واسم أحد كسبة المدينة، لكن أكثرهم لم يعرفه. وبعد أن بحثوا عنه تبيّن أنّ الذي سأل عنه السيّد هو كاسب عادي يملك دكّاناً بسيطاً في إحدى أحياء المدينة. فأخبروه بأنّ السيّد بحر العلوم يبحث عنك. ففرح الرجل، وعندما حضر سأله السيّد: هل تسمح لي أن أنزل في بيتك؟ فأجاب الرجل: أنت تمنّ عليّ بذلك، لكنّ بيتي صغير وبسيط جداً ولا يسع لاستقبال من يريد اللقاء بك. فقال السيّد: سأنزل وحدي في بيتك وأجعل اللقاء بالناس في مكان آخر.

أمّا الناس فاعترضوا وقالوا للسيّد: هذا المكان لا يليق بكم كونكم أحد المراجع الكبار، ومحلّ تشرف كثير من الناس. فأجابهم السيّد: سأحضر في

---

* حديث السيّد المرجع في جمع من الأخوات الناشطات في المجال الثقافي والديني من مدينة إصفهان، كنّ قد وفدن لزيارة سماحته في بيته المكرّم بمدينة قمّ المقدّسة.

أيّ وقت كان وفي أيّ مكان تنتخبونه أنتم للقاء الناس. فوافق الجميع على إصراره بتعجّب!

ثم بعد فترة من الزمن سألوا السيّد بحر العلوم عن سبب إصراره للنزول في بيت ذلك الكاسب البسيط. فقال رحمه الله: لقد أمرني سيدي ومولاي الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف بذلك.

قالوا: وهل سألت المولى عن سبب ذلك؟ قال: أنا مطيع له ولا يسعني سوى تنفيذ أمره.

قالوا: إنّ أهل البيت سلام الله عليهم كلامهم كلّه حكمة، فهل تستطيع أن تبيّن لنا سبب ذلك حسب قناعتك الشخصية؟

قال السيّد: عندما كنت ضيفاً عند الرجل أحببت كثيراً أن أجد فيه ما كان سبباً في رعاية المولى صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف له فوجدت حياته بسيطة وكان متديّناً بسيطاً، لكنه كان ملتزماً بالفرائض كلّها. وعندما أخبرته أنّي أُمرت من قبل المولى عجّل الله تعالى فرجه الشريف بالنزول في بيته، تعجّب وفرح وبكى! ثم قال: إنّي كاسب بسيط وإنّ تركي العمل ليوم واحد يجعلني أبات ليله جائعاً، ولكن سعيت قدر استطاعتي أن أحافظ على ديني وألتزم بأحكامه وأخلاقه.

يقول السيّد بحر العلوم: وبعد أن ألححت عليه ذكر لي ما اعتبره سبباً لكلّ ما حظي به من الخير والبركات في حياته.

هذه القصّة لا خصوصية فيها، فكلّ إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة، شابّاً أو كهلاً، متعلّماً أوغير متعلّم، قد أودع الله تعالى فيه قوّتين متضادتين إحداهما العقل والأخرى الرغبات، وهما من عجائب صنع الله جلّ شأنه. فكلّ واحد منّا يمكنه أن يحظى برعاية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وينال القرب منه بمقدار ما فضّل به معتقداته على أهواء نفسه وشهواتها.

(٨)

ليكن يومنا خيراً من أمسنا*

قال الإمام الصادق سلام الله عليه: «**من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون**»[١]. وقال مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: «**الكيّس من كان يومه خيراً من أمسه**»[٢].

هذه الحالات الثلاث التي وردت في الحديثين الشريفين ترتبط بكلّ فرد، مهما كان دوره في الحياة، سواء كان عالماً أو جاهلاً، كاسباً أو موظّفاً، ورجلاً أو امرأة. ومعنى المغبون: هو بيع الشخص شيئاً ثميناً بقيمة بخسة أو شرائه شيئاً رخيصاً بسعرٍ غال، وبالطبع ستكون نتيجة هذا العمل هي الحسرة والندم.

إن خسر المرء أو فَقَد ثروته فيمكنه أن يعوّض عنها في يوم ما، أما خسارة العمر فلا يمكن التعويض عنها أبداً، فما فات لا يرجع، وكلّ إنسان يقضي عمره وأيّام حياته تبعاً لواحدة من تلك الحالات الثلاث فلا بدّ أن يكون قد غبن نفسه.

---

* حديث السيّد المرجع في جمع من الإخوة النشطاء في المجال الثقافي والديني من مدينة شهريار ـ جنوب غرب طهران ـ تشرفوا بزيارته في بيته المكرّم بمدينة قم المقدسة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الثاني ١٤٢٧ للهجرة.

(١) الأمالي للصدوق: ص٧٦٦، المجلس٩٥، ح٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٢٢.

فمن استوى يوماه فهو كمن خسر ثروته. وهكذا من لم يرتقِ في طلب العلم، أو في التقرّب إلى الله تعالى بالعبادات وخدمة الناس والتعامل الحسن مع عائلته وأقاربه وأصدقائه، فهو كمن خسر عمره. فالكيّس ـ كما ورد في الحديثين أعلاه ـ من كان يومه خير من أمسه، والملعون ـ والعياذ بالله ـ هو من كان يومه أسوأ من أمسه.

لقد منّ الله تبارك وتعالى بنعم كثيرة على الإنسان كالسمع والبصر والحياة، والعقل الذي جعله الله تعالى معياراً للثواب والعقاب، والقدرة على الفعل والإنتاج.

إذاً ينبغي للمرء أن يستفيد من هذه النعَم بشكل صحيح ويستثمرها في أن يعزم ويبذل ما في وسعه لأجل أن يكون يومه خيراً من أمسه، وشهره الذي فيه خيراً من شهره الذي فات، حتى لا يتحسّر على ساعات وأيّام حياته، ولكي ينال التوفيق والسعادة في الدارين.

(٩)

التأسي بالصديقة الزهراء*

إنّ أحد عشر إماماً معصوماً سلام الله عليهم هم من ذريّة مولاتنا فاطمة الزهـراء سلام الله عليها وطاعتهم مفروضة وهم أسوة وحجج على الخلق أجمعين وسـيّدتنا الزهراء سلام الله عليها حجّة عليهم، كما ورد في الحـديث الـشريف عـن الإمـام الحسن العسكري سلام الله عليه: «**نحن حجج الله على خلقه وجدّتنا فاطمة حجّة علينا**»[1]. ومعنى هذا أنّه من الواجب على الإمام الحسن والإمام الحسين وباقي الأئمّة الهداة الأطهار سلام الله عليهم أن يتأسّوا بأمّهم البتول سلام الله عليها.

لقد شاءت إرادة الله سبحانه أن لا يخلق قبل مولاتنا الزهراء وبعدها امرأة بمستوى فضلها ومقامها سلام الله عليها.

حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها فقالت: إنّ لي والـدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صـلاتها شـيء، وقـد بعثتنـي إليـك أسـألك. فأجابتها فاطمة سلام الله عليها عن ذلك، ثم ثنّت، فأجابت، ثم ثلّثت [فأجابت] إلـى

---

* حديث السيد المرجع في جمع من الأخوات الناشطات في المجال الديني والتبليغي من محافظة إصفهان إلتقين سماحته في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة في يوم الجمعة ١٢ من شهر جمادى الأولى عام ١٤٢٧هـ، وأفاض سماحته عليهن بتوجيهاته وإرشاداته القيّمة.

(١) تفسير أطيب البيان: ج١٣ ص٢٢٥.

أن عشّرت فأجابت، ثم خجلت من الكثرة، فقالت: لا أشقّ عليك يا بنت رسول الله. قالت فاطمة سلام الله عليها: هاتي وسلي عمّا بدا لك، أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل، وكراؤه مائة ألف دينار، أيثقل عليه؟ فقالت: لا. فقالت: اكتريت أنا لكلّ مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً، فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي [رسول الله] صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجِدِّهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور**»[1].

لذا يجدر بالأمّهات ـ والنساء المؤمنات عامّة ـ أن يتأسّين بسيّدتنا الصديقة الكبرى سلام الله عليها في كلّ شيء، فيتعلّمن المسائل الشرعيّة وعلوم أهل البيت سلام الله عليهم، ويسعين في تعليم قريناتهن.

إنّ علوم أهل البيت سلام الله عليهم موجودة في الأحكام والعقائد والآداب والسنن، فاسعين إلى تعلّمها بعمق وعلّمن الأخريات اقتداءً بمولاتنا فاطمة سلام الله عليها، وبمقدار ما تبذلن من الجهد والسعي في هذا المجال تنلنَ يوم القيامة القرب من مولاتنا سيّدة نساء العالمين سلام الله عليها.

إنّ كثيرات من بنات اليوم لا يعرفن المسائل الشرعية ولا آداب الإسلام ولا ثقافته، فأوصيكنّ أن تنتهزن العطلة الصيفيّة وتسعين في جمع النساء من أقاربكن ومن محلّتكن، واعقدن لهنّ جلسات تعليم أصول الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه وسننه.

فعلى كل واحد منّا واجبان: الأوّل العمل بأحكام الإسلام، والثاني الأمر

---

(١) تفسير الإمام العسكري سلام الله عليه: ص٣٤٠ ح٢١٦.

بالمعروف والنهـي عـن المنكـر. فـنحن مكلّفـون بإعطـاء الخمـس وتحفيـز الآخرين على ذلك. فالذي يخمّس ولا يأمر بالمعروف، أو لا يحفّـز الآخـرين على دفع الخمس، فإنّه قد عمل بواحد من الواجبين. والـذي يخمّـس ويـأمر بالمعروف أو يدعو الآخرين لدفع الخمس، فإنّه قد عمل بـالواجبين، والـذي يترك كلا العملين فإنّه تارك لكلا الواجبين.

إنّ هذين الواجبين، واجبان مستقلاّن عن بعضهما. لـذا لا ينبغـي لنـا أن نترك تبليغ وتعليم أحكام الدين إن لم نوفّق للعمل بهمـا. بـل مـن الجـدير ـ ضمن سعينا في تبليغ وتعليم أحكام الإسلام للآخرين ـ أن نسعى في العمـل بأحكام الإسلام وأن نطبّق ما نقول.

(١٠)

السعي في قضاء حوائج الناس*

كان أحد الطلبة يسمّى(الشيخ محمد الكوفي) يسكن في مدينة النجف الأشرف، وبعد فترة سكن مدينة الكوفة واتخذ من إحدى غرف مسجد الكوفة سكناً له، وكان من المواظبين على زيارة مسجد السهلة وذلك في عصر مرجع الشيعة الكبير سماحة السيّد أبي الحسن الإصفهاني رحمة الله عليه أيّام كان يعطي كلّ واحد من الطلبة ديناراً شهرياً مع كميّة من الخبز تكفي لشهر واحد، حيث كان الطلاب يستلمونها من المخابز على حساب السيّد.

وكان الشيخ محمد الكوفي يذهب إلى النجف الأشرف مرّة كل أسبوع فيستلم مقداراً من الجبن واللبن ويجفّفهما ليستطيع الاستفادة منهما خلال أسبوع، كما كان يستلم معهما وجبة من الخبز، وكذلك كان خادم مسجد الكوفة يعطيه ما يفضل من طعامه.

وذات يوم دخل الشيخ محمد على السيّد أبي الحسن وأخذ يبكي بكاءً شديداً، وبعد أن سأله السيّد:ممّ بكاؤك؟ قال: كنت لسنين أبحث عن مولاي الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فرأيته ذات مرّة ولكنني ما عرفته وعندما تعرّفت عليه فقدته.

---

* حديث السيّد المرجع في الإخوة الفضلاء العاملين في مكتب سماحته بمدينة قم المقدّسة.

فسأله السيّد: وكيف حدث ذلك؟ قال: كنت ماشياً في الطريق الذي يربط بين مسجدي الكوفة والسهلة، فأحسست أنّ خلفي شخصاً، فقال لي: يا شيخ محمد، من أين تأكل؟ فقلت: من دينار وخبز السيّد أبي الحسن الإصفهاني الذي يعطيهما معونة للطلاب. فقال لي: قل للسيّد أبي الحسن: «**رخّص نفسك، واجلس في الدهليز واقض حوائج الناس، نحن ننصرك**». فتناول السيّد أبوالحسن على الفور ورقة وكتب فيها هذه الوصية.

وقد نقلوا عن السيّد رحمه الله قوله: عندما كنت أحسّ بالتعب والضغط جرّاء الأعمال اليومية والمسؤوليات كنت أتناول هذه الورقة واقرأ ما أوصى به مولاي الحجة عجّل الله تعالى فرجه فكان التعب يذهب عني، ومعنوياتي تتجدد.

لقد رحل السيّد أبوالحسن ولكن وصيّة مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف باقية وهي وصيّة للجميع.

إذاً علينا أن لا نعطي مجالاً للتعب، وأن نتنزّه عن عبارات من قبيل: هذا ليس من عملي، أو ليس بشأني، أو وقتي ثمين و... . فأئمّتنا الهداة الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا يقضون معظم أوقاتهم في قضاء حوائج الناس. ثم إنّ وقتنا ليس بأقدس وأعزّ من أوقاتهم سلام الله عليهم.

ولعلّ أحدنا يصرف بعض وقته لشخص بسيط فيقضي حوائجه بمقدار ما يتمكّن، فيتبين أنّ ذلك الشخص هو وليّ من أولياء الله تعالى، كما ورد في الحديث الشريف عن مولانا سيّد الشهداء الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «**إنّ الله عزّوجلّ أخفى أربعة في أربعة: ...وأخفى أولياءه في الناس فلا يستصغرنّ أحدكم أحداً؛ فإنّه يوشك أن يكون ولياً لله تعالى...**»[1].

---

(١) معدن الجواهر للكراجكي: ص٤٢، باب ذكر ما جاء في أربعة.

(١١)

الأجر على قدر المشقّة*

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾[1]

إنّ الله تبارك وتعالى شبّه أحوال الدنيا بالسيل الذي يجرف في طريقه كثيراً من الأشياء الخفيفة كالشوك ونشارة الخشب والتبن وما شابه ذلك. ولأنّ هذه الأشياء خفيفة فهي تُرى على سطح الماء طافية ولكن بعد مدّة تزول وتختفي وتبقى الأشياء النافعة والمفيدة.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن لا تخلو أمور الدنيا من المشاكل؛ لذلك ترى أنّ أفضل مَن خلق الله تعالى ومَن لأجلهم خلق الكون بأفلاكه ـ وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ قد تعرّضوا خلال تبليغهم رسالة ربّهم إلى أشدّ أنواع الأذى والظلم والاعتراض والمخالفة.

ولئن كان المؤمنون المبلّغون لا يواجهون اليوم ردود فعل سلبية أو

---

* حديث السيّد المرجع حفظه الله في أعضاء (قافلة الزهراء عليها السلام التبليغية) الذين قاموا بزيارة سماحته بعد إنهاء عملهم التبليغي في الأيام الفاطمية الأولى، وذلك في يوم الأربعاء ١٧ جمادى الاولى عام ١٤٢٧ هـ .

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

مشاكل خلال ممارستهم للتبليغ في مكان ما، فلعلّ مردّه التضحيات التي بذلها السلف الصالح، وما تحمّلوه من المتاعب والمشاقّ في هذا السبيل.

على سبيل المثال: إنّ مدينة إصفهان ـ وهي إحدى المدن المعروفة بتمسّكها بالتشيّع والتي ينطلق منها الكثير من المبلّغين إلى أرجاء العالم ـ كان أهلها في فترة من الزمن لا يكتفون بردّ الفعل السلبي تجاه المبلّغين وعلماء التشيّع بل كانوا لا يطيقون سماع كلمة (الشيعة). ولكن إثر جهود وتضحيات العلماء الأعلام كالعلاّمة المجلسي والمحقّق الكركي وأمثالهما رضوان الله تعالى عليهم باتت إصفهان اليوم إحدى المدن الكبرى المتمسّكة بالولاء والحبّ لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنّ التعامل السلبي مع المبلّغين الشيعة اليوم أقلّ من الماضي، وإذا راجعتم كتاب (شهداء الفضيلة) للعلاّمة الأميني رضوان الله تعالى عليه يتّضح لكم مدى الأذى والمشاقّ والتعذيب الذي تعرّض له السلف الصالح في نشر علوم أهل البيت سلام الله عليهم، بل إنّ بعضهم كان يُلقى حيّاً في النار.

قبل زهاء ألف سنة كانت الدراسة والتأليف والتحقيق عملاً شاقّاً جدّاً، حيث إنّ جمع بضعة أحاديث كان يتطلّب زماناً لا يقلّ عن سنة، وربّ شخص كان يصرف الكثير من الجهود ويتحمّل الكثير من مشاقّ السفر علّه يسمع من محدّث ما حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار**»[1] أو «**فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني**»[2]. حيث إنّ العثور على حديث واحد في ذلك الزمان، كان أصعب من

(١) الفصول المختارة للمفيد: ص١٣٥ وص٢٢٤.

(٢) إرشاد القلوب للديلمي: ج٢ ص٢٣١، في فضائل ومناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه و... .

تهيئة عدد من الكتب في زماننا الحاضر، بل إنّ كلّ من كان يحمل معه ورقة فيها حديث حول منقبة من مناقب مولاتنا الزهراء سلام الله عليها، كان يعرّض نفسه للخطر.

يذكر أنّ شاباً (في ذلك الزمان) كان يسكن في الكوفة وقد بذل عمره في خدمة علوم أهل البيت سلام الله عليهم وجمع الكثير من الأحاديث التي تذكر ولاية آل الرسول صلى الله عليه وآله في أوراق وعرضها على زملائه وقال لهم: أريد أن أخرج بهذه الأوراق من الكوفة لأنشرها في بقية المناطق. فقالوا له: نتخوّف عليك من ذلك!!

وبما أنّه كان مصمّماً على ذلك مهما كلّف الثمن، اقترح عليه زملاؤه أن يذهب إلى مدينة البصرة لأنّ فيها قليلاً من الشيعة وحذّروه من الذهاب إلى مدينة إصفهان. ولكنه اختار الذهاب إلى مدينة إصفهان ليبلّغ ما كتبه في أوراقه. فشدّ الرحال إلى إصفهان وتحمّل عناء السفر كالجوع ووجود الحيوانات الضارية والسرّاق والجلاوزة الذين كانوا مأمورين بقتل كلّ من يدعو إلى التشيّع، وشرع بممارسة عمله التبليغي ونشر ما كتبه في أوراقه حتى استشهد على أثر ذلك.

لا شكّ أنّ مقام هذا الشابّ وعلماء السلف الصالح الذين بجهودهم تحوّلت إصفهان إلى مدينة شيعية سيكون عظيماً جداً يوم القيامة، والمثيب لهم هو مولانا رسول الله والأئمّة الهداة من آله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إنّ تحمّل المشاقّ والمشاكل في العمل التبليغيّ يعدّ من البديهيات، فلا ينبغي لنا الخوف من الأذى والمشاكل في سبيل نشر ثقافة أهل البيت سلام الله عليهم، بل يجب الاقتداء بالسلف الصالح في نذر أنفسنا للصعوبات والأذى.

فهذا «عطيّة» أحد علماء ومفسّري الكوفة تحمّل التشريد عشرين سنة

خوفاً من بطش الحجّاج، وعاش مع عائلته في أقسى الظروف، وبعد هذه الفترة من الزمن قبض عليه الحجّاج الملعون في إحدى مناطق إيران فأمر بجلده أربعمئة سوط ونتفوا لحيته؛ كلّ ذلك بسبب روايته للأحاديث التي تذكر مناقب مولاتنا فاطمة سلام الله عليها.

إنّ صعوبات العمل التبليغي تعدّ من الأمور الثمينة، وهذه المتاعب والآلام لها ثمن عظيم عند الله تعالى، وعاقبة مرارتها هي الحلاوة. وقد دعانا القرآن الكريم وأئمّتنا الهداة إلى الاعتبار بحياة الماضين. وإذا راجعتم صفحات التاريخ لرأيتم أنّ كثيراً من المؤمنين ـ أمثال ذلك الشابّ الكوفي ـ قد تعرّضوا إلى أنواع التعذيب وقضوا نحبهم تحت سياط الجلاّد. أنتم أيضاً سيذهب التعب عنكم، فحذار أن تكونوا من الذين يشعرون بالتقصير والخجل تجاه مولاتنا الصديقة الكبرى سلام الله عليها.

فلا تستصغروا أيّ عمل تبليغيّ، ولا تستهينوا بأيّ مفردة في هذا الصدد، فلعلّ تفوّهكم بكلمة بسيطة بالظاهر تؤدّي إلى استبصار كثيرين بنور أهل البيت سلام الله عليهم ويتشيّع كثير ممن لا تعرفونهم، حينها يمكن القول: لقد فعلتم جميلاً وحسناً أن صرفتم أيّاماً من عمركم في تبليغ ونشر علوم أهل البيت سلام الله عليهم، فلتطمئنّ قلوبكم أنّ كلّ ما تحمّلتموه من الآلام والصعوبات وكلّ مساعيكم في هذا الطريق هي محفوظة عند الله جلّ شأنه وسيرعاكم مولانا بقية الله الأعظم عجّل الله تعالى فرجه الشريف برعايته ودعائه.

(١٢)

هكذا تطول الأعمار*

جاء في الروايات الشريفة أنّه في عصر إمامة مولانا الإمام موسى الكاظم صلوات الله وسلامه عليه خرج أخوان من مدينتهما وهما يريدان مكّة المكرّمة، فاصطحبا الطريق معاً إلى أن وصلا قرية، واختلفا فيها حول شيء ما، فتنازعا وتسابّا وتقاطعا، وأخذ كلّ منهما طريقاً غير طريق الآخر.

فجاء أحدهما ـ واسمه يعقوب ـ ودخل مكّة المكرّمة وحده، وكان مشغولاً بالطواف، فبعث إليه الإمام الكاظم سلام الله عليه رسولاً وقال له: أتريد موسى بن جعفر؟ قال: نعم، قال: اتبعني.

«فلما رآه الإمام سلام الله عليه قال له: **يا يعقوب! قدمت أمس ووقع بينك وبين أخيك شرّ في موضع كذا وكذا، حتى شتم بعضكم بعضاً، وليس هذا ديني ولا دين آبائي، ولا نأمر بهذا أحداً من الناس، فاتّق الله وحده، لا شريك له، فإنّكما ستفترقان بموت. أما إنّ أخاك سيموت في سفره قبل أن يصل إلى أهله، وستندم أنت على ما كان منك، وذلك أنكما تقاطعتما فبتر الله**

---

* حديث السيّد المرجع دام ظله في أعضاء (حملة النور الرضوي) السعودية الذين زاروا سماحته في السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى عام ١٤٢٧ هـ .

أعماركما. **فقال له الرجل: فأنا جعلت فداك متى أجلي؟ فقال الإمام: أما إنّ أجلك قد حضر حتى وصلتَ عمّتك بما وصلتها به في منزل كذا وكذا، فزيد في أجلك عشرون.**

قال: فأخبرني الرجل ولقيته حاجّاً أنّ أخاه لم يصل إلى أهله حتى دفنه في الطريق»[١].

هذه القصّة ذاتها تتكرّر في كلّ زمان ولكلّ الناس، فلا خصوصيّة لهذين الأخوين، وإنّ عاقبة عمل الشرّ خصوصاً عقوق الوالدين وقطع الرحم هي تقريب أجل المرء، وعمل الخير وخصوصاً برّ الوالدين وصلة الرحم ينسئ الأجل، كما ورد ذلك في الأحاديث الشريفة[٢].

لذا ينبغي لكلّ فرد أن يعزم على عمل الخير مهما كان وبقدر ما يستطيع ويتمكّن، ولا يترك ذلك، سواء كان للوالدين أو الأقارب أو الجيران أو شركاء العمل وغيرهم، ولا يتوانى في تقديم الخدمة لأيّ أحد من الناس.

يقول الإمام أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: «**وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف وتقي مصارع الهوان**»[٣].

كما أنّ من المهم ترك جميع صور الشرّ من ظلم وإيذاء وما شابه ذلك، لأنّ عمل الشرّ يحيق بالإنسان ـ والعياذ بالله ـ فعمل الشرّ يبتر عمر الإنسان، وعمل الخير يطيله.

وما يصيب الإنسان أحياناً من بلاء أو مشكلة قد يكون تقديراً من الله

---

(١) راجع مدينة المعاجز للبحراني: ج٦ ص٢٤٢ ح٥٢، التاسع والعشرون ـ إخباره بالغائب والآجال.
(٢) راجع تحف العقول للحرّاني: ص٢٩٩، في قصار كلمات الإمام أبي جعفر الباقر سلام الله عليه.
(٣) نهج البلاغة: ج١ ص٢١٥، من خطبة لأمير المؤمنين سلام الله عليه، رقم ١١٠.

تعالى لرفع الدرجة في الآخرة، وقد يكون لتقصير أو لمعصية أو لظلم أو لقطع رحم. فليحاول الجميع ـ خصوصاً الأحداث والشباب ـ أن يعزموا على ترك الشرّ وإن كان صغيراً، فالعزيمة على ذلك تقلّل من ممارسة عمل الشرّ. واعزموا على عمل الخير وإن كان صغيراً، فالعزم على ذلك يزيد من توفيق عمل الخير. وكلّ ما يصنع بكم ورأيتموه خيراً فاصنعوا مثله لغيركم، وكل ما رأيتموه شراً لكم فاجتنبوا فعله للآخرين.

(١٣)

منهل السعادة*

ينشد السعادة كلّ إنسان ويبحث عنها، ويسعى لها كـل جـدّه واجتهـاده، وبعض الناس يعيشون السعادة، وكثير منهم لا يعيشونها. فأين تكمن السعادة؟

إنّ أصل السعادة ومنبعها هو الرضا بما قـسم الله جـلّ وتعـالى. وليـست بالمال أو العلم أو الشباب أو صحّة البدن أو في الوظيفة أو في الشخـصية أو في العشيرة أو الأقارب الكثيـرين، أو فـي الـسمعة الطيبـة؛ بـدليل أنّ هنالـك العديد ممّن توفّرت عندهم هذه الأمور لكن مع ذلك تراهم متعبين نفـسياً، أو يقدمون على الانتحار ـ والعياذ بالله ـ .

لذا، فالملاك في السعادة أن يجد الإنسان نفسه قانعاً بمقدار ما يوجد في أعماق نفسه من رضا بما قسم الله سبحانه له، سواء كان شاباً أو كبيـر الـسن، فتاة أو عجوزاً، متزوجاً أو أعزب، رجلاً أو امـرأة، غنيـاً أو فقيـراً، جامعيـاً أو حوزوياً، وفي أيّ مجال كان. فإذا رضي مئة بالمئة، فهـذا سـعيد مئـة بالمئـة، وهكذا.

إنّ الآيات المباركة فـي القـرآن والأحاديـث الـشريفة عـن المعـصومين

---

* حديث سماحته في أعضاء حملة السراج من مدينة القطيف السعودية في ١٧ جمادى الآخرة عام ١٤٢٧ هـ .

الأربعة عشر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد أكّدت هذا الأمر كثيراً. ففي محكم التنزيل قال الله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[1]، وفي دعاء الإمام زين العابدين سلام الله عليه الذي نقرأه في أسحار كلّ يوم من شهر رمضان المبارك والمعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي - الذي لو قرأه المرء مرّة واحدة بتأمّل وتفهّم دقيقين، فإنّه سيرجى عند الانتهاء منه أن يكون مستجاب الدعوة من الله إن شاء الله تعالى - نقرأ في آخر سطر منه العبارة التالية: «**ورضّني من العيش بما قسمت لي**».

إنّ امرأة فرعون كانت تعيش مع أسوأ الرجال، حيث كان طاغوتاً وجبّاراً وظالماً، فرضيت بما قسم الله لها، حين قالت كما أخبر عنها قوله تعالى: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾[2] فكانت امرأة سعيدة، وصارت نموذجاً للاقتداء والتأسّي. فالله تعالى في كتابه العزيز يدعو النساء والرجال إلى التعلّم منها، وهذا هو أساس السعادة.

إنّ الرضا بما قسم الله ليس معناه أن لا يسعى الإنسان في رفع مشاكله أو سدّ نواقص حياته أو دفع معاناته، بل عليه مع ذلك أن يكون قانعاً بما قسمه الله عزّ وجلّ له، حتى يهنأ في معيشته وحياته.

إنّ الذي يرضى بما قسم الله له لا يتعرّض للأمراض، سواء البدنية منها أو النفسية ولا يقتل نفسه أبداً، وهذا أمر بالغ الأهمية وله آثار إيجابية كبيرة. فينبغي لكلّ مؤمن أن يعزم عليه ويعمل به دوماً، حتى يهنأ ويسعد في عيشه.

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣.

(٢) سورة التحريم، الآية ١١.

(١٤)

سرّ النجاح*

يخاطب الله تعالى نبيّه في القرآن الكريم بقوله عزّ من قائل:

﴿فَبمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

وفي آيات أخرى يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتعلّموا من النبيّ ويقتدوا به في حياتهم ويتّخذوه أسوة لهم؛ قال سبحانه: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**[2].

لو أردنا أن نبحث عن الإنسان الناجح والموفّق في حياته، فلا ريب أننا سنجده في ذلك الذي اقتدى بالنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته سلام الله عليهم، ولاغرو أن يكون أحسن الناجحين والموفّقين في الحياة؛ وذلك لأنّ الرسول الأعظم

---

* جانب من حديث السيد المرجع حفظه الله في المواكب والهيئات الوافدة إلى مدينة قم المقدّسة بمناسبة ذكرى استشهاد النبي صلّى الله عليه وآله وسبطه الأكبر الامام الحسن عليه السلام في الثامن والعشرين من صفر عام ١٤٢٦ هـ ، حيث توافدوا بعد الانتهاء من مراسيم العزاء إلى بيت سماحته واستمعوا إلى توجيهاته ووصاياه.

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

صلى الله عليه وآله كان المثل الأعلى للإنسان في قوله وصمته، وسرّه وجهره، وفي فعله وتركه، وفي كلّ أحواله، بل فاق وسما على كلّ الشخصيات في العالم منذ بدء الخلق وحتى انتهائه، بشهادة المؤمنين به وغيرهم.

لقد ألّف كاتب مسيحيّ كتاباً دوّن فيه أسماء أعظم مئة شخصية في تاريخ العالم أو (المئة الأوائل) كما سمّاهم، وذكر في المقدّمة أنّه جعل الترتيب حسب الأولوية من حيث نجاح الشخصية في حياتها وتحقيقها للأهداف التي كانت تصبو إليها، وليس حسب التسلسل الزمني، فجعل ـ رغم أنّه رجل مسيحيّ ـ اسم نبيّنا أوّل الأسماء إذ عدّه صلى الله عليه وآله الشخصية الأنجح.

فما هو السرّ وراء نجاح النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته، رغم كلّ الحروب والضغوط التي تعرّض لها من قومه وغيرهم منذ أن أعلن دعوته حتى استشهاده صلوات الله عليه وآله؟

من الأسباب الرئيسية التي تكمن وراء هذا النجاح الباهر ما ذكره القرآن الكريم في مواطن عديدة؛ منها الآية التي صدّرنا بها الكلام أعني قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ أي لينه صلى الله عليه وآله.

لقد كان رسول الله ليّناً، ولم يكن فظّاً مع أيّ أحد، ليس فقط كنبيّ في تعامله خلال دعوته، بل كزوج مع زوجته وكأب مع أولاده، وهكذا كقائد مع جنده. فرغم أنّه كان يمثّل القائد الأعلى للقوّات المسلحة وكانت إشارة واحدة منه تكفي لإيقاف القتال أو استمراره، لكنّه لم يستعمل الشدّة في الحديث مع أحد من جنده وأصحابه، بل حتى مع أعدائه، وإنما كان عذب اللسان رحب الجنان دائماً.

أمّا في مجال تبليغ رسالته، فرغم كلّ الضغوط والصعوبات التي تعرّض

لها من قومه، ومعارضتهم الشديدة لدعوته، حتى شنّوا عليه الحروب في بدر وأُحُد وغيرهما، وهو من عُرف بينهم قبل ذلك بالصادق الأمين، رغم كلّ ذلك لم يُعهد أنّه صلى الله عليه وآله تعامل بفظاظة مع أحد منهم طيلة حياته المقدّسة، مع أنّه لم يكن ـ حاشاه ـ إنساناً ضعيفاً من حيث القوّة البدنية أو النفسية، فكان يتألّم ويغضب كسائر البشر، بل كان يملك من القوّة البدنية ما يعادل قوّة أربعين رجلاً ـ كما ذكرت الروايات[1] ـ ولكنه كان يحظى بأخلاق عالية جداً، ولذلك كان يعامل المسلمين، بل حتى أعداءه بالمحبّة والأخلاق الحسنة، فكان بأخلاقه العظيمة يكسب أعداءه ويحوّلهم إلى أصدقاء، ويزيد من محبّة أصدقائه له.

لقد عاش النبيّ في قومه أربعين سنة لم يُعرف عنه أنّه آذى أحداً، بل كان الوحيد الذي لُقّب من بين العرب بالصادق الأمين، ولكن ما إن أعلن دعوته حتى بدأت مضايقاتهم له ومقاطعاتهم وحروبهم التي استمرّوا عليها مدّة عشرين عاماً، تحمّل خلالها هو وأصحابه الجوع والشدائد وحوصروا في شِعب أبي طالب، وهاجروا إلى يثرب، وكم من محاولات قاموا بها لقتله صلى الله عليه وآله ولكن الله تعالى حفظه منها... ورغم كل ذلك استطاع النبيّ أن يبني دولته وينتصر على مشركي مكّة في جميع الحروب التي شنّوها عليه بقوّة الأخلاق قبل قوّة السيف؛ حتى جاء في الروايات أنّه:

«لما دخل النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة كانت إحدى الرايات بيد سعد

---

(١) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**أُنزلت عليّ هريسة، فأكلت منها، فزاد الله في قوتي قوّة أربعين رجلاً في البطش**». انظر مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٢٥٥ باب ٢٥٥ رقم١، استحباب أكل الهريسة.

بن عُبادة وهو ينادي: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة، أذلّ الله قريشاً. فسمع أبو سفيان، ونادى: يا رسول الله أمرت بقتل قومك! إنّ سعداً قال كذا، وإني أُنشدك الله وقومك؛ فأنت أبرّ الناس وأرحم الناس وأوصل الناس. فوقف النبي صلى الله عليه وآله وقال: بل اليوم يوم المرحمة، أعزّ الله قريشاً. وأرسل إلى سعد وعزله عن اللواء، وقال لعلي عليه السلام: خذ منه الراية وناد فيهم. وأخذ عليّ سلام الله عليه اللواء وجعل ينادي: اليوم يوم المرحمة»[1].

إنّ مطالعة سيرة الرسول صلى الله عليه وآله تكشف لنا أنّه كان بإمكانه أن يقتل أعداء الرسالة ـ ويحقّ له ذلك ـ لكنّه صلى الله عليه وآله مدّ لهم يده الرحيمة وأخرجهم بأخلاقه العظيمة مما هم فيه من هاوية الوثنيّة والشرك؛ لأنّه نبيّ الرحمة واللين، كما عبّر القرآن الكريم.

وبهذه المناسبة أوصي المؤمنين بثلاث وصايا، وهي:

١. إقامة الأفراح خلال أيّام السنة في ذكرى مواليد وأفراح أهل البيت سلام الله عليهم. فضلاً عن إحياء مراسيم الحزن خلال شهري محرم وصفر تطبيقاً لقول الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «إنّ الله اطلع إلى الأرض فاختار لنا شيعة ينصروننا ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويبذلون أنفسهم وأموالهم فينا، أولئك منّا وإلينا»[2].

٢. تقديم الخدمات الاجتماعية، ومن أبرز مصاديقها المساعدة في تزويج الشباب لأنّ حالة الشباب في المجتمعات الإسلامية اليوم لا يرضي الإمام

---

(١) شجرة طوبى للحائري: ج٢ ص٣٠٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١١٧ ح ٢٠٥٠.

الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف بل يؤلمه جداً، وأداء هذه المسؤولية التي تمثّل تطبيقاً لوصية النبي صلى الله عليه وآله لا تقع على عاتق طبقة أو فئة من المجتمع بل هي مسؤولية الجميع كلّ من موقعه وحسب قدرته.

٣. تحسين الوضع الاقتصادي والمعاشي للمؤمنين من خلال المعونة على المستويات كافّة، مثل افتتاح صناديق قروض بعيدة الأجل لمساعدة المحتاجين في حلّ مشاكلهم الاقتصادية والمعيشية.

إنّ مسؤولية كل فرد منكم اليوم هي المشاركة في إنشاء مؤسسات ثقافية تقوم بنشر ثقافة أهل البيت سلام الله عليهم، سواء على الصعيد المالي أو الثقافي أو الدعم المعنوي والتشجيع واستثمار كلّ علاقاته وإمكاناته وصبّها في هذا المجال.

(١٥)

العمل من أجل إيجاد مجتمع مؤمن*

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[1]، ولا ريب أنّ هذه المسؤولية تقع على عاتق الجميع رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً.

تارة يأمرنا الله تعالى بالفروع أو المقدّمات فيقول: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[2] أو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[3] أو ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[4]... وتارة يأمرنا بالنتيجة مباشرة فيقول عزّ من قائل: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾.

وهذا معناه وجوب أداء كلّ ما من شأنه أن يساهم في إقامة الدين، كالقيام بالفروع والواجبات الشرعية المتقدمة، وكذلك الدروس الحوزوية وبناء المساجد والحسينيات والمدارس، وطبع الكتب ونشرها، والخطابة والتأليف، والتبليغ والإعلام واكتساب المعلومات الصحيحة والعلوم الجديدة، وبكلمة: كلّ عمل تكون نتيجته إقامة الدين.

---

* حديث السيد المرجع حفظه الله في جمع من السيدات في حوزة فاطمة الزهراء سلام الله عليها في مدينة قم المقدّسة.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

والدين يشمل الواجبات والأحكام والآداب والأخلاق. ويجب على الجميع العمل من أجل إيجاد مجتمع متديّن؛ كلٌّ حسب ما حباه الله سبحانه من طاقات ومواهب وإمكانات. ومن يقصّر فسيكون مسؤولاً أمام الله تعالى.

صحيح أنّ الشخص بمفرده لا يمكنه إيجاد مقدمات بناء المجتمع المؤمن في كل مكان، كما لا يمكنه أن يسافر إلى كل البلدان ليُقيم فيها الدين، فيكون معذوراً عمّا خرج عن قدرته ولكن هذا لا يعفيه من العمل ضمن ما تيسّر له.

قسّ نصراني يسمّى (سنسن) عاش في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يعتنق الإسلام إلى أن مات، وكان عنده ولد واحد يسمّى أعين، اعتنق الإسلام وحفظ القرآن وأضحى أديباً بارعاً، وعقّب عشرة أولاد وبنتاً واحدة اسمها أمّ الأسود، الوحيدة من عائلتها التي أضمحت من المتمسكين بولاية أهل البيت سلام الله عليهم بادئ الأمر.

جاء في كتب الرجال الشيعية أنّ هذه السيّدة دعت كلّ إخوتها إلى مذهب الحقّ، وبالفعل تشيّعوا جميعهم، وحسن تشيّعهم إلى درجة أصبح بعضهم من كبار ثقات الشيعة من المحدّثين والعلماء.[1]

ترى ما هو الأمر الذي صار سبباً لأن تصل هذه السيدة إلى هذه الدرجة الرفيعة؟

لا شكّ أنّه الإخلاص والاجتهاد والأخلاق الحسنة.

أمّا الإخلاص: فمعناه أن لا يتعلّق قلب الإنسان بالدنيا بل يتعلّق بالله

(١) راجع تاريخ آل زرارة لأبي غالب الرازي، وفيه تفصيل أحوال وسير بني أعين خاصّة. وقد أشار سماحة السيد دام ظله فيما سبق إلى ذلك.

تعالى ونبيه وأهل بيته صلوات الله عليهم، وعند ذاك ستتحوّل عنده مرارة الدنيا إلى حلاوة الآخرة.

وأما الاجتهاد: فيعني بذل الجُهد وترك الكسل، لأنّ الدنيا دار عمل وعناء ومن لا يعمل ويجدّ فيها لن يحصد في الآخرة سوى الحسرة والندامة.

وأما الأخلاق: أن يقتدي الإنسان بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته سلام الله عليهم، فيتحلّى بالصبر والحلم ودماثة الخلق حتى مع الذين يعاملونه بسوء الخلق.

بهذه الجمل الثلاث تتحوّل الجهود من القوّة إلى الفعل. وكلّ من يلتزم بهذه الأمور الثلاثة أكثر يبلغ درجة من التوفيق أعلى. ومن أراد الحصول على هذه الأمور فلابدّ له من أمر واحد وهو العزم والتصميم بعد التوكل على الله تعالى.

(١٦)

شروط الرقيّ*

قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى۝وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[1].

يقال: إنّ المرحوم صاحب الجواهر كان يتلقّى الدرس عنده مئات الطلاب وكان رحمه الله يشجّعهم على أيّ استفسار أو إشكال أو نقد أو اقتراح يلوح في أذهانهم، وفي الدرس نفسه، لكي تترسّخ المطالب العلمية في أذهان الطلاب عبر النقاش والسجال العلمي.

وفي أحد أيّام الصيف الحارّة في النجف الأشرف، وبعد أن ألقى الشيخ (صاحب الجواهر) الدرس وانتهى منه لم يتلقّ أيّ نقد أو إشكال أو استفهام من أيّ من الطلبة؛ فتوجّه إليهم وقال: ما الذي حدث اليوم؛ إنني لم أسمع اليوم أيّ نقد ولم يقل أيّ طالب شيئاً؟! هل كان تدريسي وحياً منزلاً؟!

قال الطلبة: الحقيقة أننا لم نستطع أن نطالع أمس بسبب كثرة البعوض وشدّة الحرارة ـ ولم يكن يومذاك مكيّفات هواء أو مبرّدات ولا حتّى مراوح كهربائية ـ .

---

* حديث السيّد المرجع حفظه الله في جمع من المبلّغين وأساتذة وطلاب العلوم الدينية الذين وفدوا إلى داره من مدينة إصفهان.

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

فالتفت صاحب الجواهر وقال: أجل، كان البعوض ليلة أمس كثيراً وقد عانيت مثلكم، ومهما عملت للتخلّص منه ومن مضايقته لم أفلح، ولكن بما أني كنت ملزماً بالمطالعة للتحضير لدرس هذا اليوم، لم يهدأ لي بال، وتذكرت أنّ عندنا غرفة في السطح مهجورة وأشبه بمخزن، فقمت بخلع ملابسي وائتزرت بمئزر وأخذت كتبي ومصباحاً وذهبت إلى تلك الغرفة وجلست للمطالعة، ولم أبال لأنواع الحشرات التي كانت موجودة هناك وكانت تمشي على بدني.

نعم، بمثل هذا بلغ صاحب الجواهر ما بلغ من المنزلة العلمية.

لذا يجب على طالب العلم ـ إن أراد أن يوفّق ـ أن يسعى ويجدّ ويجتهد ويدرس جيّداً إلى جانب تحلّيه بالإخلاص والتوجّه إلى الله تعالى وأهل البيت عليهم السلام.

لقد تتلمذ عند المرحوم كاشف الغطاء الآلاف ولكن كم منهم بقي اسمه أو مؤلفاته؛ كما بقي اسم وذكر صاحب الجواهر.

إنّ طريق طلب علوم أهل البيت سلام الله عليهم جيد جدّاً ولكنّه بحاجة إلى همّة وعزيمة، مضافاً إلى التخلّي عن كثير من الأمور الأخرى التي تهواها النفوس عادة، حتى يتمكّن الشخص من بلوغ المراحل العالية فيه.

(١٧)

من سمات الأولياء *

في المأثور عَنْ عُبَادَةَ الْكُلَيْبِيِّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّد، عَنْ أَبِيه، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ فَاطِمَةَ الصُّغْرَى عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَخِيه الْحَسَنِ سلام الله عليهم قَالَ: رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام قَامَتْ فِي مِحْرَابِهَا لَيْلَةَ جُمُعَتِهَا، فَلَمْ تَزَلْ رَاكِعَةً سَاجِدَةً حَتَّى اتَّضَحَ عَمُودُ الصُّبْحِ، وَسَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات، وَتُسَمِّيهِمْ وَتُكْثِرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ، وَلا تَدْعُو لِنَفْسِهَا بِشَيْء، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهْ، لِمَ لا تَدْعُونَ لِنَفْسِكِ كَمَا تَدْعُونَ لِغَيْرِكِ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ»[1].

توجد أدعية كثيرة عن أهل البيت سلام الله عليهم صيغتها أن يبدأ الإنسان بالدعاء لنفسه أوّلاً ثم للآخرين، مثل: اللهم اغفر لي وللمؤمنين. واللهم اغفر لي ولوالدي، وهكذا.[2]

---

* حديث السيّد المرجع في جمع من المؤمنين والمؤمنات ضمن قافلة (أم البنين) من مدينة سيهات السعودية وفدوا على سماحته في بيته المكرّم بمدينة قم المقدّسة.

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص١١٢ باب٤٢، استحباب اختيار الإنسان الدعاء للمؤمن على الدعاء لنفسه، ح٨٨٨٤.

(٢) راجع مستدرك سفينة البحار للنمازي: ج٣ ص٢٨٣ـ٣٣٢، في الدعاء.

لكنّ هذا الحديث المأثور عن مولاتنا فاطمة الزهراء سلام الله عليها رغم قصره ينبئ عن سرّ خاصّ وأمر مهمّ جداً يرشد إلى الإيثار في الدعاء.

يمكن للكثير من الناس أن يسترخصوا من قيمة الدعاء كونه لا يحتاج إلى مال ولا جهود ولا وقت طويل. لكنّ سيّدتنا الزهراء سلام الله عليها تعرف قيمة الدعاء وتقدّر مدى تأثيره، كيف لا، وهو يعدّ مصداقاً لواحدة من الوسائل في التكلّم مع خالق كلّ شيء، والقادر على كلّ شيء وهو الله جلّ شأنه، معطي كلّ نعمة وصارف كلّ نقمة. لذلك آثرت سلام الله عليها الدعاء لغيرها على الدعاء لنفسها.

لاشك أنّ كل واحد منّا بحاجة للدعاء كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾[١] وفي الحديث النبويّ الشريف : «**الدعاء مخّ العبادة**»[٢] والمخّ هنا معناه الأساس، لكن أن يؤثر المرء غيره حتّى في الدعاء، فهذا من الفضائل الرفيعة والراقية جداً والتي لا نجدها إلاّ عند أهل البيت. فهم سلام الله عليهم علاوة على إيثارهم برزقهم وبالحاجات الدنيوية قد آثروا غيرهم على أنفسهم في الدعاء أيضاً.

إذاً ينبغي أن نتأسّى بأهل البيت سلام الله عليهم ونتعلّم منهم كيفية إيثار غيرنا على أنفسنا حتى في الدعاء. فعلى المؤمنين أنّ يؤثروا أرحامهم على أنفسهم، وعلى الأولاد أن يؤثروا الوالدين على أنفسهم، وعلى الوالدين أن يؤثروا أولادهم على أنفسهم، وهكذا الجيران والأصدقاء وزملاء العمل ... علماً أنّ هذا الخصلة من الإيثار تعود على الإنسان بأمرين:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٢) عدّة الداعي لإبن فهد الحلي: ص٢٩، الباب الأوّل في الحثّ على الدعاء.

الأوّل: إذا دعوت لغيرك فهناك ملائكة ستدعوا لك بـضعف مـا دعـوت لغيرك ورد في الحديث الشريف عـن أبـي عبـد الله سلام الله عليه، قـال: «**دعـاء المسلم لأخيـه بظهـر الغيـب يسوق إلى الـداعي الـرزق، ويـصرف عنـه الـبلاء، وتقول له الملائكة: لك مثلاه**»[1] فمن يريد الرزق والذرّية الصالحة والتوفيق من الله تعالى فليدعُ بها لغيره حتى تعود عليه بأضعاف كثيرة.

الثاني: كما أنّ الإيثار له ثمرات وآثار إيجابية في الدنيا، كذلك لـه درجـة رفيعة وأجر عظيم في الآخرة.

---

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٥٣، ثواب دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب.

(١٨)

مسؤولية العلماء *

إنّ للعلم والعلماء مكانة شامخة في الإسلام كما نجد ذلك في قول الله سبحانه: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[١]. وهذه المكانة السامية تتبعها مسؤولية بحجم وبنسبة ما لها من الشموخ والسموّ.

روي عن الحارث بن المغيرة ـ وهو من أجلاّء وثقات أصحاب الإمام الصادق سلام الله عليه ـ أنّه قال:

لقيني أبو عبد الله الصادق سلام الله عليه في طريق المدينة فقال: «**من ذا، حارث؟**» قلت: نعم، قال: «**لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم**»! فأتيته واستأذنت عليه فدخلت فقلت: لقيني من ذلك أمر عظيم، فقال: «**ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل ماتكرهون، ومايدخل علينا به الأذى أن تأتوه فتؤنّبوه وتعذلوه، تقولوا له قولاً بليغاً؟**» فقلت له: جعلت فداك إذاً لايطيعونا، ولايقبلون منّا، فقال: «**اهجروهم واجتنبوا مجالستهم**»[٢].

إنّ هداية الناس واجب شرعيّ مميّز، وواجبنا نحن أهل العلم لاينحصر

---

* حديث السيّد المرجع في جمع من أساتذة وطلاّب (المعهد الإسلامي) من مدينة بغداد.

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين، للديلمي، ص٢٣٦.

بأنفسنا فقط بل نحن مسؤولون عن غيرنا أيضاً. وهذا يحتّم علينا حسب قدرتنا وإمكاننا أن نسعى في تهيئة الأجواء الصالحة لهداية الآخرين. فالأجواء الصالحة تربّي جيلاً صالحاً، والعكس بالعكس أيضاً.

كان في عصر الإمام الجواد والإمام الهادي سلام الله عليهما أخوان أحدهما تربّى في أحضان أهل البيت، فصار من الثقات ـ ويعتمد على رواياته كلّ فقهاء الشيعة بدءاً من الشيخ المفيد رضوان الله عليه وإلى علماء عصرنا الراهن ـ ذلكم هو محمد بن فرج الرخجي، بينما الآخر عمر بن فرج الرخجي الذي تربّى في أحضان حكّام بني العباس مع المأمون والمعتصم والمتوكّل فكان متناقضاً مع أخيه تماماً حيث لقي منه أهل البيت سلام الله عليهم وشيعتهم مظالم كثيرة، حتّى أودى به سوء فعله أن سلّط الله تعالى عليه من لا يرحمه، ذلك بعد ما عمل ما أثار به غضب المتوكّل فسجنه وصفّده بالحديد ثم قضى عليه . ولبيان مدى خبث هذا الشخص أذكر لكم الرواية التالية:

«عَنْ مُحَمَّد بْنِ سِنَانٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ (الهادي) سلام الله عليه فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! حَدَثَ بِآلِ فَرَجٍ حَدَثٌ؟** فَقُلْتُ: مَاتَ عُمَرُ. فَقَالَ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ.** حَتَّى أَحْصَيْتُ لَهُ أَرْبَعاً وَعِشْرِينَ مَرَّةً. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَسُرُّكَ لَجِئْتُ حَافِياً أَعْدُو إِلَيْكَ. قَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! أَوَ لا تَدْرِي مَا قَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي (الجواد)؟** قَالَ: قُلْتُ: لا. قَالَ: **خَاطَبَهُ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: أَظُنُّكَ سَكْرَانَ. فَقَالَ أَبِي: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَمْسَيْتُ لَكَ صَائِماً فَأَذِقْهُ طَعْمَ الْحَرْبِ وَذُلَّ الأَسْرِ، فَوَ اللَّهِ إِنْ ذَهَبَتِ الأَيَّامُ حَتَّى حُرِبَ مَالُهُ وَمَا كَانَ لَهُ ثُمَّ أُخِذَ أَسِيراً وَهُوَ ذَا قَدْ مَاتَ ـ لا رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وَقَدْ أَدَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ**

وَمَا زَالَ يُدِيلُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ»[١].

إذاً علينا أن نعمل ما نهيّئ به الأجواء الصالحة في مختلف الأحوال وبشتّى الأساليب الشرعية، لكيلا نلام بعد ذلك؛ قال تعالى: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾[٢].

إنّ المطلوب هو الالتزام العمليّ بما نعلمه من الدين ليقتدي بنا الآخرون، والالتزام بالأخلاق العملية واللفظية في ممارسة الهداية مع الناس، كما يفترض بنا ممارسة التبليغ والموعظة والإرشاد والتأليف والتربية لتتوافر أسباب الهداية المرجوّة، لنكون موفّقين وناجحين في إنجاز هذه المهمّة الجليلة إن شاء الله تعالى.

---

(١) أصول الكافي: ج١ ص٤٩٦، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي الثاني سلام الله عليهما، ح٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(١٩)

شهر رمضان فرصة للتزكية والهداية*

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

جاءت كلمة (لعلّ) في القرآن الكريم في موارد متعددة بمعنى الإيجاب، أي أنّ ما بعدها متحقّق. ومن تلك الموارد هذه الآية، فمعناها: إذا صمتم فستصيرون متّقين حتماً.

ولا يخفى أنّ للصوم مراتب، والصائم الذي يبلغ التقوى هو الذي يكون صائماً حقيقة، لا الذي يصفه الإمام عليّ سلام الله عليه بقوله: «**كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الظمأ والجوع**»[٢]، بل الذي يصوم وتصوم جوارحه أيضاً. فصوم كهذا لا شك سيكون سبباً لأن يصير إنساناً متّقياً، كما في الحديث عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «**اذا صمتَ فليصُمْ سمعك وبصرك وشعرك وجلدك**»[٣].

---

* حديث السيد المرجع حفظه الله في جمع من أساتذة وطلاب الحوزة العلمية من مدينتي إصفهان وقم المقدّسة قبيل شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٧ هـ.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١ ص٧٢ باب ١٢، بطلان العبادة المقصود بها الرياء، ح١٦١.

(٣) فروع الكافي: ج٤ ص٨٧، باب أدب الصائم، ح١.

وكذلك للتقوى مراتب، ومفتاح ذلك كلّه بأيدينا، فإنّ الله تعالى قد خلق فينا القابلية لأن نستفيد من الصوم أكثر، وذلك بأن يكون صومنا في اليوم الثاني من الشهر أفضل من صومنا في اليوم الأوّل، وهكذا.

كان النبيّ صلى الله عليه وآله يستقبل شهر رمضان من كلّ عام بخطبة يوجّه فيها المؤمنين إلى أهميّة هذا الشهر وضرورة الاستفادة منه؛ ولذلك فخُطَب النبي صلى الله عليه وآله وكذلك خُطَب الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه في استقبال شهر رمضان كثيرة، ومنها الخطبة المشهورة التي رواها الإمام أمير المؤمنين عن النبيّ صلى الله عليه وآله، والتي يسأل فيها الإمام عن أفضل الأعمال في هذا الشهر، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه «**الورع عن محارم الله تعالى**». فحريّ بنا أن نقرأها ونتدبّر معانيها ونعمل بها ما وسعنا، والله سبحانه وتعالى يعيننا على ذلك.

إنّ الله تعالى يحبّ أن نتقرّب اليه أكثر فأكثر؛ لأنّه يحبّنا أكثر من حبّ الأمّ لابنها كما في بعض الروايات[1]، بل يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[2]. والظاهر أنّ العلّة هنا منحصرة، واللام لام التعليل. اذاً ينبغي لنا أن نستفيد من هذا الشهر العظيم أكثر فأكثر ونزيد من اقتدائنا بأهل البيت سلام الله عليهم.

لقد كان الأئمّة سلام الله عليهم يدعون حتى لأعدائهم؛ فقد روي في المقاتل أنّ الإمام الحسين سلام الله عليه وبعد أن نزلت به كلّ تلك المصائب واستشهد

---

(١) راجع روضة الواعظين للنيسابوري: ص٥٠٣، مجلس في ذكر الرجاء وسعة رحمة الله تعالى، وفيه: قال صلّى الله عليه وآله: **والذي نفسي بيده، إنّ الله تعالى أرحم بعبده من الوالدة المشفقة بولدها**.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.

أصحابه وأهل بيته وذُبح طفله الرضيع... إلى ما غير ما مرّ به من المصائب، شوهد يبكي ـ ومن المعروف أنّ المُقاتِل لا يبكي في ساحة الحرب؛ لأنّ ذلك يعدّ علامة على الضعف والانكسار ـ فلماذا بكى الإمام الحسين سلام الله عليه؟ الجواب: لأنّه كان يرى أنّ هؤلاء الأعداء كلّهم سيكون مصيرهم إلى النار؛ فبكى لحالهم ومصيرهم الأسود!

هؤلاء أئمّتنا فلنكن من المؤتمّين بهم إن شاء الله تعالى، ولنتوسّل بهم في هذا الشهر أيضاً، فإنّ الله قد قرن عطاءهم بعطائه وفضلهم بفضله؛ قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ﴾**[1] وقال تعالى: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾**[2]، وهذا يعني أنّ الله تعالى يعطي، والنبيّ صلى الله عليه وآله يعطي على نحو التفويض، لأنّ عطاء النبي هو من الله أيضاً، وهكذا الأئمّة الأطهار الذين هم امتداد لجدّهم صلى الله عليه وآله لأنّهم كلّهم نور واحد. ولا يوجد طريق غيرهم يؤدّي إلى الله تعالى؛ حيث قال الإمام الباقر سلام الله عليه: «**شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلاّ شيئاً خرج من عندنا أهل البيت**»[3].

ينقل أنّ الميرزا النائيني ذهب مرّة من النجف الأشرف إلى كربلاء المقدسة ماشياً مع تلامذته. وقبل أن يصلوا إلى كربلاء المقدسة بحوالي ثمانية كيلومترات أمطرت السماء بشدّة وابتلّت ملابسهم جميعاً، ولما وصل الميرزا النائيني إلى كربلاء المقدسة مرض بسبب ذلك حتى أغمي عليه من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٣) الكافي للكليني: ج١ ص٣٩٩، باب: إنّه ليس شي من الحقّ في يد الناس إلا ما خرج من عند الأئمة سلام الله عليهم، ح٣.

شدّة الحمّى، ولما رأى الطلاب أنّه في سكرات الموت أسرع بعضهم لاستدعاء طبيب، فيما ذهب أحدهم إلى قبر الإمام الحسين سلام الله عليه ووقف تحت القبّة ودعا لشفاء الشيخ. وبعد أن تعب عاد إلى المدرسة ـ حيث يرقد الشيخ ـ وكان في حالة بين اليأس والرجاء من حال الشيخ؛ حيث لا يعرف أهو حيٌّ أم ميّت؟

وعندما وصل إلى المدرسة رأى الشيخ جالساً، فسأله عن صحّته؟ فقال: إنّه بخير وبصحّة تامّة! وقال: بينما كنت في تلك الحالة رأيت الموت بأمّ عيني ورأيت ملائكة الموت، ورأيتك أيضاً تحت قبّة الإمام الحسين سلام الله عليه تدعو لي، وأظن أنّ دعاءك هو الذي صار سبباً لشفائي.

وأضاف: أمّا الشيء الغريب الذي رأيته في تلك الحالة أيضاً، فهو أنّي رأيت الملائكة يأتون اليّ ويأخذون علومي واحداً واحداً، ولم يبق لي إلاّ القرآن وروايات أهل البيت سلام الله عليهم، وفي لحظة رأيت أنّي قد شفيت.

أجل إنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل لنا طريقاً صحيحاً إليه إلاّ طريق أهل البيت سلام الله عليهم ولا يقبل منّا غير هذا الطريق؛ قال تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1] فعلينا أن نسعى لرضا الله سبحانه بجلب رضاهم، وأن نعرف كيف نرضيهم. فمن المسائل المهمّة عند أهل البيت سلام الله عليهم هي أن نكون في كلّ يوم أفضل من اليوم الذي سبقه. وهذا الشهر المبارك هو شهر التزكية فعلينا أن نزكّي أنفسنا فيه حتى نصير أمثال زرارة أو عليّ بن مهزيار أو سلمان المحمّدي، وهذا لا يحتاج إلى أكثر من أن نصمّم حتى نوفّق إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

المسألة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها هو الاهتمام بهداية الشباب وإرشادهم في هذا الشهر، فإنّ النفوس تكون مهيّأة أكثر لاستقبال الموعظة، ولا تتصوّروا أنّ هؤلاء الشباب لا يهتدون، بل كثير منهم إذا وجد الطريق الصحيح سلكه وربما صار من العظماء وصار سبباً لهداية الآخرين مثل كثير من أصحاب الرسول الأعظم والأئمّة الميامين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إذاً علينا أن نستثمر فرصة هذا الشهر الكريم من أجل هداية الشباب عبر تشكيل الجلسات لهم وأن نستمع إلى الشبهات التي تخالجهم فنرفعها، وأن نربّيهم في هذا الشهر على شيئين، هما:

١. العقيدة الصحيحة.

٢. مكارم الأخلاق. فإنّ النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[١].

فلربما اهتدى شابّ واحد وصار فيما بعد سبباً لهداية المئات. والعكس صحيح أيضاً فربّ شاب فاسد صار سبباً لفساد المئات.

إنّ الانسان السائر في طريق الله سبحانه تشمله النصرة الإلهية؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾[٢] فلنزكِّ أنفسنا في هذا الشهر بالعمل الصالح، ولنعمل على هداية الشباب وإرشادهم إلى الطريق القويم.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١١ ص٨٧ باب ٦، استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق، ح١.

(٢) سورة غافر، الآية ٥١.

(٢٠)

شهر رمضان وتعميم الثقافة القرآنية*

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّ القرآن شافع مشفّع وماحِلٌ مصدّق**»[١] أي يقبل الله تعالى شفاعته ويصدّق شكايته.

للتعاطي مع القرآن الكريم أربع مراتب:

المرتبة الأولى: أن يتعلّم الإنسان القرآن من ناحية القواعد والحركات والإعراب والتجويد والقراءة الصحيحة، وتعليمها للآخرين.

المرتبة الثانية: التدبّر في القرآن ومعرفة معانيه.

المرتبة الثالثة: العمل بالقرآن.

المرتبة الرابعة: تطبيقه في المجتمع.

لاشك أنّ المرتبتين الأخيرتين أرفع من المرتبتين الأولى والثانية، فمن يعمل بالقرآن ويسعَ لتطبيقه في المجتمع، فإنّ القرآن سيكون شافعاً له، لأنّ الله تعالى لا يردّ شفاعة القرآن. أمّا من كان قادراً على ذلك ولم يفعل فإنّ القرآن يشتكي عليه يوم القيامة لأنّه ماحِلٌ مصدّق، كما في الحديث الشريف

---

* حديث سماحته في جمع من السيّدات الأفغانيات مدرّسات القرآن الكريم في مؤسّسة الإمام الهادي سلام الله عليه.

(١) أصول الكافي: ج٢ ص٥٩٨، كتاب فضل القرآن، ح٢.

المذكور آنفاً.

إنّ القرآن نورٌ، فإذا وصل هذا النور إلى الناس عبر الطريق الصحيح، أي بالحكمة والموعظة الحسنة، فلاشكّ سيؤثّر فيهم. ولكن علينا أوّلاً أن نهيّئ الأجواء بحيث يؤثّر في الآخرين.

كذلك فإنّ القرآن هو الغذاء الروحيّ للإنسان، وكما أنّ الغذاء المادّي بحاجة إلى إناء نظيف يقدّم فيه ليرغب فيه الآخرون، كذلك الغذاء الروحيّ لابدّ له من وعاء نظيف مؤثّر.

ذهب أحد الأشخاص إلى أحد المراجع وقال له: لقد نصحت فلاناً ولكنه لم يقبل نصيحتي. فأرسل المرجع بطلب ذلك الشخص وسأله: لماذا لم تقبل نصيحة هذا الرجل؟ فقال: سله كيف نصحني؟ وتبين أنّ الطريقة التي نصحه فيها لم تكن صحيحة.

إنّ الأنبياء والأئمّة سلام الله عليهم ما كانوا ينصحون أحداً بالضرب والشدّة، وإنّما كانوا ينصحون بالأخلاق الحسنة.

إنّ شهر رمضان هو ربيع القرآن، أي ربيع المراتب الآنفة كلّها من القراءة والتدبّر والعمل، إذاً ينبغي استثمار هذا الشهر المبارك في تعلّم القرآن والعمل على تطبيق أحكامه حتى يكون المجتمع كلّه قرآنياً. وعلينا أن نسعى في تعميم ثقافة القرآن بقدر الإمكان، من خلال تشجيع الآخرين على الحضور في الجلسات القرآنية التي تنعقد في هذا الشهر، وكلّ من يعمل أكثر فحسناته ستكون أكثر. والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[1].

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٢١)

الدعاء مفتاح لحلّ المشكلات*

بعض المشاكل التي يواجهها الإنسان مقدّرة له، ولا سبيل للخلاص منها، وليس أمامه إلاّ الصبر عليها وشكر الله على كل حال، ولكن مع ذلك لا ينبغي الجزع واليأس ولا ترك الدعاء والتضرّع، فإنّ الله تعالى يحبّ دعاء عبده المؤمن.

حدّث الشيخ الفاضل العالم الثقة الشيخ باقر الكاظمي المجاور في النجف الأشرف آل الشيخ طالب ـ نجل العالم العابد الشيخ هادي الكاظمي ـ قال: كان في النجف الأشرف رجل مؤمن من أهل العلم ذا نيّة صادقة يسمّى الشيخ محمد حسن السريرة، وكان مصاباً بالسُّعال، فإذا سعل يخرج من صدره مع الأخلاط دم، وكان مع ذلك في غاية الفقر والاحتياج، لا يملك قوت يومه، يخرج في أغلب أوقاته إلى البادية إلى الأعراب الذين يقطنون في أطراف النجف الأشرف، ليحصل على قوت ولو شعير، ولم يكن على مبتغاه كفاية، رغم شدّة رجائه، وكان رغم ذلك قد تعلّق قلبه بامرأة من أهل النجف، وقد طلبها من أهلها وما أجابوه إلى ذلك لقلّة ذات يده، وقد أضحى في همّ وغمّ شديدين من جهة ابتلاءاته.

---

* حديث سماحته في جمع من المؤمنين الشباب والفضلاء قاموا بزيارته في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة وشكا بعضهم المشكلات التي يعاني منها، وجرى الحديث عن عدم استجابة الدعاء أحياناً، فحدّثهم سماحة بهذه القصة المنقولة من بحار الأنوار.

فلما اشتدّ به الفقر والمرض وأيس من تزويج البنت، عـزم علـى مـا هـو معروف عند أهل النجف الأشرف من أنّه من أصابه أمر فواظب على الذهاب إلى مسجد الكوفة أربعين ليلة الأربعاء، لا بدّ أن يرى صاحب الأمر عجّل الله فرجـه من حيث لا يعلم و يقضي له مراده.

قال الشيخ باقر الكاظمي قدّس سرّه: قال الشيخ محمد: فواظبـت علـى ذلـك أربعين ليلة الأربعاء فلما كانت الليلـة الأخيـرة التـي تزامنـت مـع ليلـة شـتاء مظلمة، مع هبوب رياح شديدة مع بعض الأمطار هبّت ريح، وأنا جـالس فـي الدكّة في باب المسجد وكانت الدكّة الشرقية المقابلة للباب الأوّل تكون على الطرف الأيسر، عند دخول المسجد، ولا أتمكّن الـدخول فـي المـسجد مـن جهة سعال الدّم، ولا يمكن قذفه في المسجد، وليس معي شيء أتّقي فيه عن البرد، وقد ضاق صدري، واشتدّ عليّ همّي وغمّي، وضاقت الدنيا فـي عينـي، وأفكّر أنّ الليالي قد انقضت، وهذه آخرها، وما رأيت أحداً ولا ظهر لي شيء بعد، وقد تعبت هذا التعب العظيم، وتحمّلت المشاقّ والخـوف فـي أربعـين ليلة، أجيء فيها من النجف الأشرف إلى مسجد الكوفة، ويكون لي اليأس من ذلك.

فبينما أنا أفكّر في ذلك، وليس في المسجد أحد أبداً وقـد أوقـدت نـاراً لأسخن عليها قهوة جئت بهـا مـن النجـف الأشـرف، لا أتمكّـن مـن تركهـا لتعوّدي بها وكانت قليلة جداً إذا بشخص من جهة الباب الأوّل متوجّهـاً إلـيّ فلمّا نظرته من بعيد تكدّرت وقلـت فـي نفـسي: هـذا أعرابـي مـن أطـراف المسجد، قد جاء إليّ ليشرب من القهوة وأبقى بلا قهوة في هذا الليل المظلم، و يزيد عليّ همّي وغمّي.

فبينما أنا أفكّر إذا به قد وصـل إلـيّ وسـلّم علـيّ باسـمي وجلـس فـي مقابلي، فتعجّبت من معرفته باسمي، وظننته من الذين أخرج إليهم في بعـض

الأوقات من أطراف النجف الأشرف، فصرت أسأله من أي العرب يكون؟ قال: من بعض العرب، فصرت أذكر له الطوائف التي في أطراف النجف الأشرف، فيقول: لا لا، وكلّما ذكرت له طائفة قال: لا لست منها.

فأغضبني وقلت له: أجل أنت من طُريطرة مستهزئاً وهو لفظ بلا معنى، فتبسّم من قولي ذلك، وقال: لا عليك من أينما كنت، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقلت: وأنت ما عليك السؤال عن هذه الأمور؟ فقال: ما ضرّك لو أخبرتني. فتعجّبت من حسن أخلاقه وعذوبة منطقه، فمال قلبي إليه، وصار كلّما تكلّم ازداد حبّي له، فعملت له السبيل من التتن، وأعطيته، فقال: أنت اشرب فأنا ما أشرب، وصببت له في الفنجان قهوة وأعطيته، فأخذه وشرب شيئاً قليلاً منه، ثم ناولني الباقي وقال: أنت اشربه. فأخذته وشربته، ولم ألتفت إلى عدم شربه تمام الفنجان، ولكن يزداد حبّي له آناً فآنا.

فقلت له: يا أخي أنت قد أرسلك الله إليّ في هذه الليلة تؤنسني أفلا تروح معي إلى أن نجلس في حضرة مسلم عليه السلام ونتحدّث؟ فقال: أروح معك، فحدّث حديثك.

فقلت له: أحكي لك الواقع أنا في غاية الفقر والحاجة، مذ شعرت على نفسي ومع ذلك، معي سعال أتنخّع الدّم، وأقذفه من صدري منذ سنين، ولا أعرف علاجه وما عندي زوجة، وقد علق قلبي بامرأة من أهل محلّتنا في النجف الأشرف، ومن جهة قلّة ما في اليد ما تيسّر لي أخذها.

و قد غرّني هؤلاء الملاّئيّة وقالوا لي اقصد في حوائجك صاحب الزمان وبت أربعين ليلة الأربعاء في مسجد الكوفة، فإنّك تراه، ويقضي لك حاجتك وهذه آخر ليلة من الأربعين، وما رأيت فيها شيئاً؛ وقد تحمّلت هذه المشاقّ في هذه الليالي فهذا الذي جاء بي هنا وهذه حوائجي.

فقال لي وأنا غافل غير ملتفت: أما صدرك فقد برئ، وأما المرأة فتأخذها عن قريب، وأما فقرك فيبقى على حاله حتى تموت.

وأنا غير ملتفت إلى هذا البيان أبداً. فقلت: ألا تروح إلى حضرة مسلم؟ قال: قم، فقمت وتوجّه أمامي، فلمّا وردنا أرض المسجد فقال: ألا تصلّي صلاة تحيّة المسجد، فقلت: أفعل، فوقف هو قريباً من الشاخص الموضوع في المسجد، وأنا خلفه بفاصلة، فأحرمت للصلاة وصرت أقرأ الفاتحة.

فبينما أنا أقرأ وإذا يقرأ الفاتحة قراءة ما سمعت أحداً يقرأ مثلها أبداً، فمن حُسن قراءته قلت في نفسي: لعلّه هذا هو صاحب الزمان وذكرت بعض كلمات له تدلّ على ذلك، ثم نظرت إليه بعد ما خطر في قلبي ذلك، وهو في الصلاة، وإذا به قد أحاطه نور عظيم منعني من تشخيص شخصه الشريف، وهو مع ذلك يصلّي وأنا أسمع قراءته، وقد ارتعدت فرائصي، ولا أستطيع قطع الصلاة خوفاً منه فأكملتها على أيّ وجه كان، وقد علا النور من وجه الأرض، فصرت أندبه وأبكي وأتضجّر وأعتذر من سوء أدبي معه في باب المسجد، وقلت له: أنت صادق الوعد وقد وعدتني الرّواح معي إلى مسلم.

فبينما أنا أكلّم النور، وإذا بالنور قد توجّه إلى جهة مسلم، فتبعته فدخل النور الحضرة، وصار في جوّ القبّة، ولم يزل على ذلك ولم أزل أندبه وأبكي حتى إذا طلع الفجر، عرج النور.

فلما كان الصباح التفتّ إلى قوله: أما صدرك فقد برئ، وإذا أنا صحيح الصدر، وليس معي سعال أبداً وما مضى أسبوع إلاّ وسهّل الله عليّ الزواج من البنت من حيث لا أحتسب، وبقي فقري على ما كان كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٣ ص٢٤٠، الحكاية الخامسة عشرة.

(٢٢)

هكذا تحبط الصدقات*

دخل رجل على محمد بن عليّ بن موسى الرضا سلام الله عليهم وهو مسرور، فقال له الإمام: ما لي أراك مسروراً؟

قال: يا ابن رسول الله، سمعت أباك يقول: أحقّ يوم بأن يسرّ العبد فيه يوم يرزقه الله صدقات ومبرّات وسدّ خلاّت من إخوان له مؤمنين، وإنّه قصدني اليوم عشرة من إخواني [المؤمنين] الفقراء لهم عيالات، قصدوني من بلد كذا وكذا، فأعطيت كلّ واحد منهم، فلهذا سروري.

فقال محمد بن علي (الجواد) سلام الله عليه: «**لعمري إنك حقيق بأن تسرّ إن لم تكن أحبطته أو لم تحبطه فيما بعد**».

فقال الرجل: وكيف أحبطته وأنا من شيعتكم الخُلّص؟

قال: «**هاه، قد أبطلت برّك بإخوانك وصدقاتك**».

قال: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟

قال له محمد بن علي سلام الله عليه: **اقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ**

---

* حديث السيد المرجع في مجموعة من نساء الهيئات الدينية في مدينة قم المقدّسة اللواتي قمن بزيارة سماحته في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة، وذلك في الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك وقد بدأها برواية عن الإمام الجواد سلام الله عليه.

آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأذى﴾.

قال: يابن رسول الله! ما مننت على القوم الذين تصدّقت عليهم ولا آذيتهم.

قال له محمد بن علي سلام الله عليه: إنّ الله عزّ وجلّ إنّما قال: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأذى﴾ ولم يقل لا تبطلوا بالمنّ على من تتصدّقون عليه، وبالأذى لمن تتصدّقون عليه، وهو كلّ أذى، أفترى أذاك للقوم الذين تصدّقت عليهم أعظم، أم أذاك لحفظتك وملائكة الله المقرّبين حواليك، أم أذاك لنا؟

فقال الرجل: بل هذا يا ابن رسول الله.

فقال: فقد آذيتني وآذيتهم وأبطلت صدقتك.

قال: لماذا؟ قال: لقولك (وكيف أحبطته وأنا من شيعتكم الخُلّص) ويحك، أتدري من شيعتنا الخُلّص؟ قال: لا.

قال: شيعتنا الخُلّص حزقيل المؤمن، مؤمن آل فرعون وصاحب يس الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى﴾ وسلمان وأبو ذر والمقداد وعمار، أسوّيت نفسك بهؤلاء؟ أما آذيت بهذا الملائكة، وآذيتنا؟

فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فكيف أقول؟

قال: قل: أنا من مواليكم ومحبّيكم، و معادي أعدائكم، وموالي أوليائكم.
فقال: كذلك أقول، وكذلك أنا يا ابن رسول الله، وقد تبتُ من القول الذي أنكرتَه، وأنكرتْه الملائكة، فما أنكرتُم ذلك إلاّ لإنكار الله عزّ وجلّ. فقال محمد بن علي بن موسى الرضا سلام الله عليه: الآن قد عادت إليك مثوبات صدقاتك وزال عنها الإحباط»[١].

---

(١) تفسير الإمام العسكري سلام الله عليه: ص٣١٤.

(٢٣)

هنا تكمن السعادة*

كلّ الذين وفدوا إلى هذه الحياة إنّما وفدوا من أجل الامتحان، لا فرق في ذلك بين الشيخ والشابّ والرجل والمرأة والغنيّ والفقير والعالم والجاهل... قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [1].

لقد تحدّث الله تعالى عن امرأة فرعون بعبارات قد يقلّ نظيرها؛ قال سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

فالأمر العاديّ أن يكون قدوة الناس ومثَلَهم رجلاً لا امرأة، ولكن الله تعالى جعل في هذه الآية امرأة فرعون ـ التي هي من سيّدات النساء عند الله تعالى بعد السيدة فاطمة الزهراء ـ قدوة ومثلاً للمؤمنين والمؤمنات؛ فإنّ المفهوم من هذه الآية أنّ الله جلّ شأنه يأمر المؤمنين والمؤمنات أن يقتدوا بهذه السيدة الفاضلة، فلماذا وكيف وصلت إلى هذا المقام الرفيع؟

---

* حديث سماحته في مجموعة من السيّدات والسادة مديري ومدرّسي إعداديات المنطقة الثانية في مدينة إصفهان تشرّفوا بزيارته في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة.

(١) سورة يونس: الآية: ١٤.

(٢) سورة التحريم: الآية: ١١.

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تنطوي في عبارة من دعاء أبي حمزة الثمالي ـ الذي علّمه إيّاه الإمام السجاد سلام الله عليه والذي نقرأه في أسحار شهر رمضان المبارك... هذا الدعاء العميق المحتوى، العالي المضامين، الذي له خصوصية خاصّة بين مجموع ما وردنا من أدعية عن المعصومين سلام الله عليهم؛ بحيث يمكن القول بجرأة لو أن أحداً قرأه مرّة واحدة من أوّله إلى آخره بالتفات وتأمّل وتدبّر معانيه حقاً، يكون مستجاب الدعوة عند الانتهاء منه؛ أي أنّ قلبه يكون مستعداً لدرجة أنّ الله تعالى لا يردّ حاجته ـ فلقد جاء في الجزء الأخير من هذا الدعاء قوله: «**ورضّني من العيش بما قسمت لي**»، وهذا بالضبط هو ما تجلّى في امرأة فرعون وصار سبباً لأن تكون قدوة ومثلاً للمؤمنين والمؤمنات.

عموماً لا يمكن أن توجد علاقة مباشرة بين الراحة والسعادة، ولا بين العناء والشقاء. فربّ شخص يكون محصوراً بين أنواع المصاعب والمتاعب ولكنه مع ذلك يشعر بالرضا ولا يكون متبرّماً. كما يمكن أن يكون شخص متمتعاً بأنواع المتع الدنيوية ولكنه مع ذلك لا يعيش حياة سعيدة.

ينبغي الالتفات إلى أنّ سبب السعادة والرضا يتلخّص في ترجيح الرضا الإلهي على كلّ شيء وإن كان في ظلّ أنواع المحن والمصائب والمشاكل والمصاعب والحرمان من كلّ ما عداه.

ومن هنا نفهم قول العقيلة زينب سلام الله عليها عندما توجّه إليها الطاغي ابن زياد بالقول: كيف رأيت صنع الله بكِ؟ فقالت: ما رأيت إلاّ جميلاً![1]

ولعلّه لا يمكن تصوّر وضع أصعب من الوضع الذي كانت فيه امرأة فرعون، ولكنّها رغم ذلك كانت راضية برضا الله تعالى في ظل كلّ الظروف

---

(١) راجع اللهوف في قتلى الطفوف لإبن طاووس: ص٩٤.

الصعبة، ولم يخالجها أدنى اعتراض على ما قدّر الله سبحانه لها.

لا ينبغي أن نعبّس أو تضيق صدورنا أو نحزن بسبب تموّجات الحياة، بل يجب أن نعمل بوظيفتنا في كلّ الأحوال ـ سواء الصعبة أو السهلة ـ وأن نعتبر ذلك امتحاناً إلهياً لنا.

إنّ في القرآن الكريم آية مفعمة بالأمل للإنسان، وتسدّ الطريق بوجه كلّ يأس أو خيبة، وهي قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن رحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [١].

لا شك أنّ الرضا بالتقدير الإلهي لا يعني أبداً أن لا نخطو من أجل حلّ المشاكل ورفع النواقص بأن نحجم عن الاستفادة من الوسائل والأسباب الظاهرية والدعاء والتوسّل وغير ذلك، بل المقصود من الرضا بالتقدير الإلهي هو التسليم إزاء الأمور الخارجة عن إرادتنا. فإذا كنّا كذلك فإن تقلّبات الحياة ومصاعبها لن تثنينا أو تعصرنا ولا نصاب بالإحباط والكآبة؛ ومن هنا أيضاً نفهم وصف المؤرّخين للإمام الحسين سلام الله عليه في يوم عاشوراء أنّه كان يزداد وجهه إشراقاً كلّما سقط شهيد من أسرته وأصحابه.[٢]

ليست سعادة الدنيا في أمور زائلة كالثروة أو البيت الواسع وغيرهما بل بامتلاك قلب واسع مطمئنّ؛ راض عن قسم الله تعالى، كيف كانت، فلكلّ واحد منّا تقديرات خاصّة في الحياة، وكلّ فرد يواجه مشكلات ونواقص، فواحد فقير وآخر مريض وثالث عقيم وهكذا.. إنّما المهمّ أن نسعى لأن نكون راضين بقضاء الله عزّ وجلّ في كلّ حال.

---

(١) سورة هود: الآية: ١١٩.

(٢) قال عبد الله بن عمار بن عبد يغوث في وصفه للإمام الحسين عليه السلام: ما رأيت مكثوراً قط قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه. انظر مثير الأحزان لابن نما: ص٥٤، المقصد الثاني: في وصف موقف النزال وما يقرب تلك الحال.

(٢٤)

التبليغ والمنبر الحسيني*

نقرأ في الزيارة عبارة «**اللهمّ اجعلني عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة**». هذه العبارة موجودة في زيارة الإمام الحسين ليوم عاشوراء، الذي عُدّ من الأحاديث القدسية.

تتمتّع زيارة عاشوراء باعتبار ووثاقة كبيرين، وليس لأحد التنكّر لذلك، لأنّ ذلك يعني في الواقع التنكّر لزيارة وارث، وزيارة الأربعين، والزيارة الجامعة، وزيارة الإمام الحسين في يوم عرفة، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدد من الزيارات الأخرى، فجميع هذه الروايات تدخل ضمن نسق واحد.

أما زيارة عاشوراء فتعدّ من الأدعية العميقة الغور والعظيمة الأهمية، وهي تعدّ من النعم والألطاف الإلهية التي منّ الله بها على عباده، حيث رواها أئمّتنا المعصومون سلام الله عليهم، وعلى الرغم من أنّهم يتكلّمون بلسان الله سبحانه ـ وهذا بالضبط هو معنى العصمة ـ ولكن مع ذلك فإنّ زيارة عاشوراء تعتبر في الواقع زيارة خاصّة.

تبيّن العبارة المذكورة آنفاً والمقتبسة من زيارة عاشوراء كم أنّ الإنسان

* حديث السيّد المرجع في جمع من العلماء والخطباء والمبلّغين وطلبة العلوم الدينية من محافظة إصفهان قاموا بزيارة سماحته قبل حلول شهر محرم الحرام عام ١٤٢٧ هـ .

حقير مقابل عظمة الله جلّ شأنه، حيث يعترف بحاجته الماسّة إلى ربّه وأن لا وزن له ولا قيمة من دون الله، ويعلم علم اليقين أنّه لا يملك ما يقدّمه في حضرة معبوده سواء كان قولاً جميلاً أم عملاً رزيناً، وفي الحقيقة إنّا لا نتوافر على أهلية التحدّث إلى الله أو أن ننطق بكلمة «يا الله»، وإذا كنّا نملك شيئاً من هذا فإنّما هو منّة من الله وفضل حبانا بهما سبحانه فأذن لنا بدعائه كما في المنقول «**وأذنت لي في دعائك**»[1]، ولولا هذه الأدعية والزيارات، لما استطاعت عقولنا أن تحيط بهذه المعاني الراقية، ولولا لطف أهل البيت وكرمهم سلام الله عليهم، لما استوعب العرفاء والحكماء والفلاسفة هذه المعاني العجيبة والمضامين السامية.

نحن جميعاً نُعتَبر دعاة إلى فكر أهل البيت سلام الله عليهم ومدرستهم، وهذا يفسّر أهمية الدور الذي نضطلع به، وهي أهمية نابعة من أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نفسه كان مبلّغ الولاية، حيث خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾[2]، وكذلك الإمام الصادق والإمام المهديّ سلام الله عليهما هما مبلّغان، ومن هذا المنطلق فإنّنا نُعتبر من مبلّغي أهل البيت سلام الله عليهم والسائرين على نهجهم، وهي نعمة أنعم الله بها علينا. ربّما يتعب الإنسان من عمله أو يصيبه الكلل و الندم، لكنّ المبلّغ الذي يرتبط بأهل البيت سلام الله عليهم ويكون في خدمتهم لا يكلّ ولا يملّ من عمله.

لذا ترانا في خطابنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر المعصومين نستخدم عبارة «**يا وجيهاً عند الله**»[3] فالوجاهة والكرامة عند الله هي مقام

---

(١) راجع مصباح المتهجد للطوسي: ص٥٧٧ رقم٦٦، دعاء كل ليلة من شهر رمضان.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٦٧.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج٩٩ ص٢٤٧، مقطع من دعاء التوسل.

جدّ عال، وعندما نقرأ هذه العبارة المهمّة من زيارة عاشوراء يجب أن نلتفت إلى غورٍ معناها ونحيط بعمق محتواها، وأن نعلم بأنّ لامتلاك الوجاهة عند الله شروطاً ليست باليسيرة.

شروط الوجاهة الربانية

وأحد هذه الشروط هو أن نمتلك صفة العفو والمسامحة إذ إنّ الإمام الحسين سلام الله عليه كان تجسيداً حيّاً لهذه الصفة العظيمة ونحن باعتبارنا دعاة إلى نهج الإمام ينبغي أن نتحلّى بهذه الصفة، وأن نتخلّى عن كثير من الأشياء في سبيل النهج الحسينيّ الذي اخترناه لأنفسنا.

إنّ مبلّغ الإمام الحسين سلام الله عليه يجب أن يتحلّى بصفة العفو في المجالات السياسية والاجتماعية والأسرية، وأن يتحمّل الصعوبات والشدائد في مسيرة التبليغ لمدرسة أهل البيت سلام الله عليهم، لأنّ الإمام الحسين سلام الله عليه ضحّى بدمه الزكي من أجل تحقيق أهداف دين جدّه صلى الله عليه وآله النبيلة.

جاء في إحدى زيارات سيّد الشهداء سلام الله عليه: «**وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة**».[1]

لقد تحمّل أشرف الأوّلين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وآله في سبيل تبليغ الرسالة الإسلامية شتّى أنواع الأذى، وصبر على جميع الصعاب وكان نهجه في ذلك الصفح والعفو عن المسيء، ونحن أيضاً ينبغي أن نقتفي أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد الشهداء والإمام الصادق سلام الله عليهما وأن نصبر على الأذى.

لا شكّ في أنّ الرسول الأكرم والإمام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء

---

(١) انظر مصباح المتهجد للطوسي: ص٧٨٨ رقم١٢، زيارة أخرى في يوم عاشوراء.

والإمام الحسن المجتبى عليهم أفضل الصلاة هم أعلى مرتبة من الإمام الحسين سلام الله عليه إلاّ أنّ إرادة الله التكوينية والتشريعية شاءت أن يكون لهذا العبد الصالح مقاماً ومكانة لم يخصّ الله بها أحداً من عباده غيره.

لقد بقي نور مجالس العزاء الحسينية وهّاجاً على الرغم من تلك المضايقات والمتاعب. إنّ ذكرى عاشوراء بقيت حيّة في الأذهان ومتجذّرة في الضمائر رغم التصدّي لها ومحاربتها من قبل أعداء أهل البيت سلام الله عليهم، حتى عدّوا نقل فضائل سيّد الشهداء سلام الله عليه جريمة لا تغتفر في بعض مقاطع التاريخ.

ينقل لنا التاريخ أنّ رجلاً ظالماً من عمّال بني العباس يدعى نصر وكان من بطانة المتوكّل العباسي والمقرّبين منه، روى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله في باب فضيلة الإمام سيّد الشهداء سلام الله عليه، وعندما تناهى ذلك إلى علم المتوكّل أمر بجلده ألف جلدة.

وفي عصرنا الراهن، حاربت الحكومات المتعاقبة في العراق بعض مظاهر العزاء الحسيني ومنعته، فكان يُرَشّ الملح والفلفل على جروح المعزّين الحسينيين، ولكن كانت النتيجة أن باتت اللعنات تلاحق أولئك الطغاة، بينما ظل شعاع عاشوراء ينير الدرب نحو العلا.

لقد عُذّب الكثيرون بسبب إحيائهم لمجالس العزاء الحسينية وأُحرقوا وشُرّدوا وقُتّلوا لكن بقي اسم الإمام الحسين سلام الله عليه خالداً لم تمحه هذه الممارسات الظالمة. ولم تنفرج هذه الشدّة إلاّ في السنتين الأخيرتين عقب سقوط حكم البعث في العراق حيث أتيحت الفرصة للزائرين لزيارة العتبات المقدّسة، وحسب الإحصاءات التي نشرتها الجهات الأجنبية، فقد تشرّف حوالي ١٢ مليون زائر من إيران فقط بزيارة كربلاء المقدّسة.

وينقل أحد خطباء المنبر الحسيني بتعجّب وشغف عن إقامة مجالس العزاء الحسينية في إحدى المدن القريبة من القطب الشمالي التي زارها لأجل التبليغ، حيث يروي أنّ صوت مراسيم العزاء كانت تداعب الآذان حيث كان عدد قليل من المعزّين يحيون شعائر العزاء الحسينية في طقس قارص، شديد البرودة والانجماد.

ويأبى الله إلاّ أن يستمرّ ذكر أبي عبد الله، وأن يتمّ نوره في القلوب. ﴿**لِيَهلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾.[١] فقد قضت حكمة الله أن يهلك المتوكّل العباسي وأضرابه عن بيّنة وأن يحيا شهداء كربلاء حياة خالدة وأبدية وعن بيّنة أيضاً. ولو لم تكن عاشوراء، أنّى لنا أن نتعرّف على حقيقة عمر بن سعد أو زهير بن القين الذي قيل عنه بأنّه كان عثماني الهوى؟

كما ينقل التاريخ بأنّ شمر وحبيب بن مظاهر كانا رفيقين ومن عشيرة واحدة، لكن واقعة كربلاء هي التي فرّقتهما، وكشفت للملأ عن حقيقة كلّ منهما، فلولا عاشوراء لما علمنا بأيّ من هذه الأمور.

وفي ذلكم عبرة

لقد كان الشيخ جعفر الشوشتري ـ أحد مراجع التقليد في عصره حيث له رسالة عملية بعنوان (منهج الرشاد)، وهي رسالة فريدة من حيث تبويب الموضوعات وتصنيفها، وقد علّق عليها صاحب العروة والآخوند ـ ذات مرّة وهو عائد إلى طهران من زيارة كانت له إلى مدينة مشهد المقدّسة صعد المنبر في إحدى المدن في طريق عودته، وذلك نزولاً عند رغبة ثلّة من المؤمنين. وفي إحدى خطبه التي اعتبرها البعض مؤثّرة للغاية قال الشيخ

---

(١) سورة البيّنة، الآية: ٤٢.

الشوشتري: عندما عزمت على المجيء إلى هنا لفت انتباهي دابّة من الدوابّ بعد ما أفرغت حمولتها في المكان المقصود، وذلك عندما وقع نظري على عينيها وكأنّ لسان حالها يقول لي: يا شيخ جعفر، لقد أدّيتُ ما أنيط بي من واجب على أحسن وجه، ونقلتُ الحمل إلى المنزل المقصود، فهل أدّيت ما عليك من مسؤولية؟ هل نقلت الحمل إلى مقصده؟

فلا بدّ لنا أن نتدبّر في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**كلّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته**».[1] فكلّنا مسؤول، لأنّ مهمّة التبليغ مناطة بالجميع، لكن القسط الأكبر منه يتحمّله أهل العلم، والجميع بدءاً من مرجع التقليد حتى التلميذ يتحمّل مسؤولية إزاء واقعة عاشوراء ونشر الثقافة الحسينية. حاولوا أن توظّفوا هذه المناسبة بشكل أكبر من السنوات السابقة، وكذلك حاولوا أن توسّعوا من صدركم وصبركم على الشدائد والصعاب، واعلموا أنّ الإمام الحسين سلام الله عليه في غنى عن تبليغنا وكتاباتنا وخدماتنا، بل نحن والعالمين جميعاً بحاجة إلى كرمه ولطفه صلوات الله عليه.

إنّ من أهمّ واجبات المبلّغين والدعاة هو الاهتمام بشريحتي الناشئة والشباب، كما أنّ من وصايا المغفور له أخي[2] أعلى الله مقامه في مثل هذه المناسبات هي: حاولوا أن ترسّخوا الثقافة الحسينية في ضمير الشباب، فالإمام الصادق سلام الله عليه في خطابه إلى أبي جعفر الأحول (مؤمن الطاق) يقول: «**عليك بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير**».[3]

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج٧٢ ص٣٨ ح٣٦.

(٢) المرجع الراحل آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس سره.

(٣) وسائل الشيعة للعاملي: ج١٦ ص١٨٧ باب١٩، استحباب الدعاء إلى الايمان والاسلام مع رجاءالقبول ...، ح٤.

(٢٥)

حسن الخلق يحوز خير الدارين*

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حَسِنُ الخُلق ذهب بخير الدنيا والآخرة**»[١].

إنّ المرء في أيّ مجال كان وفي أيّ بلد وفي أيّ مرتبة فهو مردّد بين الخير والشّر، إذ إنّ في الإنسان دافعاً الى الخير وهو العقل ودافعاً نحو الشر وهي النفس الأمّارة بالسوء. فإذا كان المرء حسن الخلق فإنّ دافع الخير عنده يغلب دافع الشرّ وسيكون نصيبه خير الدنيا والآخرة، بخلاف سيّئ الخلق فهو لا دنيا له ولا آخرة.

أمّا كيف يكون الإنسان حسن الخلق، فهذا يرجع إلى كلمة واحدة يمكن لكلّ إنسان أن يبدأ بالعمل بها من هذه اللحظة ومن هذا المكان الى آخر حياته. والكلمة هي ما ورد في حديث لمولانا الإمام الرضا سلام الله عليه حيث قال: «**إنما هي عزمة**»[٢].

فأيّ إنسان عزم عزماً أكيداً على أن يكون خلوقاً فإنّه يوفّق لذلك.

---

* حديث سماحته لدى استقباله مجموعة من الطلاب والطالبات في الحوزة العلمية من عمان.

(١) الخصال للصدوق: ص٤٢ باب الاثنين، معرفة التوحيد بتحصلتين، ح٣٤.

(٢) انظر بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٥٩ باب٧٣ رقم ٣، والعزمة (بفتح العين) هي صيغة مبالغة ومعناها: العزم الأكيد.

وحسن الخلق هو أن تكون صادقاً في الكلام، صابراً عند المكاره، تلقى الناس دائماً ببشر الوجه وطلاقته، وأن تحلم عمّن يسيئ إليك، وإلى غير ذلك من محاسن الأخلاق.

يروى عن الامام الباقر صلوات الله وسلامه عليه، أنّه قد اعترضه شخص نصرانيّ وقال له ـ والعياذ بالله ـ : أنت بقر! فأجابه سلام الله عليه: **بل أنا باقر.**[1]

وهذا هو الحلم. فاذا انتقصك شخص ما، فعليك أن تحلم، عندها تحوز على خير الدنيا وخير الآخرة، وهذا بحاجة الى العزم الذي تكون نهايته التوفيق.

وهذه سُنّة الحياة. فطالب العلم إذا عزم على أن يكون حسن الخلق فسيصبح عالماً، والكاسب إذا عزم على ذلك سيصبح تاجراً، والزوج سيكون محبوباً عند زوجته، وهكذا الزوجة.

بعبارة إخرى: إنّ حسن الخلق يكون محبوباً عند الله تعالى وعند الناس كافّة.

فمن الخطأ تصوّر وجوب ردّ السيّئة بالسيّئة. أجل إنّه جائز في الحدود الشرعية كما في قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[2]. ولكنه ليس بواجب أو مستحبّ.

إنّه من يريد التوفيق وخير الدنيا و خير الآخرة والمحبّة عند الله عزّ وجلّ وعند الناس ينبغي له أن يردّ السيئة بالإحسان والحلم. فقد ورد في أحوال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّ إحدى زوجاته اتّهمته تهمة عنيفة في قضية قذف

---

(١) انظر مناقب آل أبي طالب للمازندراني: ج٣، ص٣٣٧، باب إمامة أبي جعفر الباقر عليه السلام.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

زوجته مارية القبطية،[1] فلم يقابلها صلّى الله عليه وآله بالمثل ولم يجبها، بل إنّه صلّى الله عليه وآله اكتفى بنفي التهمة عنه فقط؛ علماً أنّ هذه الرواية نقلت عن أحد المعصومين سلام الله عليهم ولم ينقلها غيرهم من سائر الناس، لأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم ينقلها لأحد من الناس. فينبغي تعلّم الفضائل هذه والخلق الحسن من رسول الاسلام صلوات الله وسلامه عليه، والقرآن الحكيم يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾.[2]

لقد رأيت الكثير ممن اتّصف بالخلق الحسن من العلماء وغيرهم من سائر الناس كانوا موفّقين في حياتهم وكانوا محبوبين عند الناس ولم يلقوا صعوبة في حياتهم.

إنّ أيّ فرد من أفراد الأسرة اذا كان حسن الخلق فإنّه سيكون محبوباً عند الجميع وسيقبل الله عزّ وجلّ أعماله، وإذا مات فسيترحّم عليه الناس، أمّا صاحب الخلق السيّئ فإنّه سيكون على العكس من ذلك تماماً.

لذا ينبغي لكم أن تعزموا على التحلّي بالأخلاق الحسنة، لتنالوا خير الدنيا وخير الآخرة.

---

(١) راجع تفسير الميزان للطباطبائي: ج١٥ ص١٠٣، مورد تفسير سورة النور، الآية: ١١. والمستدرك على الصحيحين للحاكم: ج٤ ص٣٩، ذكر سراري رسول الله صلّى الله عليه وآله. ومجمع الزوائد للهيثمي: ج٩ ص١٦١، باب فضل ابراهيم بن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

(٢) سورة الأحزاب، الأية: ٢١.

(٢٦)

الثقافة هي الاساس*

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[١].

إنّ صيغة الآية الاستفهامية إنّما تريد الإشارة بوضوح إلى حقيقة الإجابة التي لا يختلف فيها اثنان، باعتبار أنّ العلم والعلماء أرقى منزلة من الجهل والجهّال.

إنّ مسألة الثقافة من أهمّ المسائل في كلّ أُمّة وحضارة. وقد يصحّ ما يقال بأنّ العالَم يدور على عجلة الاقتصاد والسياسة، ولكن الأصحّ من ذلك هو القول بأنّ الثقافة هي التي توجّه الاقتصاد والسياسة. فبقدر ما يحمل الفرد من ثقافة وعلم في كلا المجالين، فإنّه لا يَخسر ولا يُغلَب.

إنّ الثقافة الصائبة وحدها القادرة على مواجهة وتصحيح ما نراه من ثقافة ضحلة في عالم اليوم، لأنّ القوّة أو المال أو غير ذلك يعجز عن مواجهة الثقافات وتغييرها، إذ لا يقارع الثقافة إلاّ الثقافة. فقد يهزم التاجر زميله التاجر، والسياسيّ نظيره، ولكن الفكر والثقافة لا يهزمان بالمال أو القوّة السياسية أو العسكرية، بل لابدّ لمن أراد خوض الميدان الثقافي الهادف إلى

---

* حديث السيد المرجع في نخبة من المثقفين العاملين زاروه في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة.

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

التغيير أن يكون متسلّحاً بسلاح الفكر والثقافة. ومن هنا كان العمل الثقافي من أهمّ الأعمال في المجتمع، فهو يمثّل البناء التحتيّ لغيره من الأعمال.

إنّ من المغالطات المعروفة، الخلط بين وحدة الموقف السياسي ووحدة العقيدة، فتصوّر الكثير من المسلمين بأنّ الوحدة بين الشيعة وغيرهم تعني فرض عقيدة واحدة على الجميع، في حين أنّ هذا الأمر شيءٌ مستحيل وخاطئ، إذ الاختلافات العقائدية من شأنها أن تُحلَّ بالحوار فقط، وصولاً إلى الحقّ وليس من الضرورة أن يتمّ الاتّفاق على كلّ المعتقدات، فإنّ الاختلاف سنّة الحياة، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾[1].

لو تطرّقنا إلى تفسير جانب من جوانب قوله سبحانه: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾[2] باعتبار أنّ الدليل هو الأمر الوحيد القادر على إحداث التغيير الجذري في قناعة هذا الإنسان أو ذاك، فإنّنا سنجد أنّ الآية الشريفة تريد تأكيد ضرورة أن يعرف من هلك أنّه إنّما هلك لاختياره طريق الضلالة، وأن يعرف من يحيا أنّه إنّما حيّ لاختياره طريق الهداية، فالمهمّ أن يكون الإنسان عارفاً بما اختار، فلا يهلك وهو جاهل بالأمر، وكذلك لا يكفي للمرء أن يكون على الطريق الصواب، بل يريد الله منه أن يكون عارفاً بأنّه على صواب، وأن يكون اختياره له عن دليل وبيّنة.

ولا يعني تغيّر الإنسان بسبب فكرة أو كلمة ضرورة أن يحدث التحوّل المعلن لديه دفعةً واحدة، لأنّ تغيير المواقف والعقائد والإعلان عنه ليس بالأمر الهيّن، فهو يغيّر تاريخه، بل ونوعية وجوده. ولكن الفكرة النيّرة تهزّ

---

(١) سورة هود: الآية: ١١٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

الإنسان ـ المنصف الواعي ـ وتدفعه إلى مزيد من البحث؛ وصولاً للحقيقة الكاملة، وإذا اتّضحت له البيّنة آمن، إلاّ أن يكون معانداً، والمعاندون قليلون، أمّا ما نراه في عامّة الناس من عدم الاهتداء إلى نور الحقّ فهو التعصّب الناشئ من الجهل وعدم انكشاف البيّنة، الأمر الذي يحتاج إلى وسائل وفرص كفيلة بذلك.

وهناك جملة من الأمثلة على نفوذ الثقافة الحقّة القائمة على البيّنة والبرهان في كثير من الأشخاص الذين كانوا يعيشون في بيئة عُرفت بعدائها للحقّ والحقيقة مثل ابن مروان بن الحكم الذي كان يسمّى بسعد الخير رغم ما هو معروف من بطلان منهج أبيه، ومثل عليّ ابن المسمّى صلاح الدين الأيّوبي الذي ارتكب ما ارتكب من مجازر رهيبة بحقّ الفاطميين والشيعة تحت مظلّة مقاومة الهجمات الصليبية.

وخلاصة القول: لمّا كان العمل الثقافي يعدّ من أهمّ الأعمال، بل أهمّها، فإنّ ذلك يستوجب توفّر ثلاثة شروط، لضمان نجاحه وتحويله إلى عمل مثمر، وهذه الشروط هي:

١. التأكّد بأنّ فكر أهل البيت عليهم السلام هو النور والمشعل الوضّاء والبيّنة، وأنّ هنالك الملايين من البشر محرومون منه، وأنّ مهمّة إيصاله إلى هذا الكمّ الهائل ليس بالمهمّة السهلة، ممّا يستدعي مضاعفة الجهود لنشر ثقافة هذا النور لتحرير الناس ـ بمن فيهم المفكّرون والمثقّفون ـ من ظلمات الجهل.

٢. إذا أردنا لأعمالنا أن تحقّق أهدافها، فلابدّ أن تكون مطابقة للطريق الذي رسمه الشرع لنا، وإلاّ فسيكون مثَلنا مثل ذلك السائق الذي لا يتقيّد بالعلامات المرورية، ثمّ يتبيّن لنا أنّ المسافة التي قطعناها بعد

مدّة طويلة لم تكن هي المطلوبة، وأنّه ينبغي علينا العودة إلى نقطة البداية لتصحيح المسار .. وبتعبير أدقّ: إنّ على العاملين في السلك الثقافي عموماً أن يعرضوا على الناس عين ما يريده أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم، فهم أعلام الهداية وأنوارها.

٣. ضرورة العمل وفق أنجح الأساليب وأجمل التعابير، تماماً كما هو الحال بالنسبة لأساليب الأدعية الواردة عن أئمّتنا المعصومين سلام الله عليهم، حيث روعة البلاغة والفصاحة وجمال التعبير، فضلاً عن سموّ المعنى.

(٢٧)

التبليغ رسالة العلماء *

ورد في إحدى زيارات الإمام الحسين سلام الله عليه التي رواها الأعاظم، عن كامل الزيارات للمرحوم ابن قولويه القمّي عن الإمام الصادق سلام الله عليه :

«أشهد أنّك طهر طاهر مطهّر من طهر طاهر مطهّر، طهُرَت وطهُرتْ بك البلاد وطهرت أرض أنت بها وطهر حرمك»[1].

عشرة ألفاظ من مادّة «طهر» استعملها الإمام الصادق سلام الله عليه في هذه الجملة في مخاطبة جدّه الإمام الحسين سلام الله عليه. ونسبة الطهر إلى الإمام إذا قصد منها العصمة، فهذا يعني أنّ هناك خصوصية للإمام الحسين سلام الله عليه في هذا المجال لا يشاركه فيها إلاّ أخوه الإمام الحسن سلام الله عليه لانفرادهما بأبوين معصومين طاهرين؛ فأمّا جدّهما رسول الله صلّى الله عليه وآله وإن كان أفضل وأطهر الأولين والآخرين ولكنّ أباه وأمّه لم يكونا معصومين وإن كانا طاهرين لكن

---

* بمناسبة قرب حلول أيّام محرّم الحرام، استقبل سماحة آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله في بيته المكرم بمدينة قم المقدّسة جمعاً من الفضلاء والمبلّغين وطلاّب العلوم الدينية من مدينة إصفهان، وألقى فيهم هذه الكلمة القيّمة.

(١) من زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه في أوّل رجب والنصف من شعبان رواها أيضاً ابن قولويه في كامل الزيارات: ص١٠١. والشهيد الأوّل في المزار: ص١٤٤، زيارته سلام الله عليه في أوّل يوم من رجب... . وغيرهما.

العصمة هي أعلى درجات الطهارة. وهكذا الحال بالنسبة إلى أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام فإنّ أبويه كانا طاهرين غير معصومين أيضاً. أما بالنسبة لسائر الأئمة المعصومين من ذرية الإمام الحسين عليه السلام فكانوا معصومين من جهة الآباء أيضاً ولكن أمّهاتهم كنّ طاهرات غير معصومات. فتنحصر صفة عصمة الآباء والأمّهات في الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام فقط.

ولذلك يخاطب الإمام الصادق سلام الله عليه جدّه الإمام الحسين سلام الله عليه بقوله: «**أشهد أنّك طهر طاهر مطهَّر من طهر طاهر مطهَّر**». وإثبات العصمة لهؤلاء الطاهرين المطهرين الأربعة عشر مما تسالم عليه الشيعة الإمامية.

والبحث في هذه القطعة لا يخلو من أهمية رفيعة لأنها عبارة فريدة لم يرد مثيل لها في حقّ أحد غيره، لما فيها من نكات مهمّة لم تبحث بعد، سواء من الناحية اللغوية والبلاغية أو من الناحية العقائدية.

إنّ للطهارة مراتب سامية فلنجعلها نصب أعيننا ونبذل جهدنا من أجل تحقيقها في ذواتنا، وإذا كان شهر محرّم الحرام خير فرصة لاتّخاذ مثل هذا القرار فلننتهز هذه الفرصة، ولنتذكر أنّ الطهارة قابلة للتأثّر، ويمكن أن تتلوّث بسرعة بالذنب والمعصية تماماً كالماء الطاهر الذي ينفعل ويتلوّث إن لاقته النجاسة، والذنوب نجاسات، فلا تدعوها تلوّث طهارتكم.

دخل على الميرزا الكبير في أحد الأيّام رجل علم عادي ولكنّ الميرزا نهض من مكانه واستقبله استقبالاً حافلاً وقبّل ما بين عينيه، فتعجّب الطلاب الذين كانوا يحضرون المجلس! لأنّ الميرزا كان لا يقوم لكل أحد يومذاك بسبب شيخوخته، فضلاً عن ذلك فهذا الشخص الوافد لم يكن يحظى بدرجة علمية مهمّة، وعندما استقرّ المجلس توجّه أحد الطلبة بسؤال الميرزا عن هذا الشخص الذي قام من أجله وكرّمه، فقال: إنّه من الذين أخشى أن أغبطهم

يوم القيامة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لقد كنّا ندرس سوية في بحث الخارج، وفي أحد الأيّام تناهى إلى سمعه أنّ هناك قرى في العراق تحتاج إلى من يبصّرها بأمور دينها، فأهلها أناس أميّون لا يعرفون كثيراً عن أحكام الإسلام، فشعر بالمسؤولية وترك الدرس والرقيّ العلمي وتوجّه لإجابة نداء الواجب الذي أحسّ به تجاههم، وبدأ بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة ثم تعليم الكبار أحكام الدين حتى وُفّق أخيراً إلى رفع مستواهم وبناء مراكز علمية ودينية وعبادية لهم.

فالرتبة العلمية لا تعني كل شيء، بل الرسالة التي ينهض بها العلماء هي التي ينبغي الاهتمام بها، فليعرفوا قدر ما يقومون به، وليعبئوا أنفسهم من أجل القيام بهذه المهمّة على أحسن وجه.

(٢٨)

نشر مبادئ أهل البيت*

قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

مفردة ﴿أَقِيمُوا﴾ تعني الثبات، فمثلاً، أداء الصلاة يختلف عن الالتزام بروح الصلاة والثبات عليها، ففي زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه وردت هذه الفقرة (أشهد أنك قد أقمت الصلاة) أي إنّه قد التزم روح الصلاة وثبت عليها؛ وجعلها قائمة في نفسه والمجتمع.

لا ريب أنّ الخطاب القرآنيّ موجّه إلى عامّة الناس وسائر المسلمين والمتدينين، ليبيّن لهم أنّ (أقيموا الدين) عبارة عن هيئة ومادّة، إذا ما جرى التفكيك أو الفصل بينهما، أصبحت أمراً ومادّة متعلّقة بأمر.

ولكن ما الدين؟ القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[2]، ما يعني أنّ المستحبّات والمكروهات وأخلاقيات وآداب الإسلام وغيرها من التشريعات الإسلامية هي قوام دائرة الأمر (أقيموا)، ويجب أن نلاحظ بدقّة أنّ القرآن الكريم لم يقل (أقيموا الواجبات) بل قال (أقيموا الدين) أي كلّ ما يقع ضمن دائرة الدين.

---

* بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك لعام ١٤٢٣ هـ التقى سماحته جمع من المبلّغين ورجال العلم من محافظة أصفهان فألقى فيهم هذه الكلمة.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

لكن من المؤكّد أنّ أهل العلم لهم خصوصيتهم، ويتعيّن عليهم إبلاغ الناس بمسائل الحلال والحرام وأصول الدين وفروعه... وفي هذا الصدد روي عن الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه، أنه قال لواحد من خيرة أصحابه وأعوانه، وهو الحارث بن مغيرة: «**لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم**».[1]

فإنّ كلمة (علماء) لا تعني مراجع التقليد فحسب، بل إنّ الخطاب يشمل كل من يمتلك علماً في أيّ مجال، وبالطبع فإنّه كلّما ازداد العلم، كانت المسؤولية أكبر وأثقل. ويجب أن نعلم بأنّ الناس إذا ما قارفوا الذنوب ـ كأن يكون الفرد المسلم لا يصلّي، ولا يؤدّي واجباته ووظائفه الدينية ـ فإنّ ذنوبهم تقع على عواتقنا، إلاّ إذا عجزنا حقاً عن القيام بشيء حيالها، وأعذرنا الله عزّ وجلّ.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لأهل العلم منزلةً ومقاماً رفيعاً عنده، وإنّ صلاة العالم وعباداته الأخرى، تفضل صلاة العابد بألف ضعف[2]، فكان من الطبيعي ـ طبقاً لهذا المقام ـ أن تتضاعف مسؤولية العالم أمام الله عزّ وجلّ.

من هنا لا بدّ من الإشارة إلى بعض المواطن في التاريخ الإسلامي، تتعلّق بالمصاعب والمعاناة التي تحمّلها الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله على طريق تبليغ الرسالة الإسلامية السمحاء، فبعد أن بُعث صلى الله عليه وآله بالرسالة، اعتلى جبل الصفا، ثم جبل المروة، ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، غير أنّ المشركين راحوا يرمونه بالحجارة، حتى أدموا بدنه الشريف، فبادرت إليه

---

(١) الكافي: ج٨ ص١٦٢ ح١٦٩.

(٢) إشارة إلى قوله صلّى الله عليه وآله: **ركعتان يصلّيهما العالم أفضل من ألف ركعة يصلّيها العابد.** مكارم الأخلاق للطبرسي: ص٤٤١، الفصل الثالث في موعظة رسول الله صلّى الله عليه وآله لعلي سلام الله عليه.

ملائكة السماء تلتمس منه الأمر لإبادة المشركين، إلاّ أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يقبل، وقال: «**اللهم أهد قومي**»[١].. وعلى أثر استقامة رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله وعمله، وبعد مضيّ نحو إحدى وعشرين سنة من بدء دعوته، دخل أكثر هؤلاء المشركين، أو أبنائهم إلى الإسلام.

إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يدعُ على أولئك المشركين بالويل والثبور، ذلك لأنّه صلى الله عليه وآله رحمة، وكان يقول: (بُعثتُ رحمةً)[٢]. والله عزّ وجلّ يأمرنا في كتابه الحكيم أن نتعلّم من نبيّه صلى الله عليه وآله كما يجب أن نعلم أن أكثر الناس ليسوا معاندين. نعم، قد يكونون متعصّبين، إلاّ أنهم ليسوا بالضرورة معاندين.

فمثلاً يُذكر أنّ العيّاشي كان كاتباً سنّياً متعصّباً، لكنه لم يكن معانداً، فلما بصّره بعض الشباب الشيعة بالحقيقة، اختار مذهب أهل البيت سلام الله عليهم، بحيث أنّه عندما ورث من أبيه (٣٠٠ ألف) من المسكوكات الذهبية ـ أي ما يربو على طن واحد من الذهب بحساب اليوم ـ بذل كل هذه الثروة في خدمة المذهب الحقّ، وربّى أفراداً مثل (الكشي) الذي لاقى كتابه الموسوم بـ «رجال الكشي» فائق السمعة في تصنيفه لعلماء الشيعة في مجال الحديث والرواية.

فلنستفد في هذا الشهر المبارك أكثر من ذي قبل، ولنعمل الى جنب إصلاح الذات، لهداية أولئك الذين لا يعلمون، ولنفعل كلّ ما باستطاعتنا عمله، من إقامة مجالس أهل البيت سلام الله عليهم وعقد جلسات القرآن، أو حتى حثّ الأفراد للمشاركة في مثل هذا النوع من أعمال الخير، لأجل ترسيخ دعائم الدين؛ امتثالاً لهذا الأمر الإلهي (أقيموا الدين).

---

(١) راجع الخرائج والجرائح للراوندي: ج١ ص١٦٢ رقم ٢٥٢.

(٢) انظر مناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه للكوفي: ج١ ص٤٨٦ رقم ٣٩٣.

(٢٩)

وصايا عامّة للمبلّغين*

١. إحياء أمر أهل البيت سلام الله عليهم بتعريف المؤمنين مبادئهم؛ فقد جاء عن الإمام الرضا سلام الله عليه: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا»[١]. وإيصال نورهم ـ وهم مصباح الهداية ـ للعالم والناس كافّة لإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[٢] فقال: «يا أبا خالد! النور والله نور الأئمّة من آل محمد إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات والأرض»[٣].

٢. تعريف مبادئ وقيم النهضة الحسينية المقدّسة للعالم. فقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[٤].

وتشجيع الناس على إقامة الشعائر الحسينية بأحسن وجه، فإن إحياءها تعظيم لشعائر الله سبحانه وإحياء لأمر أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

* قبس من وصايا سماحة السيد المرجع دام ظله إلى الطلاّب والمبلّغين في مناسبات مختلفة.

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٩٢، باب وجوب العمل بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله و...، ح٣٣٢٩٧.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٨.

(٣) أصول الكافي: ج١ ص١٩٤، باب أن الأئمة نور الله عزّ وجلّ، ح١.

(٤) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني: ج٢ ص٣٢٧ ح١١٦.

٣. التعامل الأخلاقي الحسن مع الجميع، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة في أداء العمل، لأنّ الكلام إذا قيل بخُلق رفيع كان أثره أكبر وأعمق، قال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «**من حسّن خلقه كَثُر محبّوه وأنست النفوس به**»[1].

٤. محاسبة النفس كلّ يوم، فإن المبلّغ إذا هذّب نفسه وزكّاها استطاع التأثير أكثر. قال الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه: «**ثمرة المحاسبة صلاح النفس**»[2].

٥. الجدّ والاجتهاد في هداية الناس كافّة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عليّ... وأيم الله لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**»[3].

٦. الاهتمام الوافر بالشباب والأحداث، وعقد جلسات خاصة بهم وتعليمهم أصول الإسلام وعقائده وأحكامه وآدابه وأخلاقه وتعريفهم بسيرة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله والمعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم، والإجابة عن مختلف الأسئلة التي تجول في خاطرهم وذلك بأسلوب حديث وسهل وجميل. وتشجيع الشباب على إقامة النشاطات والفعاليات الدينية والثقافية والاجتماعية في سبيل إحياء أمر أهل البيت سلام الله عليهم. وحفظهم من خطر الغزو العقائدي والتيارات المنحرفة والفئات الضالّة والأخلاق الفاسدة. فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير**»[4].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ص٢٥٥ ح٥٣٧٥.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٥٤، باب وجوب محاسبة النفس و...، ح٩٥.

(٣) مجموعة ورام: ج٢ ص٢٧٧، باب ذكر جمل من مناهي رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٤) الفروع من الكافي: ج٨ ص٩١، حديث الرياح.

٧. تأكيد ضرورة اهتمام الآباء والأمهات بأولادهم ـ بنات وبنين ـ وتنشئتهم على التمسّك بحبّ وولاية الأئمة الهداة الأطهار، وحفظهم من خطر الغزو العقائدي والثقافي.

٨. التأهّب للأمر، والتهيّؤ للأسئلة المتنوعة والإجابة على أسئلة الناس بصدر رحب، وعدم التبرّم حتى من الأسئلة الساذجة أو السفيهة أحياناً. وتحمل الصعاب والأذى مهما كانت اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله.

٩. خدمة الناس والسعي في حلّ مشاكلهم وقضاء حوائجهم قدر المستطاع. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خير الناس من نفع، ووصل، وأعان**»[1].

١٠. السعي لبذر الكلمة الطيّبة في كلّ مكان ومع كلّ إنسان، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك، فلقد كان صلّى الله عليه وآله يستغلّ كلّ الفرص للتبليغ ويدع التفرّغ للعبادات المستحبّة إلى الأوقات التي لا فرصة للتبليغ فيها لمنتصف الليل.

١١. كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، وذلك بأن تكون أعمالكم وتصرفاتكم مطابقة لما تدعون إليه. قال الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه: «**كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الإجتهاد والصدق والورع**»[2].

١٢. الدعاء لتعجيل فرج مولانا المفدّى الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات كافة.

١٣. الإخلاص في العمل، فمن يخلص في عمله أكثر، ينل درجات أرفع عند الله عزّ وجلّ.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩٠، باب استحباب نفع المؤمنين، ح١٤٣٧٦.

(٢) أصول الكافي: ج٢ ص٧٨، باب الورع، ح١٤.

١٤. عليكم بالتواضع، فإن مفتاح الموفقية هـو تقبّـل الكـلام الحـق وطـرد التكبر والأنانية.

١٥. دراسة سـيرة العلمـاء والفقهـاء الـشيعة عبـر التـاريخ، والبحـث عـن الأساليب التي جعلت من بعض علماء الشيعة كالشيخ الصدوق والمفيـد والطوسي والأنصاري و...رضوان الله تعالى عليهم خالدي الذكر.

١٦. الاقتداء بسيرة أهل البيت سلام الله علـيهم الأخلاقيـة، ليكـون هـذا الاقتـداء مصداقاً طيباً لما تحملون من علم.

١٧. إحياء القلب بطاعة الله عزّ وجلّ.

١٨. الانتفاع من الوقت كلّه في طلـب العلـم، لأن العلـم لا نهايـة لـه، والله تعالى خاطب نبيه صلّى الله عليه وآله بـ ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[1].

١٩. الاستعانة بمختلف وسائل الإعلام والتقنية الحديثة فـي نـشر الإسـلام وتعريف العالم بواقعه الأصيل، وحقيقته الصادقة.

٢٠. الاهتمام بالكيفية دون الكمية. أي الاهتمام بنوعية الدراسة وإتقانها.

٢١. الاهتمام بالخطابة والكتابة لأنّها من لوازم الشخـصية العلميـة والقيـادة الناجحة. ولأجل تنمية ذلك ينبغي التوجّه إلى النقاط التالية:

أ ـ تقبّل النقد البنّاء.

ب ـ البحث عن مدرسين أو دورات للخطابة والكتابة.

ت ـ تخصيص جزء من الوقت لحفظ النصوص.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣٠)

وصايا عاشورائية لعامّة المؤمنين*

- أولى مهامّ محبّي أهـل البيـت سلام الله عليهم إعـلان شـأن عاشـوراء وثقافتها.
- يجب أن نبقي على جذوة ملحمة عاشوراء متّقدة على الدوام.
- علينا أن نعلم بأنّ الفضل في اشتراكنا في إحياء الشعائر الحـسينية يعود لآبائنا وأجدادنا.
- لنعلم أن ما ينفق ويبذل في سبيل الإمـام الحـسين سلام الله عليه هـو الأفضل.
- على الإنسان أن يوظّف نفسه من أجل خدمة الإمام الحسين سلام الله عليه.
- لا يمكننا أن ندّعي الانتماء لمدرسة عاشوراء، مـالم نبـذل الغـالي والنفيس في سبيل تحقيق أهدافها السامية.
- لنتعرّف على ماذا قدّمه الإمام الحسين سلام الله عليه لنـا، حتـى نـسلك طريقه ونتبع أثره.
- إذا كنتم لا تستطيعون بناء الحسينيات، فشجّعوا الآخرين على ذلك.

---

* هذه المجموعة من الوصايا أوصى سماحته بها جمعاً من المبلّغين العازمين على التوجّه إلى المناطق المختلفة من أجل التبليغ والهداية والإرشاد وإحياء الشعائر الحسينية بمناسبة حلول أيّام شهر محرّم الحرام وذكرى استشهاد أبي الأحرار الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه في العاشر منه.

- على المؤمنين أن يضيئوا مصباح الهداية الحسيني في بيوتهم عبر إقامة الشعائر المصغّرة.
- لنحاول أن لا يحرم أيّ شاب من المشاركة في الحسينيات والشعائر الحسينية.
- لنحاول تجنيب الحسينيات عن أن تكون مسرحاً للخلافات والنزاعات، ولنجعل منها أماكن للاجتماعات الطيّبة والوحدة والوئام.
- علينا أن نحذر ونحتاط، فلا نسيء إلى شيء من قضايا سيد الشهداء عليه السلام.
- أبسط ما يمكن القيام به ـ في إطار إيصال صوت الإمام الحسين سلام الله عليه للعالم ـ جمع مقدار من المال وتغطية تكاليف موقع على الانترنت.
- اسعوا إلى أن يكون أحد أبنائكم خادماً للإمام الحسين سلام الله عليه.
- ما أحسن الجمع بين أمر التطبير والتبرّع بالدم، ففي يوم عاشوراء يكون التطبير، وفي يوم ولادته سلام الله عليه يكون التبرّع بالدم.
- ليكن يوم أربعين الحسين سلام الله عليه يوم جمع كلمة المؤمنين والحذر من فتنة الأعداء والمنافقين.

أسأل الله تعالى لكم ولكلّ العاملين المخلصين التوفيق منه جلّ وعلا، بحقّ محمد وآله الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فهارس الكتاب

- الآيات الكريمة
- الأحاديث والروايات الشريفة
- مصادر الكتاب
- المحتويات

فهرس الآيات

الآية ورقمها | السورة | رقم الصفحة

الفاتحة

﴿إيّاكَ نَعبُدُ وَإياكَ نَستَعين/٥﴾.. ٧٣

البقرة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ كُتبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذينَ من قَبْلِكُمْ/١٨٣﴾ .... ٢٧٠، ٢٨١

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ/١٩٤﴾............. ٢٤٠، ٣٠٤

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ/٢٠٦﴾.. ٢٠٠

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأذى/٢٦٤﴾ ٢٩٣

آل عمران

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ/١٩﴾... ٢٣٠، ٣١٣

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء/٢٦﴾ ١٣٤

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ/٩٢﴾.. ٩٥، ١٣٤

﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ/٩٧﴾... ٢٧٠

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ/١٤٤﴾........ ٦٤

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ/١٥٩﴾ .... ٢٦٥، ٢٦٦

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ/١٩١﴾ ٢١٣

المائدة

﴿وَابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ/٣٥﴾.. ٢٨٤

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ/٦٧﴾.............................. ٢٩٨

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ/٨٢﴾.................... ١٠٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ/١٠٥﴾............ ٧٤

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُه وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ/١١٩﴾.................. ٢٨٣

الأنعام

﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ /٧٢﴾.. ٢٧٠

﴿فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ/١٤٩﴾ ١٩٠

الأعراف

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ/٣٢﴾............................ ٧٠

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ/١٧٥﴾ ٢٢

الأنفال

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا/٢﴾.......... ٢١٤

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ/٢٩﴾.................................... ٢٢٥

﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ.../٣٨﴾.................................... ٨٤

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ/٤٢﴾.......... ٢٣١، ٢٨٠، ٣٠١، ٣٠٧

التوبة

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ/٣٨﴾... ٢٠٦

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا/٨٢﴾ ٢٠٢

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ/١٠١﴾...... ٢٤١

يونس

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ/١٤﴾ ٢٩٤

هود

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ/١١٨ ـ ١١٩﴾ .... ١٠٠، ١٠٥، ١٨٢، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٠٧

يوسف

﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ/٥٣﴾ ١٩١

الرّعد

﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ/٢٨﴾ .... ٦٩، ٧٣، ٨١

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ/١٧﴾............... ٢٥٦

النحل

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ/٩٦﴾.. ٢٢٨

طه

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى/١ ـ ٢﴾ ٨٦

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً/١١٤﴾.. ٩٧، ٣١٩

﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا/١٣١﴾........... ١٢٩

النّور

﴿وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ/٤٠﴾ .... ٢١، ٢٦

الفرقان

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ/٧٧﴾ ١٤٦

الشعراء

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ/٨٨ ـ ٨٩﴾ ٥٩

القصص

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا/٧٨﴾ ١٠٥

الأحزاب

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.../٥٩﴾.............................. ٨٤
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ/٢١﴾.............................٢٣٧، ٢٦٥، ٣٠٥
﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ اللَّهَ/٣٩﴾ ٨٣

يس

﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى/٢٠﴾.. ٢٩٣

الصافات

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ/١٤٢﴾ ١٢١

ص

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ/٨٢ ـ ٨٣﴾ ١٨٣

الزمر

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ/٩﴾............................ ٢٧٨، ٣٠٦
﴿وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ/٤٧﴾................................ ١٣، ١٦، ١٧٨

غافر

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ/٥١﴾.............. ٢٨٥
﴿يَعلَمُ خَائِنَة الأعيُن.../١٩﴾ ٤١

الشورى

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيه/ ١٣﴾............................... ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٦٩، ٣١٣

الجاثية

﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون.../١٤﴾ .... ٨٤، ١٣٠

الأحقاف

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ/١٣﴾......... ٢٣٩

الفتح

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا/٢٩﴾ ٢٤٢

الحجرات

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ/١٣﴾ ١٠٤
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ/٧٥﴾ ٢١١

الذاريات

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ/٥٦﴾.. ٩

النجم

﴿وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى/٣٩﴾.................... ١٨٢، ٢٧٣

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى/٤٠﴾.................................. ٢٧٣

الحديد

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ/٢٣﴾............ ٢٦٤

الحشر

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ/١٩﴾ ٤٨

الصف

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ /٢﴾.................. ٦١

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ/٣﴾.................. ٦١، ٦٢، ٦٦

التغابن

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا/٨﴾.......................... ٣١٦

الطلاق

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا/٧﴾.................................. ٤٧

التحريم

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ/٤﴾ ٢٤٠

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ/١١﴾.................. ٢٦٤، ٢٩٤

القيامة

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة/١٤﴾ ٤٧

الإنسان

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا/٨﴾ ٩٦

النازعات

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى/٤٠ ـ ٤١﴾ ٢١٥

الانفطار

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ/١٠ ـ ١١﴾.. ١٧٣

المطفّفين

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ/٢٦﴾ ٢٨٧

﴿ولاَتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا/١٣١﴾ ......١٢٩ ـ ١٣١

البيّنة

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ/٥﴾.................................. ١٧١، ١٨٣

الكافرون

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ/١﴾.. ٨٤

فهرس الأحاديث

«أ»

«آه اسم من أسماء الله عزّ وجلّ. فمن قال: آه، فقد استغاث بالله» .... ١٥ ـ ١٦

«أحدهم يثب على أموال حقّ آل محمد وأيتامهم ... أتراه ظنّ أنّي أقول لا أفعل؟» ١٦

«احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيءٌ أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم» ٢١٦

«أخذ أعرابي بردائه صلّى الله عليه وآله فجبذه جبذة شديدة» ٢٤٠

«أخلص ودّك للمؤمن» ١٠٨

«أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى»................ ٢١٧

«أدّبني ربّي فأحسن تأديبي» ١٠٤

«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يغلب خيره شرّه قبّل الشيطان بين عينيه»............ ١٩١

«إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة» ١٤٠

«إذا صعدت روح المؤمن إلى السماء تعجبت الملائكة. وقالت: عجباً! كيف نجا» ١٨١

«إذا مات ابن آدم، انقطع عمله الا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية ١٠٤

«اذا صمتَ فليصُمْ سمعك وبصرك وشعرك وجلدك» ٢٨١

«إرادة الربّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم، والصادر عمّا فُصِّل» ١٦٠

«أراك تتعوّذ من مالك وولدك» ٢٢٥

«أسوّيت نفسك بهؤلاء؟ أما آذيت بهذا الملائكة، وآذيتنا؟» ٢٩٣

«أشدّكم من ملك نفسه عند الغضب» ٢٠٦

«أشهد أنّك طهر طاهر مطهّر من طهر طاهر مطهّر » .... ٣١٠، ٣١١
«اطلبوا العلم ولو بالصين» ١٨
«الأغلب من غلب بالخير، والمغلوب من غُلب بالشرّ، والمؤمن مُلْجَم» ١٤٥
«أغبِطُ أهل خراسان لمكان الفضل بن شاذان بمكانه بين أظهرهم» ١٦٤
«ألا ترضون أن يكون رسول الله في سهمكم» ١٢٥
«إلاّ من تنـزّهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحبّ المذمّة» ٢٠٣
«الآن قد عادت إليك مثوبات صدقاتك وزال عنها الإحباط» ٢٩٣
«ألم آتكم وأنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بي» ١٢٤
«اللهم إنّي أعوذ بك من مُضلاّت الفتن» ٢٢٥
«اللهمّ اجعلنـي عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة» ٢٩٧
«اللهم اهد قومي» ٣١٥
«اللهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف» ١٣٢
«اللهمّ ارزقه الكفاف» ١٣٢
«اللهمّ أكثِر ماله وولده» ١٣١
«اللهم لا تنـزع منّي صالح ما أعطيتنـي أبداً. ولا تردّني في سوء استنقذتنـي منه » ١٢١
«إلهي لا تكلنـي إلى نفسي طرفة عين أبداً» ٨٧
«أما إنّ أجلك قد حضر حتى وصلتَ عمّتك بما وصلت فزيد في أجلك عشرون» ٢٦١
«أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنَعَم ورجعتم أنتم ورسول الله في سهمكم» ١٢٥
«أمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فإنّهم حجّتـي عليكم» ١٦٦
«أمرني حبيبـي جبرئيل عليه السلام بمداراة الرجال» ١١٧
«إنّ الله اطلع إلى الأرض فاختار لنا شيعة ينصروننا.. أولئك منّا وإلينا» ٢٦٨
«إنّ الله عزّ وجلّ أخفى أربعة في أربعة ... فلا يستصغرنّ أحدكم أحداً» ٢٥٥
«إنّ أناساً من أهل الجنّة اطّلعوا على أناس من أهل النار» ٦٢
«أنت ومالك لأبيك» ٩٩

«إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم...» ١٥٤
«إنّ الأنبياء إنّما فضّلهم الله على خلقه بشدّة مداراتهم لأعداء الله...» ١٢٤
«أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه» ١٧٣
«أُنزلت عليّ هريسة، فأكلت منها، فزاد الله في قوتي قوّة أربعين رجلاً في البطش» ٢٦٧
«إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينـزق، ضحكه تبسّم» ٢١٢
«إنّ قائمنا أهل البيت إذا قام لبس لباس عليّ وسار بسيرته» ١٢٦
«إنّ علي بن أبي طالب كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر» ١٢٦
«إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى» ١٣٢
«إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواها» ٩
«إن كنت ترى أنك تعصي الله وتدخل الجنّة ... إذاً أنت أكرم على الله» ١٤٥
«إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» .... ٦٠، ٢٨٥
«إنّما خلد أهل النار في النار لأن نيّاتهم في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله» ٢٠٥
«إنّما هلك الناس باتّباع الهوى وحبّ الثناء» ٢٠٤
«إنما هي عزمة» ٣٠٣
«إنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر» ١٤٩
«اهجروهم واجتنبوا مجالستهم» ٢٧٨

«ب»

«باهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس» ٥٩
«بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة» ٢٩٩
«بعثت بمداراة الرجال» ١٧١
«بل أنا باقر» ٣٠٤
«بل لو شئتم قلتم: جئتنا طريداً مكذَّباً فآويناك وصدّقناك» ١٢٥
«بنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا ينزل الله الغيث» ١٦١

«ث»

«ثلاث من أتى الله بواحدة منهنّ أوجب الله له الجنّة: الإنفاق من إقتار» ١٩٣
«ثمرة المحاسبة صلاح النفس» ٣١٧
«ثواب العمل على قدر المشقّة» ٩٨

«ج»

«الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ» ٢٧٥
«جعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة» ١٥٤
«جلس يحدّث حتى غابت الشمس» ٨٩

«ح»

«حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم» ١٧٢
«حَدَثَ بِآلِ فَرَجٍ حَدَثٌ؟» ٢٧٩
«حزنه في قلبه وبشره في وجهه» ١٩٩
«حَسِن الخُلق ذهب بخير الدنيا والآخرة» ٣٠٣
«الحسن من كلّ أحدٍ حسن، ومنك أحسن؛ لمكانك منّا» ١٦٧
«الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة» ٣١٦

«خ»

«خير الناس من نفع، ووصل، وأعان» ٣١٨

«د»

«داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا» ١١٨
«دبيب الشرك في أمتي كدبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء» ١٨٠
«دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب» ٣٣٨
«الدعاء مخّ العبادة» ٢٧٦

«ر»

«رأس التواضع أن تكره أن تُذكر بالبرّ والتقوى»... ٢٠٤
«رأى رسول الله نخامة في المسجد فمشى إليها بعرجون.. فبنـى على صلاته» ٣٥
«رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ قَامَتْ فِي مِحْرَابِهَا لَيْلَةَ جُمُعَتِهَا... سَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ»............ ٢٧٥
«رحم الله عبداً أحيا أمرنا».. ٣١٦
«رخّص نفسك، واجلس في الدهليز واقض حوائج الناس، نحن ننصرك» ٢٥٥
«رضّنـي من العيش بما قسمت لي».. ٢٦٤، ٢٩٥
«رفع عن أمّتـي تسعة ... وما لا يعلمون»... ١٧٩
«ركعتان يصلّيهما العالم أفضل من ألف ركعة يصلّيها العابد»............................ ٣١٤

«ز»

«زهر مصباح الهدى في قلبه»... ٢١٣

«س»

«السكوت ذهب والكلام فضّة».. ١٣٩

«ش»

«شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت» ٢٨٣
« الشقيّ مَن حُرم رضوان الله».. ١٥٣
«الشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم» ١٥١
«الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» ١٥٣
«الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه» ١٥٢
«شيعتنا الخُلّص حزقيل المؤمن، مؤمن آل فرعون وصاحب يس» ٢٩٣

«ص»

«الصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد...».. ١٦١

«صانع المنافق بلسانك... وإن جالسك يهوديّ فأحسن»............................... ١٠٧، ١٠٨
«صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ».. ٩٩، ١٠١
«صنائع المعروف فإنّها تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان»................................ ٢٦١
«صدقة العلانية تدفع ميتة السوء»... ٢٦١

«ط»

«طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة».. ٢٥، ٢٤٤

«ع»

«العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة».. ٥
«العلم إذا لم يُعمل به لم يزد صاحبه إلاّ كفراً، ولم يزدد من الله إلاّ بعداً»..................... ١٦٣
«العلم نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء»... ٢١ ـ ٢٤، ٤٢
«العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلاّ بعداً»... ٤٧
«علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم ٢٥٢
«عليك بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير»... ٣٠٢، ٣١٧
«عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار»... ٢٥٧

«غ»

«غيّب وجهك عنّي».. ٩٣

«ف»

«فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني».. ٢٥٧
«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».. ٢٢
«فوّض الله إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً»............................... ٥٨

«ق»

«قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة»... ١٤٧

«القرآن شافع مشفّع وماحِلٌ مصدّق» ٢٨٦
«قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ....١٢٦، ٢٣٨
«قيّدوا العلم» ٥

«ك»

«كان أكثر عبادة أبي ذر التفكّر والاعتبار» ١٤٣
«كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة في ليلتها، ففُقد من الفراش، ١٢١
«كثرة الضحك تمحو الإيمان» ٢١٢
«كريم حليم ذو أناة» ٩١
«كلّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته» ٣٠٢
«كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الظمأ والجوع» ٢٨١
«كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الإجتهاد والصدق» .... ٩٢، ٢٠٢، ٣١٨
«الكيّس من كان يومه خيراً من أمسه» ٢٤٩

«ل»

«لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» ٣١٧
«لابن آدم لـمّتان؛ لـمّة من الملك ولـمّة من الشيطان» ١٩٠
«لا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا، ولا تداهنوا في الحقّ فتخسروا» ١١٨
«لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم» ٧٢
«لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم» .... ١٦٦، ٢٧٨، ٣١٤
«لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض» ١٥٧
«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه» .... ١٤٢، ١٩٨
«لنا محبين لو قطّعنا الواحد منهم إرباً إرباً ما زادوا إلاّ حبّاً» ١٨٦
«لولا أني أكره أن يقال إنّ محمداً استعان بقوم حتى إذا ... لضربت أعناق قوم» ..... ١٠٩،١٢٣
«لعمري إنك حقيق بأن تسرّ إن لم تكن أحبطته أو لم تحبطه فيما بعد» ٢٩٢

«لكل شيء آفة وللعلم آفات» ٦٧
«لما أُهبط آدم عليه السلام إلى الأرض جاءته وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره» ١٨٦
«لما دخل النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة كانت إحدى الرايات بيد سعد بن عبادة» ٢٦٨
«لم يقل لا تبطلوا بالمنّ على من تتصدّقون عليه» ٢٩٣
«لو صمت الدهر كله ... لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ»............................ ٢١٦
«لو عاينتم ما قد عاين مَن مات منكم، لجزعتم ووهلتم، وسمعتم وأطعتم» ١٧٨
«لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالذي قلت فمات على ذلك، دخل النار» ٢٠٥
«لولا أنّ بني أمية وجدوا مَن يكتب لهم ويجبي لهم الفي لما سلبونا حقّنا» ١٦٥
«لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم، لنظرالى الملكوت» ٢٠٩
«لولا ما على الأرض منّا لساخت بأهلها» ١٦١
«لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت» ٢٣٩
«ليست العبادة كثرة الصلاة الصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ» ٢١٣
«ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها»... ١٤٣
«ليس العلم بالتعلّم وإنّما هو نور يقع في قلب مَن يريد الله أن يهديه»........................ ٣٣
«ليس هذا ديني ولا دين آبائي» ٢٦٠

«م»

«ما أوذي نبيّ مثلما أوذيت» ٢٣٨
«ما رجل لم يصلّ لله ركعة دخل الجنّة غيره» ١١٩
«ما شيء أحق بطول الحبس من اللسان»... ١٤٥
«ما عرض لعليّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلاّ عمل بأشدّهما وأشقّهما عليه» ٩٨
«ما يبكيك يا أم سلمة».. ١٢٢
«ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل ماتكرهون... أن تأتوه فتؤنّبوه وتعذلوه» ٢٧٨
«ما ينال أحد ما عند الله عزّ وجلّ إلاّ بطاعته» ١٤٥

«مات علي بن أبي حمزة وأُدخل في قبره ... ثمّ ضرباه بمقعمة من نار فألهبا عليه قبره» ١٦٦
«ما منكم أحد إلاّ وله شيطان، وأنا، ولكنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم» ١٥٣
«المتقدم عنهم زاهق» ٩١
«مجالسة العلماء عبادة» ٥
«مداراة الناس نصف الإيمان» ١١٧
«مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه صلى الله عليه وآله متبسماً وأمر له بعطاء» ٢٤٠
«معذّب من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم ١١٨
«الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته» .... ١٦٩،١٧٣، ١٧٤
«من اتّهم نفسه أمِنَ خدع الشيطان» ١١٣
«من اتّهم نفسه فقد غالب الشيطان» ١١٣
«من أحبّ عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن» ٢١١
«من أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ٢١٤
«من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون» ٢٤٩
«مَن تعلّمتَ منه حرفاً صرتَ له عبداً» ٢٦
«من تلا فيه آية من القرآن، كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور» ١٥٧
«مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه الكلام فيما لا يعنيه» ١٤٠
«من حسّن خلقه كَثُر محبّوه وأنست النفوس به» ٣١٧
«من عاش مدارياً مات شهيداً» .... ١١٧، ١٢٨
«من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لا يعلم» ٢٣
«مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» ١٥٩
«المؤمن هشّ بشّ» ١٩٩

«ن»

«الناقد بصير» .... ٤٢، ٨٤

«نحن صنائع الله، والخلق كلهم صنائع لنا».. ١٦١
«نحن حجج الله على خلقه وجدّتنا فاطمة حجّة علينا»... ٢٥١
«نعوذ الله من غضب الحليم» ١٠٠
«النور والله نور الأئمّة من آل محمد إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل ٣١٦
«نوم مع علم خير من صلاة مع جهل».. ٩

«هـ»

«هاه، قد أبطلت برّك بإخوانك وصدقاتك».. ٢٩٢
«وهذا يفتح من الصلاة أبواباً كثيرة»... ٣٥
«هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر» ٢٢٥
«هيهات لا يُخدع الله عن جنّته».. ٢٩

«و»

«الورع عن محارم الله تعالى» .... ١٤٨، ٢٨٢
«ويل للصائم وويلٌ للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من...» ٢٠٣
«ويحك، أتدري من شيعتنا الخُلّص؟»... ٢٩٣
«وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان منه» ١٢٢

«ي»

«يا سريع الرضا».. ١٠٠
«يا يعقوب! قدمت أمس ووقع بينك وبين أخيك شرّ » ٢٦٠
«يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه» ٨٩
«يغفر الله للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالِم ذنباً واحداً»................................ ٤٧
«اليوم يوم المرحمة اليوم تحمى الحرمة» ٢٦٨

فهرس المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

«أ»

إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي، أبو حامد / ت ٥٠٥ هـ / ط. دار المعرفة ـ بيروت.

الاختصاص لأبي عبد الله محمد بن النعمان العكبري، المفيد / ت ٤١٣ هـ / ط. جماعة المدرسين ـ قم.

إرشاد القلوب للشيخ أبي محمد الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي / من أعلام القرن الثامن / ط. منشورات الرضي ـ قم.

الإستبصار للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي / ت ٤٦٠ هـ / ط. دار الكتب الإسلامية ـ قم.

أسرار الشهادة للشيخ آغا بن عابد الشيرواني الحائري الدربندي / ت ١٢٨٥ هـ / ط. دار ذوي القربى ـ قم.

أعلام الدين في صفات المؤمنين للشيخ أبي محمد الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي / من أعلام القرن الثامن الهجري / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام ـ قم.

إعلام الورى بأعلام الهدى لأمين الإسلام الشيخ أبي علي الفضل بن

الحسن الطبرسي / ت ٥٤٨ هـ / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام ـ قم.
الأمالي لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي / ت ٤٦٠ هـ / ط. دار الثقافة ـ قم.

«ب»

بحار الأنوار للعلامة محمد باقر بن محمد تقي، الملقب بالشيخ المجلسي / ت ١١١١ هـ / ط. مؤسّسة الوفاء ـ بيروت.

البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي / ت ٧٧٤ هـ / ط. دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

«ت»

تاج العروس لمحب الدين أبي الفيض السيّد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي / ت ١٢٠٥ هـ / ط. مكتبة الحياة ـ بيروت.

تاريخ مدينة دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر / ت ٥٧١ / ط. دار الفكر ـ بيروت.

تحف العقول لأبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني / من أعلام القرن الرابع الهجري / ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

التحفة السنية للسيّد عبد الله نور الدين بن نعمت الله / ت ١٠١٩ هـ / مخطوط.

تفسير الإمام العسكري منسوب الى الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما السلام.

تفسير القمّي لأبي الحسن علي بن ابراهيم القمّي / ت ٣٢٩ هـ / ط. مؤسّسة دار الكتب ـ قم.

تفسير مجمع البيان لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي / ت ٥٤٨ هـ / ط. مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

تفسير الميزان للسيّد محمد حسين الطباطبائي / ت ١٤٠٢ هـ / ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

تهذيب الأحكام للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي / ت ٤٦٠ هـ / ط. دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

التوحيد للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمّي، الصدوق / ت ٣٨١ هـ / ط. جامعة مدرسين ـ قم.

«ج»

جامع الرواة للعلامة محمد بن علي الأردبيلي / ت ١١٠١ هـ / ط. مكتبة المحمدي ـ قم.

جامع السعادات للشيخ محمد مهدي النراقي / ت ١٢٠٩ هـ / ط. مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف.

«خ»

خصائص الأئمة لأبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي، الشريف الرضي / ت ٤٠٦ هـ / ط. مجمع البحوث الإسلامية، الأستانة الرضوية المقدّسة ـ مشهد.

الخصال للشيخ أبي محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، الصدوق / ت ٣٨١ هـ / ط. جماعة المدرسين ـ قم.

خلاصة عبقات الأنوار للسيّد حامد الحسيني النقوي / ت ١٣٠٦ هـ / ط. مؤسّسة البعثة ـ قم.

«ر»

روضة الواعظين للعلامة محمد بن الفتّال النيسابوري / ت ٥٠٨ هـ / ط. منشورات الرضي ـ قم.

«س»

سعد السعود لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس / ت ٦٦٤ هـ / ط. الحيدرية ـ النجف الأشرف.

«ش»

شجرة طوبى للشيخ محمد مهدي الحائري / من أعلام القرن الرابع عشر الهجري / ط. المكتبة الحيدرية ـ قم.

شرح الأخبار للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المقري / ت ٣٦٣ هـ / ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

شرح نهج البلاغة لعزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي / ت ٦٥٦ هـ / ط. دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت.

«ص»

الصحيح من السيرة للسيّد جعفر مرتضى العاملي / معاصر / ط. دار الهدى ـ بيروت.

«ع»

عدة الداعي لأحمد بن فهد الحلّي / ت ٨٤١ هـ / ط. حكمت ـ قم.

عوالي اللئالي للشيخ محمد بن علي بن ابراهيم الاحسائي، المعروف بابن

أبي جمهور / ت ٨٨٠ هـ / ط. سيّد الشهداء عليه السلام ـ قم.

عيون الحكم والمواعظ للشيخ أبي الحسن علي بن محمد الواسطي / من أعلام القرن السادس الهجري / ط. دار الحديث ـ قم.

«غ»

غرر الحكم للآمدي الشيخ أبي الفتح عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد / ت ٥١٠ هـ / ط. مكتبة الإعلام الإسلامي ـ قم.

الغيبة للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي / ت ٤٦٠ هـ / ط. مؤسّسة المعارف الإسلامية ـ قم.

«ف»

الفرج بعد الشدّة للقاضي أبي علي الحسن بن أبي القاسم التنوخي / ت ٣٨٤ هـ / ط. منشورات الرضي ـ قم.

الفصول المختارة لأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري، المفيد / ت ٤١٣ هـ / ط. دار المفيد ـ بيروت.

فضائل الأشهر الثلاثة للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي الصدوق / ت ٣٨١ هـ / ط. دار المحجّة البيضاء ـ بيروت.

فلاح السائل لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس / ت ٦٦٤ هـ / ط. الحيدرية ـ النجف الأشرف.

«ق»

القاموس المحيط للشيخ نصر الهوريني / ت ٨١٧ هـ / .

«ك»

الكافي للشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني / ت ٣٢٨ هـ / ط. دار الكتب الاسلامية ـ طهران.

كمال الدين وتمام النعمة للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، الصدوق / ت ٣٨١ هـ / ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

كنز العمّال للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي / ت ٩٧٥ هـ / ط. مؤسّسة الرسالة ـ بيروت.

كنز الفوائد للعلامة أبي الفتح محمد بن علي الكراجكي / ت ٤٤٩ هـ / ط. مكتبة الصطفوي ـ قم.

«ل»

لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن منظور / ت ٧١١ هـ / ط. دار إحياء التراث العربي ـ قم.

اللمعة البيضاء للمولى محمد علي بن أحمد التبريزي الأنصاري / ت ١٣١٠ هـ / ط. دفتر نشر الهادي ـ قم.

«م»

مجمع الزوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي / ت ٨٠٧ هـ / ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

مجموعة ورّام للأمير الزاهد أبي الحسين ورّام بن أبي فراس الأشتري / ت ٦٠٥ هـ / ط. دار الكتب الاسلامية ـ طهران.

مدينة المعاجز للسيّد هاشم بن سليمان البحراني / ت ١١٠٧ هـ / ط. مؤسّسة المعارف الاسلامية ـ قم.

المزار للشيخ محمد بن مكّي العاملي، المعروف بالشهيد الأوّل / ت ٧٨٦ هـ / ط. مدرسة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ قم.

مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي الشاهرودي / ت ١٤٠٥ هـ / ط. مؤسّسة النشر الاسلامية ـ قم.

مستدرك وسائل الشيعة للميرزا حسين النوري الطبرسي / ت ١٣٢٠ هـ / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري / ت ٤٠٥ هـ / ط. دار المعرفة ـ بيروت.

مستند الشيعة للمولى أحمد بن محمد مهدي النراقي / ت ١٢٤٥ هـ / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ مشهد.

مسند الربيع للربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي / من أعلام القرن الثاني الهجري / ط. الأزهار البارونية ـ بيروت.

مشكاة الأنوار لأبي الفضل علي الطبرسي / من أعلام القرن السادس وأوائل السابع الهجريين / ط. المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

مصباح المتهجد لأبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي / ت ٤٦٠ هـ / ط. مؤسّسة فقه الشيعة ـ بيروت.

مصباح الزائر للسيّد رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس / ت ٦٦٤ هـ /

معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله، ياقوت الحموي / ت ٦٢٦ هـ / ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

معدن الجواهر لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي / ت ٤٤٩ هـ / ط. مهر أستوار ـ قم.

مكارم الأخلاق للشيخ رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي / ت ٥٤٨ هـ / ط. منشورات الشريف الرضي ـ قم.

من لا يحضره الفقيه للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، الصدوق / ت ٣٨١ هـ / ط. جماعة المدرسين ـ قم.

مناقب آل أبي طالب لمشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني / ت ٥٨٨ هـ / ط. الحيدرية ـ النجف الأشرف.

منتخب الأنوار للسيّد بهاء الدين بن عبد الكريم النيلي النجفي / ت ٨٠٣ هـ / ط. مؤسّسة الإمام الهادي عليه السلام ـ قم.

منية المريد للشيخ زين الدين بن علي العاملي، المعروف بالشهيد الثاني / ت ٩٦٥ هـ / ط. مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم.

«ن»

نوادر المعجزات لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري / ت أوائل القرن الرابع الهجري / ط. مؤسّسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ قم.

«و»

وسائل الشيعة للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي / ت ١١٠٤ هـ / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

«ي»

ينابيع المودّة للشيخ سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي / ت ١٢٩٤ هـ / ط. أُسوة ـ قم.

فهرس المحتويات

المقدّمة ٥

الفصل الأول: المحاضرات

١. العلم والأخلاق ٩

العلم ينقذ.. ١١

أهمية العلم للواعظ ١٤

موعظة تاريخية ١٥

الهلاك خيرٌ من الافتراء ١٦

ضرورة التعبئة العلمية والأخلاقية ١٧

٢. العلم نور.. ٢١

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ٢٣

دع المراء وإن كنت محقّاً ٢٤

الأخلاق من دلالات النور ٢٦

من قصص العلماء ٢٨

٣. العلم النافع ٣٣

الكيف هو المطلوب.. ٣٣

الاعتبار سبيل النجاة ٣٤

أدب العالم يكشف عن إخلاصه ٣٨
قبس من سيرة العلماء.. ٣٩
فإنّ الناقدَ بصيرٌ... ٤١
الإخلاق طريق النجاة... ٤٥
النتيجة.. ٤٨
٤. الفرق بين الأخلاق والعلوم الأخرى ٤٩
١. رمزية الأخلاق.. ٤٩
٢. صعوبة الارتقاء ٥٢
٣. فقدان عامل التشجيع ٥٥
٤. التمويه ومحاولة الإيقاع في الشبهات ٥٧
الخلاصة ٥٩
٥. بالعمل يكون التأثير للقول...٦١
اقتران القول بالعمل... ٦٢
بين التربية والترويض ٦٣
العلماء باقون ما بقي الدهر.. ٦٥
الخلاصة ٦٦
٦. تذليل الصّعاب في طلب العلم ٦٧
الإرادة معيار التغيير ٧٠
١. تقوية العلاقة مع الله ٧٣
٢. ترويض النفس اساس التغيير ٧٣
٣. الاهتمام بالكيف أكثر من الكمّ ٧٤

مقارنة مفيدة..٧٦
في التكرار إفادة ٧٧
٤. الاهتمام بالخطابة والكتابة ٧٩
أ. تقبّل النقد البنّاء..٧٩
ب. البحث عن مدرّسين جيدين...٨٠
ج. حفظ النصوص ٨١
٧. التبليغ ٨٣
القرآن والتبليغ ٨٣
الهدف هو التبليغ...٨٥
أهمية التبليغ في سيرة النبي وأهل بيته...٨٥
أثر التبليغ على بلدان بأكملها ٨٧
أفضلية التبليغ ٨٩
التأهّب للتبليغ ٩١
كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ٩٢
صفات المبلّغ ٩٢
الخلاصة ٩٤
٨. الإنفاق وتربية النفس ٩٥
الإنفاق الذي يربّي النفس...٩٥
الأشقّ على النفس أنفع ٩٧
أفضلية الإنفاق على الأرحام ٩٨
صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ ٩٩

الهدف من الفضائل الأخلاقية ١٠١
قصة فيها عبرة ١٠١
تربية النفس أوّلاً.. ١٠٣
٩. في التعامل مع الناس ١٠٧
مصانعة المنافق ١٠٧
الاقتداء بنهج النبيّ وأهل بيته ١٠٨
تهذيب النفس طريق الإبداع ١١٠
أحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك........................ ١١١
الترفّع عن صغائر الأمور ١١٤
١٠. المداراة من طرق هداية الناس ١١٧
الفرق بين المداراة والمداهنة ١١٨
من نداري؟.. ١١٩
المداراة: تقديم الأهم على المهم ١٢٠
النبي يونس والمداراة ١٢١
ولكم في رسول الله صلّى الله عليه وآله أسوة............ ١٢٢
المعصومون أسوة.. ١٢٤
شروط لابدّ منها.. ١٢٥
مثال عملي ١٢٧
المداراة أسهل طرق الهداية ١٢٨
١١. الحرص والكفاف ١٢٩
ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى ١٣١

ما المقصود بالكفاف؟ ١٣٣
الهدف سموّ النفسّ ١٣٤
من مواعظ السيّد المسيح ١٣٥
١٢. قيمة السكوت ١٣٩
السكوت طريق الرقيّ ١٤١
فكّر ثم تكلّم ١٤٢
وقتك حياتك ١٤٣
الفضائل الخمس ١٤٤
١٣. الترويض والهداية وجمال التعبير ١٤٧
أفضل الأعمال في شهر رمضان ١٤٧
ما هو الورع؟ ١٤٨
الواجب الأوّل: ترويض النفس ١٤٩
تغيير النفس بحاجة إلى مقدّمات ١٥١
الشقي مَن حرم رضوان الله ١٥٣
أنفسنا مرهونة بأعمالنا ١٥٤
الثواب في رمضان يضاعَف سبعين ضعفاً ١٥٤
الواجب الثاني: هداية الناس ١٥٥
المقدّمة الأولى: تحصيل العلوم الإسلامية ١٥٥
المقدّمة الثانية: جمال التعبير في القلم والكلام ١٥٧
١٤. مسؤولية العلماء في عصر الغيبة ١٥٩
مقادير الأمور بيد الإمام ١٦٠

مهمّة رجل الدين ١٦٣
مسؤوليتنا مضاعفة ١٦٦
١٥. الإخلاص شرط القبول ١٦٩
بعض الأعمال قوامها النية ١٦٩
العبادات شرطها النية ١٧١
ما خفي على الملائكة لا يخفى على الله ١٧٣
أين الله؟! ١٧٤
يشكو لله غربة دينه ١٧٥
الشيطان يأتي كلّ إنسان من نقطة ضعفه ١٧٧
حذار من الشرك الخفي ١٧٩
داؤك منك ودواؤك فيك ١٨١
١٦. الاخلاص وآثاره ١٨٣
الفرق بين المخلِص والمخلَص ١٨٣
الإخلاص من الأمور الواقعية ١٨٤
آثار الإخلاص في الواقع العملي ١٨٤
الإخلاص ونتائجه المستقبلية ١٨٦
مسؤولية رجال الدين ١٨٧
الإخلاص المزيّف وانعكاسه ١٨٩
١٧. ثمن الجنة ١٩٣
الخصلة الأولى: الإنفاق من إقتار ١٩٤
الإنفاق من إقتار أفضل من الإيثار ١٩٥

الخصلة الثانية: البِشر لجميع العالم ١٩٦
الاستقامة شرط أساسي ١٩٧
المؤمن هشّ بشّ.. ١٩٩
الخصلة الثالثة: إنصاف الناس من النفس.......................... ٢٠٠
مزيداً من التفكير في الجنّة.. ٢٠١
١٨. حبّ الذمّ وكراهة المدح ٢٠٣
بغض المدح رأس التواضع ٢٠٤
الآثار السيّئة للمدح ٢٠٥
حقيقة التأثر وعدمه.. ٢٠٦
التخبّط في الشبهات... ٢٠٧
١٩. النظر إلى ملكوت الله.. ٢٠٩
القلب أوّلاً.. ٢١٠
آثار حزن القلب... ٢١٢
وسائل التطهير ٢١٤
٢٠. الابتعاد عن هوى النفس ٢١٥
التلازم بين الخوف واجتناب الهوى.................................. ٢١٥
الهوى أعدى أعداء الإنسان ٢١٦
بين الخسارة الدنيويّة والربح الأخروي ٢١٨
من يتّق الله يُرزق.. ٢١٩

الفصل الثاني: الوصايا

١. الاقتداء والاعتبار ٢٢٣

١ـ الاقتداء بالعلماء الربانيين ٢٢٣
٢ـ الاعتبار بعاقبة الظالمين ٢٢٦
٢. تعلّم محاربة «الأنا» من العلماء ٢٢٨
٣. العلماء وإقامة الدين ٢٣٠
مقدّمات إقامة الدين ٢٣٠
واقعية التشيّع ٢٣١
الخبرة في سوق العلم ٢٣٢
إقامة الدين مسؤولية عامّة ٢٣٣
٤. لنتعلم من ورع العلماء ٢٣٤
٥. التأسي برسول الله في صموده وأخلاقه ٢٣٧
٦. طلب العلم فريضة ٢٤٤
٧. كيف نحظى برعاية صاحب الزمان؟ ٢٤٧
٨. ليكن يومنا خيراً من أمسنا ٢٤٩
٩. التأسي بالصديقة الزهراء ٢٥١
١٠. السعي في قضاء حوائج الناس ٢٥٤
١١. الأجر على قدر المشقّة ٢٥٦
١٢. هكذا تطول الأعمار ٢٦٠
١٣. منهل السعادة ٢٦٣
١٤. سرّ النجاح ٢٦٥
١٥. العمل من أجل إيجاد مجتمع مؤمن ٢٧٠
١٦. شروط الرقيّ ٢٧٣

١٧. من سمات الأولياء ٢٧٥

١٨. مسؤولية العلماء ٢٧٨

١٩. شهر رمضان فرصة للتزكية والهداية........................ ٢٨١

٢٠. شهر رمضان وتعميم الثقافة القرآنية........................ ٢٨٦

٢١. الدعاء مفتاح لحلّ المشكلات ٢٨٨

٢٢. هكذا تحبط الصدقات.. ٢٩٢

٢٣. هنا تكمن السعادة ٢٩٤

٢٤. التبليغ والمنبر الحسيني ٢٩٧

٢٥. حسن الخلق يحوز خير الدارين ٣٠٣

٢٦. الثقافة هي الاساس.. ٣٠٦

٢٧. التبليغ رسالة العلماء ٣١٠

٢٨. نشر مبادئ أهل البيت ٣١٣

٢٩. وصايا عامّة للمبلّغين ٣١٦

٣٠. وصايا عاشورائية لعامّة المؤمنين ٣٢٠

فهارس الكتاب

فهرس الآيات.. ٣٢٥

فهرس الأحاديث.. ٣٣٣

فهرس المصادر.. ٣٤٣

فهرس المحتويات.. ٣٥١